حنين بن اسحق

وعصر الترجمة العربية

تأليف:

نسيم مجلى

فهرس الكتاب

1- تمهيد – حنين بن اسحق ومطالبنا العصرية
2- عصر الترجمة العربية
3- حنين-حياته ونشأته
4- المترجم والفقيه
5- رسالة حنين فيما أصابه من محن
6- حنين والسلطة العباسية
7- طب العيون
8- مؤلفات حنين وترجماته
9- حنين ومدرسته العلمية
10- حنين وعلم الفهرسة
11- تراث حنين فى الأدب السريانى
12- مؤلفاته الفلسفية والدينية
13- رسائل فى الحوار بين المسيحية والإسلام
14- نوادر وآداب الفلاسفة
15- أثار حركة الترجمة العربية
16- مصادر البحث
17- الفهرس

تقديم

بقلم: الدكتور عبد المنعم تليمة

يضيف هذا الكتاب إضافة علمية جديدة إلى جهودالعلماء والدارسين الذين عملوا فى حقل التراث بإحيائه وتوثيق نصوصه وتدوين تاريخه ورصد مواضع الإبداع ومواضع إلتقاء هذا التراث بالمشترك الثقافى الإنسانى وأليات التأثير والتأثر بين تراثنا وما أبدعته الثقافات والحضارات القد يمة والوسيطة.

وينص تاريخ العلم على أن حركة الترجمة فى الإزدهارة العباسية قد نقلت كل ما وقعت عليه من موروثات الأمم دون تحفظ أو تردد أمام مضامين دينية أو فكرية تغاير عقيدة المسلمين إلى جانب أن الذين نهضوا على تلك الحركة – مع العلماء والمترجمين العرب والمسلمين– مترجمون من االنصارى واليهود والصابئة وغيرهم، وكل هذا جعل تلك الحركة قاعدة متينة من قواعد حوار الثقافات والحضارات، وبين أعلام هذه الحركة يسطع إسم حنين بن اسحق.

ويصوغ مؤلف هذا الكتاب الذى بين أيدينا سيرة موثقة وافية لحنين، محددا دوره الباقى من الترجمة ووضع المصطلحات وفى نشوء العلوم وريادة الحوارالحضارى، ويدعوالمؤلف إلى استلهام ذلك التراث العلمى الخالد، بتأسيس مشروع علمى ثقافى عربى معاصر، يضيف إلى التراث ويبتكر جديدا نشارك به فى عمل العلم الراهن والإعداد لمستقبل حضارى إنسانى.

د. عبد المنعم تليمة

تمهيد

1- حنين بن اسحق ومطالبنا العصرية:

يقول سارتون فى كتابه"مدخل الى تاريخ العلوم" إن بعض المؤرخين قد حاولوا أن يغضوا من قدر العرب وإنتاجهم فى عالم الفكر حينما ادعوا أن ما جاء به العرب لم يكن فيه شئ مبتكر. لأن العرب لم يكونوا إلا مقلد ين. إن مثل هذا الحكم خطأ فليس هناك إبتكار أعظم من ذلك التعطش الذى ملك على قادة الفكر العربى حواسهم فى سبيل المعرفة ... ولا يمكن أن يكون هنالك إبتكار مخلوق من العدم.(مدخل الى تاريخ العلوم)

هذا التعطش الشديد إلى المعرفة هو الذى دفع حنين بن اسحق للبحث والتنقيب فى دروب اللغات والعلوم وتحدى كل الصعاب والمعوقات حتى صار هذا العالم الفذ الذى يشهد بعظمته وأصالته كبار العلماء والمؤرخين فى الشرق والغرب.

إنها محاولة شخصية من جانبى لفهم دور العبقرية الفردية فى حوارها مع روح العصر العباسى الذى برزت فيه وأتاح فرصة النمو والازدهار لكثير من العلماء والمفكرين والشعراء فكانت الحضارة العربية، وظنى أن هذا الفهم يمكن الوصول إليه بانجاز:الخطوتين التاليتين بأكبر قدر من الدقة والموضوعية:

1-كتابة بيوجرافيا أو سيرة حياة هذا العالم العربى الكبير بصورة دقيقة وموثقة وابراز دوره في حركة الترجمة ليس فقط كمترجم لحوالى مائة كتاب من اليونانية إلي السريانية وسبعة وثلاثين كتابا الى العربية وليس فقط كفقيه لغوي ومؤلف لعدد من كتب فقه اللغة العربية ونحوها وانما كرسول ثقافي حضاري قام بأسفار عديدة للحصول علي الكتب والمخطوطات وأقام علاقات مع الروم والبيزنطيين من أجل هذه الغاية. وقد أتاحت هذه الأمور فرصة للحساد للكيد والدس له عند بعض الخلفاء مما عرضه لأشد المحن التي تغلب عليها بايمانه بالله وبرسالته كطبيب مهمته هي علاج المرضي وتخفيف آلامهم وليس صنع السموم الفتاكة لقتل الخصوم مما أكسبه مكانة عالية لدى خلفاء الدولة العباسية وله في

هذا المجال مواقف مشهودة سجلها القفطى وابن جلجل وابن ابي أصيبعة في كتابه"عيون الأنباء في طبقات الأطباء " تجعل من هذا العالم نموذجاً في الالتزام بالأمانة العلمية والإصرار علي ربط رسالة العلم بخدمة الانسان.

2- دراسة العصر وإبراز العوامل التي دفعت المسلمين للانفتاح علي الثقافات الكلاسيكية مثل اليونانية والفارسية والهندية دون خوف من الغزو الثقافى أوالمؤامرات الخارجية مثلما يحدث الآن فى مصر وفى بقية البلاد العربية والإسلامية.

وقد وقع اختياري علي هذا الموضوع لأنني أرى أن حركة الترجمة العربية في العصر العباسي كانت أول وأعظم حركة ثقافية تجسدت فيها فكرة حوار الحضارات ليس فقط لأن الترجمة شملت نقل التراث الإغريقى والفارسى والهندي أى التعامل مع ثقافات وثنية وعقلانية مختلفة بل لأن هذه الحركة اعتمدت أساساً علي مترجمين وعلماء مسيحيين ويهود وصابئة ومن كل الأجناس. وبهذا جسدت فكرة الحوار والتعايش شكلاً ومضموناً بين العرب المسلمين وبين غيرهم من الشعوب والجماعات العرقية والدينية.

كذلك فانني أرى أنه إذا كانت حركة الترجمة قد جسدت هذا وأكدته فانني أرى في شخصية حنين بن اسحق وأعماله شاهدها الأكبر. فقد كان طبيباً لخمسة خلفاء من العباسيين وموضع ثقتهم ورعايتهم. وقد عينه المأمون كبيرا للمترجمين فى بيت الحكمة حيث جمع حوله عددا من التلاميذ النجباء منهم ولده اسحق ابن حنين وابن أخته حبيش بن الأعسم ورهط آخر نذكر منهم ثابت بن قرة وعيسى بن يحى بن إبراهيم وموسى بن خالد وأبا عثمان سعيد وعيسى بن على، وجعل منهم مدرسة للبحث العلمى وترجمة العلوم الطبية والفلسفية. وقد أرست هذه المدرسة أصول المصطلحات العلمية فى لغتنا العربية وهى قضية لازالت تشغلنا حتى الآن وتحتاج منا لاهتمام جاد. لقد أدت حركة الترجمة إلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية التى أضاءت بلاد الشرق فى الوقت الذى رانت فيه حجب الجهل والظلام على كل بلاد أوربا.

واعتقد أننا مطالبون بالكشف عن هذه الروح التى اتسمت بها الحضارة العربية والتى تنبذ التعصب والإرهاب ليس فقط من أجل مخاطبة الآخرين وانما لإنعاش ذاكرتنا القومية، وإذكاء هذا الوعى

فى شبابنا لحمايته من شرور التفسيرات الخاطئة للدين, ومن الدعوات الضالة التى تدفعه الى طريق العنف المدمر لحركات التقدم والعمران. وبهذا نؤكد مصداقية خطابنا الثقافي في الرد على دعاوى الحرب المجنونة التي تنشرها قوى الاستعمار الغربى والتى تتخذ من أحداث الحادى عشر من سبتمبر دليلاً علي حتمية الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وهو اتجاه خطير يهدد بتدمير إمكانياتنا المادية والبشرية لسنين طويلة.

لابد من الربط بين الدور الذي لعبته الترجمة العربية في حماية تراث الإنسانية واسهام العرب في النهضة الأوربية وتأكيد ذلك بشتى الطرق من أجل صياغة مشروع ثقافي معاصر يستند إلى العقل والعدل لتحقيق السلام والتنمية والرخاء لنا ولشعوب العالم أجمع.

ولا بأس أن يتم الربط من خلال إحيائنا لتراثنا العلمى، فقد بدأت النهضة الأوربية بإحياء التراث الكلاسيكي وترجمة العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية. فهل نأمل فى إكمال دائرة التشابه فنخرج من حالة الحيرة والتخلف التى تعانيها شعوبنا العربية لنساير هذا العصر وثقافته بخطى ثابتة. فى تصورى أن هذه خطوة ضرورية لأننا مفتونون بفكرة الأصالة، فقد أدمنا تعاطى التراث بصورة مخيفة حتى كادت أن يصبح مرجعيتنا الوحيدة، نتيجة لإغراق العقول فى تراث العصور المتخلفة وفى التفسيرات الدينية المعادية للعقل ولحرية الانسان جريا وراء هذه الأصالة المزعومة، رغم أن الأصالة الحقيقية لا توجد إلا فى تراثنا العلمى، أعنى فى مقوماته العقلية والوجدانية التى أدت الى انتاج هذا التراث وإبداع ذخائره، هذه القدرات النفسية والعقلية هى التى دفعت أبناء هذه الأمة الى الانفتاح على تراث الإغريق والفرس وتراث الهند دون خوف أو تردد فحققوا أعظم أمجاد الحضارة العربية .

لقد سقطت الحضارة العربية بتولى الأتراك زمام السلطة فى بلادنا العربية، واستمر الظلام التركى العثمانى حوالى خمسة قرون، عزلنا فيها عن العالم وعن النهضة الأوربية حتى استيقظنا على طلقات مدافع الحملة الفرنسية. ورغم صحوة مؤقتة أحدثتها هذه الحملة فى عهد محمد على وفى عصر الليبرالية فى أعقاب ثورة 1919 إلا أن الواقع يشهد بأننا خرجنا من سباق العصر ولم يعد لنا أى إسهام فى الحضارة الحديثة حتى أصبحنا هامشا على صفحة كتاب، كما يقول الدكتور زكى نجيب فى كتابه " هذا العصر وثقافته" فخروجنا من سباق الحضارة مؤكد منذ عدة قرون، وغربتنا عن العصر وعلومه باتت واضحة للعيان. وقد فشلت حركات التنوير والتحديث نتيجة لهذا الوضع الثقافى المزرى،

ولأن حركات التنوير لم تحسن الربط بين فكر التنوير العقلاني وتراثنا العلمى فى عصور العباسيين وأيام الفراعنة فبدت دعاوى التنوير والتحديث كما لو كانت غزوا ثقافيا غريبا ومعاديا ترفضها غالبية الأمة وتفضل عليها البقاء فى حالة التخلف والفقر. فلابد من تبديل اختياراتنا للتراث بتحقيق منجزاته العلمية والكشف عن ذخائره وكنوزه لكسر حاجز الاغتراب النفسى سعيا للدخول فى روح هذا العصر وحضارته.

وهذا ما يؤكده الدكتور محمد سليم سالم فى مقدمة تحقيقه لكتاب من" جالينوس إلى غلوقن فى التأتي لشفاء الأمراض " حيث يقول " وليس لهذا الكتاب أهمية تاريخية فحسب وانما له قيمة عملية أيضا. فالأمراض لازالت تعصف بالبشر، وإن تقدمت طرق تشخيصها والعقاقير التى تستخدم فى العلاج، فما زالت لها خواصها وان اختلفت طرق تركيب الأدوية ووسائل إعطائها للمرضى. ومن المفيد أن يكون لدينا دليل خبير إن أردنا إجراء التجارب على هذه العقاقير التى يزخر بها هذا الكتاب"

وتعقيبا على ما قاله هذا العالم الجليل أقول حين أدعو الى هذا الأمر فاننى لا أدعو الى حالة ردة أو تراجع وانما أدعو للاقتراب أكثر من روح العصر وعلوم العصر، ويكفى دليلا على ذلك أن نعرف ما يقوله المستشرق ماكس مايرهوف من أن كتاب " العشر مقالات فى العين" الذى وضعه حنين بن اسحق، هو أقدم كتاب مؤلف على الطريقة العلمية "فى طب العيون. وأن جميع أطباء العيون المتأخرين قد اقتبسوا من ذلك الكتاب وشرحوه" أو ما يقوله المستشرق الألمانى شتروهماير من "أن أساليب حنين بن اسحق فى جمعه للمخطوطات العديدة وتحقيقها وعمله فى تطوير اللغة لكى تلائم الاحتياجات العلمية عن طريق الترجمة يجعله زميلا لنا بالرغم من هذه الأحد عشر قرنا التى تفصلنا عنه".

من هنا فان عملى هذا هو دعوة للتصالح مع النفس ومع العقل من أجل كسر حاجز الاغتراب والدخول الى حضارة العصر من الطريق الذى ألفناه وهو طريق التراث. ليست رجعة الى الوراء إذن وإنما خطوة الى الأمام فى سبيل اللحاق بهذا العصر وثقافته.

لقد تعرض تراثنا العلمى للإهمال الشديد وحسبنا أن نعرف أن أول مرة بل وأخر مرة يتم فيها الاحتفال بذكرى حنين بن اسحق فى عالمنا العربى كان فى مهرجان"افرام وحنين" الذى أقيم فى بغداد سنة 1974.

وأيضاُ تأخر اهتمام الأوربيين بهذا التراث ربما نتيجة تعصبهم لفكرة مركزية الثقافة الأوربية. فقد شكى نيجيبور Otto Neugebauer من موقف الباحثين إزاء محاولته لعرض العلاقة بين الرياضيات عند الإغريق وعند البابليين قائلا:

" كل محاولة لربط إنجازات الإغريق بما قبلها لدى الأمم الأخرى تصطدم بمعارضة حادة. فليس هناك من يرضى بتعديل صورة الإغريق التى اعتاد عليها، بالرغم من أن كل التحولات التى طرأت عليها منذ زمن وينكلمان Winkelman وابسطها التعرف على ألفين ومائة عام من التاريخ قبلهم، وبذلك بات الإغريق فى المنتصف وليس فى المبتدأ.

فؤاد سيزكين :(مقالة حول" مكانة حنين فى تاريخ الترجمة")

وقد يتساءل البعض عن سر اهتمامى بحنين بن اسحق بالذات دون غيره من العلماء و المترجمين الذين برزوا فى هذه الفترة. والإجابة هى أن حنين بن اسحق لم يكن مجرد عالم بارز أو مترجم نادر فقط بل كان رائد مدرسة من العلماء العرب الذين شكل اشتغالهم بالعلوم الإغريقية مرحلة الانتقال من التلقى إلى الإبداع " (نفس المرجع).

ورغم الاعتراف فيما يشبه الإجماع على قيمة الدور الذى لعبه هذا الرجل فى نقل العلوم الإغريقية الى العرب وعلى قيمة مؤلفاته الطبية والفلسفية، فإنه كما يقول ماكس مايرهوف، لم تكتب بأية لغة أوربية ترجمة وافية لحياة حنين الذى يصفه المؤرخ الفرنسى ليكلرك بأنه من أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقا وربما كان أقوى شخصية أنجبها القرن الثالث للهجرة، أما فى اللغة العربية فقد أفرد له ابن أبى اصيبعة فصلا مسهبا ضمنه تاريخ حياته وما ترجمه وألفه من كتب ورسائل. وهذا الذى كتبه ابن أبى اصيبعة، قد اتخذه كتاب العرب والفرنجة مادة يصنعون منها صورة غير كاملة لحياة حنين، وفى كتاب الفهرست لابن النديم ترجمة قصيرة ناقصة نقصا كبيرا و كذلك سائر التراجم العربية التى بين أيدينا فإنها بعيدة كل البعد عن أن تفى بالمراد. ولست أجد فى جميع اللغات الأوربية سوى

مقالات قصيرة، لا تتناسب ومكانة حنين كرجل من رجال العلم." (مقدمة كتاب " العشر مقالات فى العين " لمايرهوف).

وسوف نعتمد على هذه المصادر العربية وخصوصا على رواية ابن أبى أصيبعة بالدرجة الأولى مع مناقشة ما بها من أخطاء فى ضوء ما توصل إليه الباحثون من العرب والمستشرقين. وقد تناول بروفسور فؤاد سيزكين فى مقاله " مكانة حنين فى تاريخ الترجمة" مسألة تأخرالاهتمام بقضية نشأة العلوم عند العرب، وخاصة العلوم الطبيعية والفلسفية فقال سوف يمضى وقت طويل حتما قبل أن يتحقق أملنا بأن يصدر يوما حكم صائب حول إنجازات العلماء الذين دونوا آثارهم باللغة العربية، لأن الباحثين فى مضمار العربية لم يوضحوا معظم المشاكل الأساسية بعد، ومن جهة أخرى فإن المادة لم تجمع ولم تحلل وتبحث بشكل كاف إلى يومناهذا. فضلا عن ذلك، فإن مجال البحث مثقل بأراء متضاربة وبأحكام مسبقة وتصورات خاطئة حول نشأة العلوم العربية.

فقد ظهر أول اهتمام بنصوص من ترجمة حنين فى أواخر القرن الماضى
، عندما قام كلامروث **M.Klamroth** بدراسة ما أورده اليعقوبى من مختصرات مترجمة عن مؤلفات إغريقية، ليتبين علاقتها بتراجم حنين. ولقد جرى ذلك فى زمن، لم يكن يعرف فيه عن نشأة العلوم عند العرب إلا القليل. أضف إلى ذلك التصور الخاطئ الذى كان يسود آنذاك ولا يزال فعالا إلى يومنا هذا، وهو أن العلوم الطبيعية والفلسفية قد بدأت لدى العرب بعد نقل المؤلفات الإغريقية وغيرها إلى العربية، أى فى أواخر القرن الثانى ومطلع القرن الثالث الهجريين. أما أهمية النتائج التى وصل إليها **M.Klamroth** فتكمن فى ملاحظته بأن الترجمة التى أوردها المؤلف اليعقوبى لا بد وأنها غير ترجمة حنين. ولم يستطع **M.Klamroth** أن يفسر ذلك لنفسه إلا بافتراض " وجود مترجمين آخرين من الموالى إلى جانب مترجمى البلاط المحترفين ، اشتغلوا لاهتمامهم الشخصى باللغة والأدب الإغريقيين، وترجموا إلى العربية ما بدا لهم أهلا لذلك. و كما نرى لم يخطر ببال **M.Klamroth** قط ، بأن اليعقوبى ربما كان يعرف نصوصا أقدم من تراجم حنين".

لقد تتبع سيزكين هذا التاريخ ورأى أن مكانة حنين فى تاريخ العلوم عند العرب قد أخذت تتضح بظهور دراسات أخرى حوله، كدراسة استينشنيدر **M. Steinschneider** حول التراجم العربية من الإغريقية، وبنشر الترجمة العربية لكتاب التشريح لجالينوس وهذا مما دعا برجسترا سر

Bergstrasser إلى أن يخصص دراسة مستقلة بعنوان " حنين بن اسحق و مدرسته" فى سنة 1913، كما نشر فى عامى 1925 و 1932 بعض رسائل حنين ذات الأهمية القصوى: " رسالة فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه و بعض ما لم يترجم" Leipzig 1924. و" مقالة فى ذكر الكتب التى لم يذكرها جالينوس فى فهرست كتبه" Leipzig 1932 و قد كتبت مع مرور الزمن عدة مقالات أخرى حول حنين وأعماله ولكنها جميعا لم تتجاوز محاولة Bergstrasser الأولى بشكل جوهرى. وهكذا ظل بحثه إلى الآن المؤلف الوحيد حول صناعة الترجمة وأسلوبها لدى حنين وانتشرت عن طريقه تسمية " مدرسة حنين "

بعد ذلك توالى ظهور الدراسات حول حنين ولعل أبرزها كتاب"العشر مقالات فى العين" الذى حققه المستشرق الفرنسى ماكس مايرهوفوف وأهداه الى كلية الطب بالجامعة المصرية سنة 1927بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على انشائها. وتناول فيه دراسة تاريخ علوم الطب عند العرب وخاصة طب العيون. وبتعبير الأب قنواتى، هو أهم فروع الطب الذى تخصص فيه العرب ووصلوا فيه الى نتائج مدهشة.

وبعد نصف قرن تقريبا عقدت فى مؤتمر المستشرقين بباريس فى يولية 1973 حلقة خاصة حول حنين بن اسحق، عولجت فيها جوانب من نشاطه وآثاره ونشرت أبحاث هذه الحلقة فى عدد خاص من مجلةِ Arabicج2 (أكتوبر 1974) وقبل ذلك بعدة شهور, أقيم فى بغداد مهرجان بعنوان" أفرام وحنين" فى فبراير1974، وقدمت فيه مجموعة الأبحاث التالية:

1- مساهمة جمهرة الكتاب المسيحيين الشرقيين فى تاريخ الأدب السريانى
بروفيسور أندريه دى هاليه

2- حنين بن اسحق — **الأب يوسف حبى عضو مجمع اللغة السريانية**

3- بين العربية والسريانية — **د. إبراهيم السامرائى**

4- حنين بن اسحق المترجم — **د. إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة**

5- مخطوطات سريانية جديدة لحنين — **بروفيسور آرثر فوبس**

6- حالية حنين ابن اسحق — **بروفيسور جيرار تربو المعهد الوطنى للغات / باريس**

7- دور المراكز الثقافية فى تفاعل العرب والمسلمين الحضارى د. حسين قاسم العزيز
8- كتاب علم الأخلاق فى النيقوماخية لأرسطو: كلاوس دنلوب
9- حنين ابن اسحق والسلطة العباسية : د. فاروق عمر فوزى (آداب بغداد)
10- مكانة حنين فى تاريخ الترجمة الاغريقية والسريانة إلى العربية- فؤاد سيزكين
11- أدوية العين عند حنين بن اسحق د. جورج قنواتى
12- مصادر الدراسة عن الحكيم حنين ابن اسحق فؤاد قزانجى الأستاذ بجامعة بغداد
13- أثر مدرسة جند يسابور فى المصطلحات الطبية لحنين د. فيصل دبد وب
14- حنين ابن اسحق الفقيه اللغوى بروفيسور كوتهارد شتروهماير
15- مكتبة حنين ابن اسحق د. كوركيس عواد

وقد تحدث البروفسور أندريه دى هاليه عن دلالة المؤتمر فقال:
لقد التزمت الحكومة العراقية بقرارها التاريخى فى نيسان 1972بضمان الحقوق الثقافية للمواطنين الناطقين بالسريانية من آشوريين وكلدان وسريان. إذ أكد القرار على وجوب تدريس اللغة السريانية على جميع المستويات وعلى نشرها بواسطة الإذاعة والتليفزيون، وأعطى المجال لتأسيس أكاديمية أو مجمع للغة السريانية. وما المهرجان سوى إشراقة خير لذلك.

لقد كانت غاية المشرع زيادة التحام الأخوة والوحدة الوطنية العراقية بروح ديموقراطية، غير أن الاعتراف بالقيم التراثية للحضارة السريانية القديمة لقى أصداء تتعدى حدود الجمهورية العراقية الى سائر بلدان الشرق الأوسط حيث لا يزال التكلم باللغة السريانية قائما أو أنها مستعملة كلغة طقسية بصيغتها الفصحى.
(مقال " مساهمة جمهرة الكتاب المسيحيين الشرقيين فى تاريخ الأدب السريانى)

وتحدث البروفيسور جيرار تروبو الأستاذ بالمعهد الوطنى للغات الشرقية بباريس فقال:

" لقد اجتمعنا لنحتفل بالتذكار المئوى الحادى عشر لوفاة الطبيب العراقى المشهور حنين بن اسحق الذى يعد من أكبر العقول ومن أنبل الطباع التى يعثرعليها فى التاريخ. فيجب علينا أن نتساءل

عن الأسباب التى دفعتنا، نحن فى القرن العشرين إلى الاحتفاء بذكرى علامة عاش فى القرن التاسع الميلادى "

ثم يجيب بأن السبب هو" رغبتنا فى أن نمجد هذا الطبيب العبقرى الذى لعب بنشاطه العلمى الواسع دوراً رئيسياً فى حركة التبادلات الثقافية التى حدثت فى بغداد فى القرن التاسع وهيأت ازدهار الحضارة العربية فى القرن التالى."

إلى جانب هذا فإن لحنين حالية مدهشة تظهر فى عدة ميادين عصرية هى:

1- ميدان التقاء الثقافات المختلفة حيث نرى حنين كمثال فى هذا المجال إذ التقت فى شخصه ثلاث ثقافات هى: العربية والسريانية واليونانية. وقد اختلطت تلك الثقافات الثلاث فى شخصية حنين وأنتج هذا الاختلاط ثقافة جديدة شديدة الثراء لها صيغة متميزة.

2- ميدان تعدد المعارف فالمعرفة اليوم غير منقسمة والمحاولات تجرى لإزالة الحدود المصطنعة بين العلوم المتفرقة. أما حنين فله السابقة فى هذا المجال، إذ انه اهتم بجميع فنون المعرفة البشرية فى زمانه. فاهتم بجميع فروع الطب وخصوصا طب العيون وعلم الأغذية وعلم الأدوية، وكذلك بالطبيعيات والرياضيات، إلى جانب التنجيم و تعبير الرؤيا والفلسفة والتاريخ والنحو واللغة.

3- ميدان نقل الثقافات الأجنبية وفى هذا لعب دوراً هاماً جداً بترجماته من اليونانية إلى السريانية أو إلى العربية وكما قال بن خلكان " ولولا ذلك التعريب لما انتفع أحد بهذه الكتب لعدم المعرفة بلسان اليونان ". ونتيجة لجهود حنين تم انتقال جزء كبير من العلم اليونانى القديم، أولا إلى الشرق الإسلامى فى القرن التاسع ثم الغرب اللاتينى المسيحى فى القرن الثانى عشر عن ترجمة كتبه إلى اللاتينية.

وفى الختام يعرض بروفيسور جيرار على المجتمعين صفحة مصورة من مخطوطة لاتينية محفوظة فى المكتبة الوطنية فى باريس، تتضمن صورة أربعة أطباء من العصور القديمة كما كان يتخيلهم رسام غربى فى العصور المتوسطة فتقع صورة حنين فى الزاوية العليا اليمنى ونقرأ الكلمات الأولى من كتابه المسمى بالمسائل فى الطب التى تخرج من فمه مترجمة إلى اللاتينية.

4- وأخيرا تظهر حالية حنين فى ميدان رابع وهو الحوار الإسلامى المسيحى الذى ينبذ المجادلات غير المثمرة ويقوم على احترام عقائد الآخرين ويحاول أن يفهمها.

ولقد كان لحنين ابن اسحق السبق فى هذا المجال حيث مارس الحوار مع صديق مسلم فى موضوع حقيقة الديانة. كان على بن يحيى قد وجه إلى حنين رسالة يبرهن له فيها على حقيقة ديانته و يدعوه إلى الإسلام. وفى جوابه على تلك الرسالة نجد حنين لا يرد على الإسلام ولا يدافع عن المسيحية، بل يبين الأسباب التى منها يقبل الحق والأسباب التى منها يقبل الباطل واكتفى بالتصريح بأنه قبل ديانته من الأسباب التى منها يقبل الحق دون أن يحاول أن يقنع صديقه بحقيقة ديانته.

علاوة على هذه الميادين الأربعة التى ذكرها جيرار تروبو فإننى أضيف أن حالية أو(معاصرة حنين) تظهر فى جانبها الإنسانى وبالتحديد فى ترجمته الذاتية التى تعد من أول التراجم الذاتية فى تاريخ الأدب العربى، وذلك فى الرسالة التى صور فيها المحنة التى حلت به بفعل مكائد حساده من الأطباء الآخرين، وسوف نعرض نص هذه الرسالة كما نقلها ابن أبى أصيبعة فى فصل قادم.

حنين وعصر العولمة:

وهذه قضية عصرية أخرى ترتبط بحنين والأطباء العرب الآخرين، وهى قضية ملحة إذ يواجهنا عصر العولمة بأخطار تهديد الهوية الثقافية وزعزعة اقتصاديات الدول النامية نتيجة لسيطرة القطب الواحد على سياسة العالم وإخضاع اقتصاديات هذه المجتمعات لسطوة الشركات العملاقة التى تمثل قوى الاحتكارات الرأسمالية العالمية، وفى مقدمتها جميعا شركات الأدوية.ومن محاسن الصدف أن ترتفع بعض الصيحات المحلية والعالمية لتبحث جديا فى مواجهة هذه الاحتكارات التى تهدد صحة الشعوب الفقيرة, وهى صيحة العلاج بالأعشاب وهى دعوة محلية.تتزامن مع صيحة عالمية يطلقها الدكتور(ماتياس راث) الذى يدعو الى إعادة النظر فى أثر الأدوية التى تنتجها شركات الأدوية العالمية ويتهم هذه الشركات بالضلوع فى إشعال الحروب من أجل مزيد من المكاسب والاحتكارات. ويقول إنهم وراء الحرب على العراق.

يساند الدكتور راث فى هذه الحملة عالم كبير هو الدكتور لينوس بولينج)

لحاصل على جائزة نوبل مرتين، المرة الأولى فى الكيمياء والمرة الثانية نوبل للسلام بسبب وقوفه ضد انتشار الأسلحة النووية بالإضافة الى دوره فى وضع اتفاقية الحظر الجزئى للتجارب النووية سنة 1963، فضلا عن هذا فإنه كان أول من اكتشف الخصائص البنيوية للبروتينيات ومرض الخلية الواحدة. وقد وصف دكتور بولينج اكتشافات الدكتور راث بأنها فتح فى عالم الطب، ثم دعاه ليكون أول مدير لأبحاث أمراض القلب فى مؤسسته فى كاليفورنيا. وهذا ما يعطى هذه الدعوة أهميتها خصوصا وأن الدكتور راث الذى ينشر صفحة بالأهرام أسبوعيا تقريبا يهاجم فيها شركات الأدوية ويكشف دورها فى تمويل حروب الرأسمالية، هو طبيب وله أبحاث فى الطب الخلوى الذى يعتمد على الطبيعة. وهذا نص كلامه بجريدة الأهرام فى 24أبريل2003:

فى رده على سؤال حول تحوله إلى العلاجات الطبيعية قال الدكتور راث:

بتأثير من مصنعى الأدوية كان هناك تفكير بأن الكميات المرتفعة من الكوليسترول تسبب سماكة الاقنية الدموية وانسدادها، مما يؤدى إلى الإصابات بالنوبات القلبية والفالج، لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا يحصل الانسداد فى القلب والدماغ فقط وليس فى بقية أعضاء الجهاز الدموى كالأنف والأذن والركبة والأصابع، لقد اكتشفت أن أمراض القلب، وهى السبب الرئيسى للوفيات بين البشر غير معروفة فى عالم الحيوانات. اكتشافى التالى كان فتحا فى الصحة الطبيعية على مستوى عالمى. فالحيوانات تفرز الفيتامين C فى أجسامها وهذه الفيتامينات مطلوبة لإنتاج الجزيئات المقوية لجسمنا ونظام الاقنية الدموية المسمى كولاجين، فالمزيد من فيتامين C يعنى المزيد من الكولاجين، والمزيد من الاستقرار فى جدار الأوعية الدموية، والأقل من النوبات القلبية، وقد أكدت الأبحاث والدراسات المخبرية بشكل لايقبل الدحض صحة هذه الاكتشافات. التى كانت السبب الأهم للتخلى عن الأبحاث التقليدية والتحول إلى الجزيئات. وهى أكثر فاعلية فى الوقاية من الأمراض وفى شفائها.

وفى المقابلة التى أجريت مع دكتور راث صاحب نظرية " الطب الخلوى " لخص مكونات هذه النظرية وأبعادها قائلا: يقسم الطب اليوم إلى اختصاصات متنوعة حسب أعضاء الجسم فطبيب القلب يهتم بالقلب والطبيب المعوى يهتم بالأمعاء، وطبيب العظام يهتم بالعظام والأرداف. وفى رأى الدكتور راث فإن التخصص الطبى على أساس عضوى يتجاهل حقيقة أن الصحة والمرض لا يمكن تحديدهما على ضوء الأعضاء، و إنما على ضوء ملايين الخلايا التى تصنع هذه الأعضاء والجسم البشرى، فالسبب الأكثر أهمية لتعطيل وظيفة الخلايا، وبالتالى للإصابات بالمرض هو الافتقار للطاقة البيولوجية

على مستوى هذه الخلايا. البيوكاتاليست وهى جزيئات صغيرة تسرع التفاعلات الكيميائية فى الخلايا، و أهم هذه الجزيئات الطبيعية هى الفيتامينات والمعادن وبعض الحوامض الأسيدية، فالطب الخلوى يستند إلى هذه المعرفة للوقاية من أكثر الأمراض انتشارا اليوم ومعالجتها.

وفى رده على أسباب اعتقاده بأن العلاج الطبيعى أفضل وأكثر فاعلية من العلاج التقليدى بالأدوية قال الدكتور راث: الصناعات الدوائية هى صناعة استثمارية، وبالتالى لا يمكن أن تنتج أدوية تقى من الأمراض وتقضى عليها، وهى لن تفعل ذلك لأن ذلك يعنى القضاء على سوق الاستخدام المتواصل للأدوية. إن 80 % من الأدوية المطروحة فى الأسواق العالمية حاليا لم تثبت فاعليتها، وهى تستهدف العوارض المرضية فقط. ولذلك لم يتم احتواء معظم الأمراض الشائعة اليوم، وضمنها أمراض القلب والسرطان والإيدز وغيرها، بل هى مستمرة بالانتشار. والسؤال الآن: هل كانت أبحاث الطب العربى التى قام بها حنين بن اسحق وأبو بكر الرازى وابن سينا بعيدة عن هذه النظريات العلمية الحديثة التى يقودها هذان العالمان الكبيران من أجل عالم أوفر صحة؟'

لقد ركزت أبحاث أولئك العلماء على دراسة الجسم البشرى كوحدة واحدة حية واعتمدت فى معاجلة الأمراض على النباتات والأعشاب، وتركت لنا تراثا عظيما يمكن أن تقوم عليه أبحاث علمية حديثة مستفيدة من التطور التكنولوجى فى تشخيص الأمراض وقياس درجات الاستجابة لكل دواء جديد.

لقد بات هذا مطلبا ضروريا لمواجهة الاحتكارات فى مجال الأدوية وحماية هويتنا الوطنية والقومية، وإتاحة الفرصة مرة أخرى فى التاريخ للغتنا العربية لكى تظهر كلغة للأبحاث والاكتشافات العلمية.

لقد نشأ حنين فى بيئة مهيأة للتفتح والانطلاق فى مجالات الفلسفة والعلوم تحيط به أهم المراكز الثقافية فى عصره. فلم يكن حنين بن اسحق فى بداية عهد الترجمة العربية، وإنما ظهر فى مرحلة تطورها، ومن ثم فقد وجد حركة نامية قد أخذت تشكل لغتها ومصطلحاتها العلمية واستفاد منها وعلينا قبل الدخول فى تفاصيل حياته أن نتعرف على بدايات تلك النهضة الثقافية ومراكزها الكبرى فى بلاد الشرق وعواصمه.

الفصل الثانى

2-انتقال العلوم اليونانية إلى بلاد المشرق

إن معجزة اليونان العظيمة فى الفنون والعلوم والثقافة على مدى قرنين قبل عصر الترجمة العربية في العصر المسيحى كانت قد أوشكت على الاندثار لولا عملية نقلها خلال العصور الوسطى. وكما يقول جورج سارتون فى كتابه " تاريخ العلوم " إن انتقال العلوم لا يقل أهمية عن اكتشافها، فلو قدر لكل العلوم القديمة أن تختفى أو تضيع أثناء عملية النقل لأنتهى أمرها فكأنها لم تكن".

ومع ثورة الاتصال فى العصر الحديث أصبح انتقال العلوم يتم بطريقة أوتوماتيكية بحيث يتيح فرصة الحصول على المعرفة والخبرة بسرعة و سهولة أما فى العصور القديمة فقد كان الأمر على خلاف هذا ، لقد واجه العلم ظروفا صعبة و صعوبات هائلة اقتصادية و لوجستية و سياسية جعلت تبادل الخبرة بطيئاً جداً و محدوداً فكان لابد من هجرة الاكتشافات من قارة إلى أخرى أو ترجمتها من لغة إلى أخرى قبل أن تصبح جزءاً عضوياً من تراث الشعب الذي نقلت إليه .

و قد انتقلت العلوم اليونانية من مراكزها الأصلية في الإسكندرية و أثينة إلى الشرق، فكانت الأماكن التي ازدهرت فيها هذه العلوم هي الأماكن التي تتكلم السريانية والفارسية مثل الرها Edesse و نصيبين Nisibin و المدائن و جنديسايور في خوزستان بالنسبة للنساطرة ، ثم أنطاكية و أمد بالنسبة إلى اليعاقبة , و إلى جانب ذلك كانت هناك مدارس فى الأديرة اسمها بالسريانية " أسكول " المأخوذة من اللفظ اليوناني scholae. و قد ألقت بحوث العلامة السمعانى ضوءا قويا على نظم هذه المدارس و طرق التدريس فيها . فقد صنع العرب من هذا اللفظ كلمة " اسكول " و هى تدل على مدرسة مسيحية أو مدرسة ملحقة بد ير وبطبيعة الحال كان يدرس فيها.
اللاهوت والعلوم الدينية بجانب بعض العلوم الدنيوية مثل النحو والبيان والفلسفة والطب والموسيقى و الرياضيات و الفلك. و قد أقتصر التعليم الفلسفي فيها على بعض أجزاء المنطق الأرسطى والتعليم

الطبي على مؤلفات إبقراط وجالينوس وأهم هذه المدارس كان مدرسة دير القديس أفثينوس فى قنسرين بسوريا . وكان علماء هذا العصر غالباً من رجال الدين مثل الطبيبين الإسكندريين: سرجيوس واهرن (جورج قنواتي–المسيحية والحضارة العربية ص101–105)

وعن قيام المدارس العلمية فى الشرق يقول الدكتور فهيم أبا دير فى كتابه " تاريخ الطب عند العرب " ص 25 ، فى عام 325 م، تأسست فى مدينة إنطاكية بشمال سوريا مدرسة على غرار مدرسة الإسكندرية، وكانت الصلات الثقافية فى العصر اليوناني بين مصر وسوريا قوية، ولما كانت مؤلفات الإغريق فى ذلك الوقت هى المرجع الوحيد لجأ أساتذة مدرسة إنطاكية إلى ترجمتها إلى لغتهم وهى السوريانية .

وفى عام 428 م عين أحد خريجي قسم اللاهوت بمدرسة أنطاكيا بطريكا على القسطنطينية ويدعى" نسطور" ثم حدث جدل وخلاف على تفسير بعض العقائد الدينية كان نتيجته فصل نسطور عن الكنيسة المسيحية، وتم ذلك عن طريق مجلس ديني فى مدينة أفسس عام 431 م، ثم اعترض عدد كبير من السوريين على هذا القرار وتضامنوا مع نسطور وانشقوا عن الكنيسة الأرثوذكسية وأصبحت هذه الجماعة المنفصلة تدعى بالنسطوريين نسبة إلى رائدها المفصول البطريرك نسطور. ثم رحلت هذه الجماعة إلى مدينة " نصيبين " فى سوريا وإلى " الرها " و هى مدينة بالجزيرة بين الموصل و الشام و باشروا نشاطهم العلمى فى تدريس الطب حتى أصبحت مدرسة " الرها " من أشهر المدارس الطبية. و فى أواخر القرن الخامس للميلاد و لما تزايد اضطهاد المسيحيين الأرثوذكس لهم. هاجروا إلى العجم حيث استقبلتهم الأسرة الساسانية بكل ترحاب. وهناك أسسوا فى النصف الثانى من القرن الخامس فى مدينة جنديسايور مدينة طبية يتبعها مستشفى للعلاج. وجنديسايور أو جند شهبور هى مدينة تقع فى الجهة الجنوبية الغربية من إيران بناها شاهبور أحد ملوك العجم وسميت باسمه.

وكانت هذه المدرسة مركزا هاماً لترجمة علوم اليونان الطبية إلى اللغة السوريالية. ومن أوائل الذين قاموا بترجمة المؤلفات اليونانية " سرجيوس الرأس عينى " توفى 536 م ، ترجم قسماً من مؤلفات جالينوس، وهى موجودة بالمتحف الإيطالى الآن ونقح حنين بن اسحق العبادى هو وزملاؤه فى " دار الحكمة " ببغداد ترجمة سرجيوس الأصلية بعد مرور قرنين من الزمن .

ونلاحظ أن معظم الأطباء فى العصر الأموى والعباسى كانوا من النصارى الذين يجيدون السوريانية ونسبة منهم كانوا ممن درسوا بمدرسة جنديسايور أو فى" الرها" و" نصيبين" و كان هذا مثار حسد وغيرة من الآخرين وهذا ما يوضحه الجاحظ فى حديثه الساخر عن الطبيب البغدادى " أسد بن الجانى "

كان أسد بن جانى طبيباً فأكسد مرة، فقال السنة وبئة، والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك بصر وخدمة ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتى فى هذا الكساد قال أما واحدة فإنى عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطيب، لا .... بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب واسمى ثانية أسد، وكان ينبغى أن يكون" صليبا " و" مرابل " و" يوحنا " و " بيرا " وكنيتى أبو الحارث و كان ينبغى أن يكون ردائى حريراً أسوداً وأخيراً لفظى لفظ عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسايور (البخلاء – القاهرة.1313 هجرية ص 109)

وعلى سخرية الجاحظ يرد بروفسور شتروهماير بأن ما يقوله الجاحظ ليس الحقيقة بكاملها، حيث أن اللغة السريانية كانت لا تزال هى لغة الطب المفضلة، فكان حنين يترجم لزملائه السريان باللغة السريانية، وحين كان يراجع ترجمة لابنه أو لتلميذه عيسى بن يحيى، كان يقدم ترجمة سوريانية وليست عربية .لقد استجاب حنين فى أخريات حياته لرغبة العرب، وبعد اهتمامهم بعلوم الطبيعة والطب ، قام بترجمة الكتب إلى العربية، أما عند توفر التراجم السريانية فكان يقوم بترجمتها إلى العربية تلميذه حبيش بن الحسن وعيسى بن يحيى لأنهما لا يعرفان الإغريقية (مقال: حنين بن اسحق الفقيه اللغوى)

لقد كانت جنديسايور هى مركز الطب السريانى. يقول الدكتورعبد الحليم منتصر:

"رحل السريان إلى جنديسايور هرباً من اضطهاد أباطرة بيزنطة وأساقفتها للمذهب النسطورى الذى اعتنقوه . وكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى شغل بالخلافات الدينية ومحاربة الهرطقة و قد شغلوا بهذا كله عن العلوم والفلسفة وبقيت الكتب العلمية فى مكتبات بيزنطة بعيدة عن متناول الباحثين خوفاً عليهم من الزيغ. وأحتفظ السريان بكتبهم المترجمة وحملوها إلى منفاهم. ولا نزاع فى أن الطب السوريانى فى جنديسايور كان أرقى كثيراً من طب البلاد المجاورة بما فى ذلك بيزنطة وانطاكية والإسكندرية". (ميخائيل جميعان: المؤثرات الثقافية الشرقية ص 302)

وهذا ما جعل المنصور العباسى (159 هـ – 775 م) يستعين بأطباء هذه المدرسة لعلاجه. فعندما أصيب المنصور بمرض أفقده شهيته للطعام وفشل أطباء بغداد فى علاجه استقدم جرجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسايور(عام 148هـ– 775م) وقد نجح هذا الطبيب النسطورى فى مداوته و تحقق له الشفاء فنال بختيشوع حظوة لدى الخليفة وأصبح طبيبه الخاص وتوارث أبناؤه وتلاميذه هذه المكانةعند خلفاء الدولة العباسية على مدى ثلاثة قرون كانوا هم خلالها أطباء البلاط وعلماء الطب.

وهكذا انتقل مركز الطب والعلوم والترجمة إلى بغداد وأخذت حركة الترجمة تزدهر حتى بلغت أوج عظمتها فى عصر المأمون. إذ صار "بيت الحكمة " أهم وأعظم معهد علمى وثقافى بعد أن خفتت أضواء مدرسة الإسكندرية التى أنشأها بطليموس سوتر فى المتحف قبل الميلاد بثلاثة قرون.

وكان" بيت الحكمة "هو حجر الأساس لمدرسة بغداد التى ظل تأثيرها حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، ويرجع الفضل إلى هذه المدرسة الزاهرة فى الحفاظ على استمرارية الحضارة و إصلاح سلسة المعارف الإنسانية التى حطمها بقسوة فى القرن السادس الميلادى اضمحلال روما و سقوطها.ولو اقتصرت حضارة الإسلام على مجرد إنقاذ العلوم القديمة والحفاظ عليها بعناية ثم نقلها للأجيال التالية، لكانت هذه خدمة تجل عن الوصف، ولكن لم يقف الأمرعند ذلك، فإن علماء و فلاسفة مدرسة بغداد ورثوا روح وتعاليم مدرسة الإسكندرية ، فأضافوا وأثروا الحضارة القديمة بإضافات مبتكرة فى كل فروع العلم، باكتشافات لا حصر لها فى الفنون التطبيقية، وفوق كل ذلك باكتشافات طرق جديدة للبحث والاكتشاف (ميخائيل جميعان. المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية، عمان.الأردن. المطبعة الاقتصادية 1983 م، ص 5).

ويقال إن الرشيد والد المأمون أنشأ دار الحكمة وبعث عماله إلى الإمبراطورية الرومانية وعين عالماً مسيحياً كبيراً مسئولاً عن الترجمة وهو" ماسويه " والد" يوحنا بن ماسويه" وكان يوحنا يجيد اليونانية وهو أستاذ حنين بن اسحق، أشهر المترجمين فى العصر العباسى وأكثرهم إنتاجاً وتأليفاً فى مجال الطب. وعين المأمون يوحنا بن ماسويه أميناً على الترجمة – ببيت الحكمة وكان المأمون معجباً للغاية بحنين بن اسحق ومقدراً لعمله وفضله فاختاره لتقلد رئاسة بيت الحكمة وجعل بين يديه كتاباً نحارير ينقلون ذخائر العلم اليونانى".

(ماهر عبد القادر : حنين بن اسحق ، و العصر الذهبى للترجمة ، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية 1988 ، ص 48) .

* مرت حركة الترجمة فيما يقول سانتلانا فى محاضراته بالجامعة المصرية عام1910، 1911 م بثلاثة أدوار :

أولها من خلافة المنصور إلى وفاة الرشيد 136 – 193 هـ. ويمتد ثانيها من ولاية المأمون حتى موت حبيش ابن الأعسم أخر أتباع مدرسة حنين بن اسحق 198 – 300 هـ . وبنهاية هذه المدرسة تم للمسلمين اجتياز مرحلة النقل والترجمة بوجه عام. وانتقلوا بخطا سريعة إلى مرحلة الإنتاج الخصب الأصيل المبتكر كنتيجة لتفاعل الفكر الأجنبى الدخيل مع التراث الإسلامى الأصيل. وامتد الدور الثالث حتى منتصف القرن الرابع للهجرة. ولكن غزوات المغول (فى منتصف القرن الثالث عشر لميلاد المسيح) قد دمرت حضارة الإسلام على نحو ما أشرنا إليه من قبل .

و فى الدور الأول من أدوار الترجمة سالفة الذكر نقل – فى حركة الترجمة – أهم شروح أرسطو وشروح الإسكندرانيين عليها، وبعض مؤلفات أفلاطون وأهم كتب جالينوس فى الطب. وترجم فى الجملة أهم ما وصل إليه العقل اليونانى فى العلم والفلسفة. ترجم ابن المقفع " كليلة ودمنة" من الفارسية. كما نقل غيره "السند هند "من الهندية، و" منطق" أرسطو و كتاب "المجسطى" فى الفلك ومن أشهر المترجمين فى هذا الدور جورجيس بن جبريل ويوحنا بن ماسويه وابن المقفع. وفى هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب المترجمة فالنظام عرف أرسطو وقرأ بعض كتبه فى الفلسفة ، فتأثرت أبحاثهم بالمنطق فتكلموا فى الطفرة والجوهر والعرض وغيره .

وفى الدور الثانى من أدوار الترجمة كان أشهر مترجميه يوحنا بن البطريق، وقد ترجم الكثير من كتب أرسطو، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، والحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفى (عاش سنة 314 هـ) وقسطاً بن لوقا البعلبكى (عاش سنة 230 هـ) وعبد المسيح بن ناعمة الحمصى (عاش سنة 320 هـ) وحنين بن اسحق (شيخ المترجمين) 260 هـ وابنه اسحق 298 وقد عنى بكتب الفلسفة عناية أبيه بالطب، وثابت بن قرة (ت 288) و حبيش بن الأعسم أبن أخت حنين (ت 301 هـ / 911) وغيرهم .

وفى هذا الدور ترجم هؤلاء المترجمون أهم الكتب اليونانية فى كل فن وأعيدت ترجمة المجسطى لبطليموس فى الفلك، والحكم الذهبية لفيثاغورس وعدة مصنفات فى الطب منها تصانيف لبقراط وجالينوس ومحاورات طيماوس والسياسة المدنية والنواميس لأفلاطون، والمقولات لأرسطو. وكل ذلك ترجم على يد حنين بن إسحاق ومدرسته.

أما الدور الثالث من أدوار الترجمة فكان من أشهر مترجميه متى بن يونس (فى بغداد عام 320 هـ) وسنان بن ثابت بن قرة (ت 360 هـ) ويحيى بن عدى (ت 364 هـ) وابن زرعه (ت 398 هـ) . وأهم ما ترجموه إلى العربية كانت الكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو وتفسيرها، كما يروى سانتلانا فى محاضراته، وابن النديم فى الفهرست وابن أبى أصيبعة فى" طبقات الأطباء" والقفطى فى " أخبار الحكماء " وجرجى زيدان فى "التمدن الإسلامى "

ويشير المستشرق دى لاسى أوليرى فى كتابه عن الفكر العربى إلى أن التراث اليونانى قد ترجم إلى العربية عن طريق خمس طوائف هى:

(1) النساطرة أكبر نقلة الطب وأول معلمى المسلمين .
(2) اليعاقبة الذين نقلوا الأفلاطونية المحدثة ونصوصها.
(3) الزرادشتيون الفرس ولا سيما أبناء مدرسة جنديسايور ومنهم نساطرة
(4) الوثنيون الحرانيون.
(5) اليهود الذين كانوا بعد النساطرة أكبر مترجمى كتب الطب وبعد القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) أخذ الطب يتحول إلى أيدى المسلمين.
(نقلا عن كتاب" تراثنا الإسلامى" للدكتور توفيق الطويل –عالم المعرفة، 87،86)

2– العوامل التى دفعت المسلمين إلى الانفتاح على الثقافات الأجنبية:

أسس المنصور العاصمة الجديدة "بغداد" وكان الخليفة شديداً حازماً انشغل فى حروب كثيرة وأمضى معظم أيام حكمه الطويلة فى تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته.

كان المنصور ميالاً إلى التنجيم وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم (المسعودى جـ 2، ص 364) وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس. ومن أشهر الجماعة الذين نبغوا فيها نوبخت المنجم فقد أسلم وكان يصحب المنصور حيثما توجه. ثم تلاه ولده أبو سهل بن نوبخت وتوالى آل نوبخت فى خدمة العباسيين وترجموا لهم كتاباً فى الكواكب وأحكامها.

وخدم المنصور أيضاً فى النجوم إبراهيم الفزارى وابنه محمد، وعلى بن عيسى الاسطرلابى المنجم.

وعندما مرض المنصور فى أواخر أيامه (سنة 148 هـ) ولم يفلح أطباؤه فى شفائه قالوا له، "ليس فى وقتنا هذا أحد يشبه جورجيس رئيس أطباء جنديسابور" وهو جورجيس بن بختيشوع السريانى. وكان رئيس بيمارستان جنديسابور أشهر مدارس الطب فى تلك الأيام. فجاء إلى بغداد جورجيس مع أثنين من تلاميذه هما إبراهيم وعيسى بن شهلا فعالج الخليفة وشفاه. فمنعه الخليفة من الرجوع إلى بلده.

و قد حكى ابن أبى أصيبعة حكاية طريفة فى هذا الصدد تدل على الثقة التى كان الخلفاء يبدونها نحو أطبائهم المسيحيين. فقد علم المنصور أن جورجيس خلف امرأته فى جنديسابور وليس عنده فى بغداد من يخدمه فأرسل إليه ثلاث جوارى روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير، ورد الجوارى. فلما عاتبه المنصور فى الغد أجابه " إننا معشر النصارى لا نتزوج إلا بامرأة واحدة وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها " (طبقات الأطباء جـ 1، ص 124.

وكان العلماء السريان فى جنديسابور يؤلفون الكتب الطبية على شكل كنانيش كما أنهم ترجموا إلى السريانية كتباً طبية لقدماء اليونان. فلما أتوا إلى بغداد واصلوا عملهم هذا وترجموا وألفوا بالعربية.

وعلى مر الزمن ومع دخول العناصر الأجنبية فى الدولة الإسلامية انتشرت المذاهب المناهضة للتوحيد، فكثر الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس وألحت الحاجه إلى تصنيف كتب لإبطال تلك المذاهب و اللجوء إلى حجج عقلية لا توجد إلا فى ميدان المنطق والفلسفة. زد على ذلك أن ائتلف الخلفاء بذكر الفلسفة وأصبحوا إذا فتحوا بلدا وجدوا فيها كتباً لا يأمرون بإحراقها أو إعدامها بل يأمرون بنقلها إلى بغداد للاحتفاظ بها ونقلها إلى العربية. فقد أمر هارون الرشيد طبيبه يوحنا بن مساويه بترجمة بعض

هذه الكتب (طبقات الأطباء جـ 1 ص 175) ولكنها ليست من الفلسفة فى شئ وإنما هى فى الطب اليونانى .

أما الكتب الفلسفية فلم يقدم العرب على ترجمتها إلا فى أيام المأمون (811 – 833 م) و يرجع السبب أولاً إلى نزعته نحو التفكير المعتزلى وولعه بعلوم الأقدمين. وثانياً إلى الحاجة إلى آلة فكرية تمكن العلماء المسلمين من دحض آراء الزنادقة وأصحاب المانوية والزرادشتية. وتأييداً لصحة الجدل أمر المامون بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية إلى العربية ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات أرسطو وشراحه فى الفلسفة وغيرها. فأثارت تعطشاً إلى العلوم الوضعية وعناية بالاستيضاح و رغبة فى التنسيق بين العلوم الإنسانية كلها.

وفى بغداد أنشأ المأمون دار الحكمة أو بيت الحكمة وكما يقول العلامة ميز إن مجرد اسم هذه المؤسسة يدل على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة. وكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة و هى خزانة كتب ليس غير، أما المؤسسة الجديدة فتسمى دار العلم و خزانة الكتب جزء منها.
(انظر169 -176 Die Renaissance) ، (الحضارة الإسلامية ، جـ 1 ، ص 294) .

ولا شك أن المأمون كان فى ذلك مقلدا لأكاديمية جنديسابور القديمة وكانت تحوى هذه الدار شراحاً، ونقلة أى مترجمين إما من الفارسية إلى العربية وإما من اليونانية إلى العربية. وقد أرسل المأمون وفداً من علماء حاشيته إلى القسطنطينية للحصول على مخطوطات من هناك، كما أنه يوجد قسم للتجليد ثم توزيع الكتب بحسب اللغات فارسية، سريانية، يونانية. وكل قسم تحت رئاسة مسئول:

الحسن بن سهل بن نوبخت، الحجاج بن يوسف بن مطر الذى قام بنقل أصول الهندسة لاقليدس نقلين: الهارونى والمأمونى. ويوحنا بن البطريق وعمر بن الفرقان الطبرى، ويوحنا بن ماسويه. ولكن الشخص الذى أحدث نقطة تحول فى تاريخ بيت الحكمة هو بلا جدال حنين بن اسحق العبادى الذى كان يتقن أربع لغات: السريانية وهى لغته الأصلية ثم اليونانية والفارسية والعربية. رحل إلى كثير من البلاد فى العراق وسوريا وفلسطين ومصر (بالإسكندرية) للحصول على نوادر المخطوطات. وقد ترجم من السريانية كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً وترجم إلى العربية منها

تسعة وثلاثين. هذا إلى أنه راجع ترجمة تلاميذه فأصلح معظم الخمسين كتاباً التى كان قد ترجمها إلى السريانية سرجيس الرأسعينى وأيوب الرهاوى وغيرهما من الأطباء الأقدمين.

وقد حاول الدكتور عمر فروخ أن يتنكر لثلاثة قرون من الترجمة قبل الاسلام وأن يقلل من أهمية الدور الذى قام به المسيحيون النساطرة فى هذا المجال فقال فى كتابه " تاريخ العلوم عند العرب" ص 113 (بيروت 1970):

" زعم بعضهم أن حب السريان لثقافتهم وحرصهم على نشرها حملاهم على نقل الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية. ولا وجه لهذا الزعم لأن الكتب المنقولة لم تكن سوريانية مسيحيية، بل وثنية يونانية أو هندية. ثم إن هؤلاء النقلة السوريان لم ينقلوا هذه الكتب تطوعاً وابتداءً من عند أنفسهم ولا هم نقلوا الكتب التى احبوا نقلها، بل كانوا ينقلون ما يطلب منهم نقله بأجر".

وقد تناول الدكتور رشيد حميد حسن الجميلى هذا الرأى ضمن دراسة طويلة فى كتابه" حركة الترجمة فى المشرق الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع للهجرة " وهى رسالة دكتوراه نشرت سنة 1982، فقال:

" إن من الباحثين من يرى أن الإسلام كان هو المسئول عن ظهور جماعة العلماء والفلاسفة الذين أنجبتهم هذه المدارس ولولاه ما ظهرت هذه الطائفة من رجال العلم والفلسفة والواقع أن هذا القول بعيد تماماً عن الحقيقة ولا يعبر عن واقع المدارس التى درسناها آنفا. إذ من المعلوم أن معظم هذه المدارس كانت موجودة قبل ظهور الإسلام وقد اشتهرت بعلمائها البارزين فى حينه وبمصنفاتهم الخالدة التى ذاعت شهرتها فى كل مكان" إلى أن قال : " ومهما يكن من أمر فإن مدارس الترجمة هذه قد لعبت دوراً رئيسياً فى عملية ازدهار الحضارة الإسلامية

الفصل الثالث

3- حنيــن بــن إسحــق

حياته ونشأته:

هو أبوزيد حنين بن اسحق العبادى والعباد (بكسر العين وفتح الباء الخفيفة) من بطون القبائل العربية التى تنصرت فى القرون الأولى للمسيحية، واستوطن قسم منها الحيرة وكانت تنتمى إلي كنيسة الشرق المسماه بالنسطورية، ثم سميت الأشورية والكلدانية.

ولد حنين فى الحيرة سنة 194 هـ / 809 م، وهى مدينة قديمة شهيرة وكانت عاصمة للخميين فى جنوب العراق، فقد سكنوها منذ القرن الثالث الميلادى، وكلفهم الفرس الساسانيون بحراسة الحدود ضد هجمات الروم على بلاد ما بين النهرين السفلى، وهى من أشهر المدن العربية فى القرون الثلاثة الأولى قبل الإسلام. وكان العباد يشكلون ثلث السكان فيها، وكانت تسمى حيرة النعمان أو حيرة المنذر واشتهرت بقصرى الخورنق والديروانتشرت الأديرة فى أطرافها ومنها ديرهند.

(.يوسف حبى: حنين بن اسحق)

و ينقل الآب يوسف حبى عن القفطى أن والد حنين كان صيدلانيا، وكانت الصيدلة حين ذاك تعنى صناعة العقاقير من الحشائش والنباتات، وبيعها بطريقة تستوجب الحنكة والدراية بأمورالطب، وفيها شئ من المتاجرة بالنقد واستبداله.

و يلاحظ ماكس مايرهوف أنه لم تكتب حتى الأن ترجمة وافية لحياة حنين الذى يصفه المؤرخ الفرنسى ليكلرك: "أنه من أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقاً وربما كان أقوى شخصية أنجبها القرن الثالث الهجرى" (ص 14)

فى حين يرى الأب يوسف حبى إنه من الصعب تحديد تسلسل لأحداث حياة حنين ودراسته وضبط أمكنتها، ويقول إن بعض ما يذكره هو من باب الترجيح والاستنتاج ليس إلا. وهو بهذا يحاول ملء بعض الفجوات الموجودة فى كتابات ابن النديم والقفطى وابن أبى أصيبعة.

نشأ حنين فى الحيرة (وليس فى بغداد أو الشام كما جاء عند البيهقى) وتأثر حنين بصناعة أبيه فمال إلى دراسة الطب، وتعلم مبادئ العلوم فى الحيرة مسقط رأسه. كذلك تمكن من السريانية لغة كنيسته حتى أنه لبس الزنار وصار شماساً. ثم درس الفارسية وصناعة الطب فى أكاديمية جند يسابور المشهورة فى خوزستان ببلاد فارس. وكانت معهداً أنشأه سابور الثانى أحد ملوك بنى ساسان فى أوائل القرن الرابع الميلادى. وقد اشتهرت جند يسابور بيمارستانها ونبغ فيها آل بختيشوع.

فى بغداد لزم حنين بن اسحق الطبيب الشهير يوحنا بن ماسويه الجند يسايورى الأصل، والمتوفى سنة 243/ 857 إذ ينقل ابن أبى أصيبعة عن يوسف ابن ابراهيم قوله " أول ما حصل لحنين بن اسحق من الاجتهاد والعناية فى صناعة الطب هو أن مجلس يوحنا بن ماسويه كان أعم مجلس فى التصدى لتعليم الطب وكان يجتمع فيه أصناف أهل الأدب"

و كان حنين ظمأناً إلى المعرفة، مولعاً بالطب، فلم يكتف بمجلس واحد، بل كان مواظباً أيضاً على بيت الحكمة البغدادى. وبيت الحكمة البغدادى كان يومذاك أكاديمية عظيمة، بل جامعة راقية، من أعظم بيوت الحكمة وأشهرمعاهد العلم، تشكلت نواته كخزانة للكتب فى عهد أبى جعفر المنصور، وتوسع فى عهد الخليفة هارون الرشيد، حتى بلغ ذروة إزدهاره فى خلافة المأمون حين تم تنظيمه على غرار المدارس البيزنطية والسريانية والفارسية، وجمع أقطاب النقلة ومشاهير العلماء. وكان العمل فيه جماعياً والمال متوافراً بفضل سخاء الخلفاء والوزراء والأعيان وتشجيعهم للحركة الفكرية.

ثم يضيف يوسف حبى بأن حنين تخلص من ركاكة لغته المشوبه بألفاظ سريانية، بأن درس لغة الضاد فى البصرة حتى برع فيها براعة يشهد بها المؤرخون، معتمداً فى دراستها كتاب" العين " للخليل بن أحمد الفراهيدى. وله الفضل فى إدخال كتاب "العين" إلى بغداد.

وهنا يبدأ الخلاف حول هذه الأمور فى غيبة الوثائق التى كان يمكن أن تحسم هذا الأمر خصوصا وأن حنين تعرضت حياته لمحن ونكبات شديدة أدت الى تدمير مكتبته ومعظم أوراقه الخاصة فى عهد الخليفة المتوكل. فنحن لا نعرف من أساتذته سوى يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع الذى قدمه إلى الخليفة المأمون فعينه مشرفاً على الترجمة فى بيت الحكمة. أما مسألة تحصيله للغة العربية واليونانية فلا نعرف بشكل مؤكد أين ومتى حدث هذا

يقال مثلا إنه نشأ فى الحيرة ودرس فيها السريانية، ولبس الزنار (أى أصبح شماسا فى الكنيسة) ثم ذهب إلى جند يسابور وتعلم الفارسية كما يؤكد الأب سمير خليل، [1] لكننا لا نعرف على

وجه الدقة أين تعلم العربية، ومن كان معلمه، نتيجة للتضارب فى أقوال المؤرخين. فالقفطى يقول إنه " دخل البصرة ولزم الخليل بن احمد حتى برع فى اللسان العربى" أما ابن جلجل فيقول " وكان الخليل بن أحمد النحوى رحمه الله، بأرض فارس فلزمه حنين حتى برع فى لسان العرب"، فى حين ينقل ابن أبى اصيبعة حديث الشيخ شهاب الدين عبد الحق الصقلى النحوى" أن حنين بن اسحق كان يشتغل فى العربية مع سيبويه وغيره ممن كانوا يشتغلون على الخليل بن أحمد الفراهيدى" .غير أنه يستحيل أن يكون حنين قد درس على الخليل بن أحمد المتوفى بين 170، 175 هجرية أى قبل أن يولد حنين بحوالى عشرين عاما.

وكذلك الحال بالنسبة للغة اليونانية فلا يجزم أحد أين تعلمها ومتى. ولا نجد سوى بعض الاستنتاجات التى تقول إنه غاب خمس سنوات قضاها فى بلاد الروم، حيث تمكن من اللغة اليونانية والثقافة الهلينستية كما يقول يوسف حبى، فى حين يتفق القفطى وابن أبى اصيبعة فى أنه دخل بلاد الروم للحصول على الكتب ولا يوجد تحديد لتاريخ دخوله أو خروجه.

لم يستكمل حنين دراسته فى بغداد لأنه أغضب أستاذه يوحنا بن ماسويه. والسبب يرويه القفطى وابن أبى أصيبعة وابن العبرى ومفاده أن حنين كان" صاحب سؤال " وكان يصعب على يوحنا إجابة كل أسئلته. وفى يوم من الأيام أحرجه بسؤال حول كتاب" فرق الطب " فنهره يوحنا بغطرسة قائلاً " ما لأهل الحيرة وتعلم الطب، عليك ببيع القلوس على الطريق" أى أن يعمل بائعاً سريحاً ويضيف ابن أبى أصيبعة أن حنيناً كان من أبناء الصيارفة من أهل الحيرة، وكان هذا أيضاَ يباعد بينه وبين يوحنا الجند يسابورى، لأن أهل جند يسابور ومتطببوها يختلفون عن أهل الحيرة، ويكرهون أن يدخل فى صناعتهم أبناء التجار. فأمره أن يخرج من داره، فترك حنين المجلس وخرج باكياً. وصمم على التحدى حتى يتفوق على الجميع، وأقسم أن يكون بريئا من دين النصرانية، إن هورضى أن يتعلم الطب حتى يحكم اللسان اليونانى إحكاما لا يكون فى دهره من يحكمه إحكامه (ابن أبى أصيبعة ص130.)

ولكن إلى أين ذهب طيلة هذه الفترة التى تغيب فيها عن بغداد؟ يقول نفر من العلماء بأنه ذهب إلى القسطنطينية. أما ريتشارد ولزر (اوكسفورد) فإنه " لا يرجح سفره إلى الدولة البيزنطية لتعلم الإغريقية، فى الوقت الذى كان بإمكانه نيل درجة السيادة العلمية الخارقة فى العلوم الإغريقية فى مكان أقرب إلى وطنه. أماشتروهماير فيلاحظ، إن حنين غاب عن بغداد لمدة خمسة أو ستة أعوام وعاد قبيل وفاة المأمون عام 833م، بفترة وجيزة. وهذا يعنى بأنه قد غادر بغداد حوالى عام 827م. و

وفقا لرأى ابن أبى اصيبعة فإن حنين قد ولد عام 194 هـ / 809 م أو 810 م. وفى رسالته عن ترجمات جالينوس يخبرنا حنين بنفسه بأنه قدم أول ترجمة فى عمر 17 عاما، وهذا يوافق عام 827 م الذى قام فيه برحلته الطويلة أو قبيل ذلك ببعض الوقت.

أما الشاب الإغريقي الذى التقى به حنين خلال زيارته لبغداد خلسة، فقد كان قد تعلم على خالته الأدب الإغريقي أثناء إقامته فى بغداد، وهكذا لم يكن صعباعلى شاب عربى اكتساب ثقة هؤلاء الناس والتعلم منهم.

ومع ذلك، فلا يمكن استبعاد احتمال سفره إلى القسطنطينية لإستكمال دراسته للغة الإغريقية. ففى القرن الحادى عشر الميلادى يذكر العالم البيزنطى ميخائيل بسيلوس مفتخرا بأن أحد تلاميذه كان قد جاءه من بغداد. ومن المحتمل أن يكون هذا قبل مئتى عام. وفى الوقت الذى غادر فيه حنين بغداد كان هناك عالمان المعيان يغريان التلاميذ بشد الرحال إلى القسطنطينية، هما يوحنا النحوى وابن أخيه ليون الفيلسوف الذى حاول المأمون إغراءه بالانخراط بين علماء قصره. وفى ذات الوقت كانت هناك حركة واسعة للبحث عن المخطوطات وجمعها فى القسطنطينية إذ لا يوجد أى مركز آخر فى عموم الإمبراطورية البيزنطية للدراسات العلمية.

هناك مصادفات أخرى ليست عارضة. تلك هى أن يوحنا وليون كانا آخر شخصيتين قياديتين من شيعة تحريم الأيقونات قبل الانتصار النهائي لتقديس الصور عام 843م. وقد كان حنين من حملة الرأى القائل بأن صور المسيح ومريم ليست مقدسة إنما هى مجرد صور غير جديرة بالتكريم وقد يكون هذا الموقف هو الذى أدى إلى محنته المعروفة.

هذه وجهة نظر بروفسور شتروهماير وهى مجرد استنتاج مبنى على بعض القرائن الموجودة فى بعض الكتب التى قرأها هذا أو ذاك لأن كل واحد من الباحثين كان مهتما بجانب معين وكان تركيزه على الكتب التى تتناول موضوعه، فليس فيهم من قرأ كل كتب حنين ومخطوطاته، من أجل تحديد مراحل حياته تاريخيا بصورة وافية.

واعتقد أنه يمكن استكمال هذه السيرة بدقة أكثر اذا أمكننا الاطلاع على جميع الكتابات الباقية لحنين بن اسحق، وهذا ما أسعى إليه من الآن بعد أن حصلت على عدد كبير من مؤلفاته، وعرفت أماكن بعض المخطوطات الأخرى. ذلك أن حنين اعتاد أن يتكلم فى داخل مؤلفاته أو ترجماته عن بعض المصادفات التى تواجهه وعن بعض الاشخاص، وأحيانا يذكر التواريخ. وأعتقد أن متابعة هذه الاشارات بدقة وبانتظام، يمكن أن يوصلنا الى شواهد أكثر اقناعا فيما يخص حقائق حياته الشخصية.

وهى مسألة ضرورية لفهم أسرار هذه العبقرية بل وفهم روح العصر كله الذى ازدهرت فيه هذه الحضارة العربية الزاخرة.

ويشهد المؤرخون ببراعة حنين فى اللغة اليونانية. فيقول إبن جلجل إن حنين غدا" بارعاً بلسان العرب، فصيحاً جداً باللسان اليوناني بارعاً فى اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين"إذ كان يعرف لغة اليونانيين معرفة تامة، [8] حتى أنه وضع كتاباً فى إحكام الإعراب على مذهب اليونانيين، ويؤكد البيهقى أنه" لم يوجد فى هذه الأزمنه بعد الإسكندر(الأفروديسى) أعلم منه(أى أعلم من حنين) باللغة العربية واليونانية ".

غادر حنين بغداد حوالى 211 هـ / 826م، ثم عاد بعد سنوات وقد اكتسب ثقافة رفيعة يستطيع أن يناقش بها أعظم المتعلمين فى العاصمة العباسية. فهو يمتلك زمام أربع لغات: العربية والسريانية واليونانية والفارسية: وهو ضليع بصناعة الطب مع الإلمام بالعلوم الأخرى الشائعة يوم ذاك، وهو متمكن من أسلوب نقدى صحيح فى الترجمة، وخبير بخفايا الثقافة الهللينستية، وقد كانت هى المشعل المنير لدروب المعرفة بشتى فروعها. (يوسف حبى)

فلا عجب أن أخذ نجم حنين يتلألأ فى الأوساط الثقافية ببغداد رغم صغر سنه إذ يروى القفطى على لسان يوسف بن إبراهيم، أنه كان يوماً عند اسحق بن الحسينى فرأى شخصاً قد جلله الشعر حتى ستر بعض وجهه، يتمشى وهو ينشد شعرا من أشعار هوميروس. فسأله عنه وعرف أنه حنين غير أن حنين طلب منه ان يستر أمره، ثم مرت ثلاث سنوات على هذه الحادثة المذكورة، فكان يوسف عند جبرائيل بن بختيشوع الطبيب المتوفى (214/ 829 م) فوجد أن حنين قد ترجم أقساماً من كتاب التشريح لجالينوس وجبرائيل يمتدحه على ذلك و يبجله. فطلب حنين من يوسف أن يضع بين يدى يوحنا بن ماسويه معلمه السابق ترجمة له هى الفصول المسماة بالجوامع (الفاعلات) دون أن يخبره لمن الترجمة. وفى يوسف بالوعد، فلما تصفح يوحنا الكتاب تعجب كثيراً من دقة الترجمة، وفصاحتها وسأل هل أوحى المسيح لأحد من أبناء دهرنا فأجابه يوسف بأنه لحنين بن اسحق، فسأله أن يصلح ما بينهما فتم له ذلك. [12]

ونظراً للمنزلة التى يتمتع بها جبرائيل بن بختيشوع لدى الخليفة المأمون، فقد نال حنين الحظوة لديه لملازمته لجبرائيل. ولم تؤثر وفاة جبرائيل على شهرة حنين التى أخذت ترتفع سريعاً بفضل ثقافته

و إنتاجه العلمى الرائع، واحتضنه يوحنا بن ماسويه فنقل له حنين كتباً عديدة لجالينوس وغيره من الحكماء.

المأمون يرى أرسطوطاليس فى منامه:

وعن أسباب اهتمام المأمون بترجمة الكتب اليونانية يحكى ابن أبى أصيبعة بأن المأمون " لما رأى المنام الذى أخبر به، أنه رأى فى منامه، وكأن شيخاً بهى الشكل، جالس على منبر، وهو يخطب و يقول ، أنا " أرسطوطاليس" انتبه من منامه وسأل عن" أرسطوطاليس" فقيل له حكيم من اليونانيين" ثم يضيف ابن أبى أصيبعة قائلا:

و نقلت من خط " الحسين بن عباس " المعروف بالصناديقى، رحمه الله، قال" أبو سليمان" سمعت يحيى بن عدى يقول، قال "المأمون" رأيت فيما يرأى النائم، كأن رجلا على كرسى جالساً فى المجلس الذى أجلس فيه. فتعاظمته وتهيبته، وسألت عنه، فقيل هو" أرسطوطاليس". فقلت اسأله عن شئ ، فسألته، فقلت : ما الحسن ؟ فقال ما استحسنته العقول. فقلت، ثم ماذا؟ قال، ما استحسنته الشريعة. فقلت ثم ماذا؟ قال، ثم لا ثم.

فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج كتب الفلسفة والمنطق، وتنفيذاً لهذه السياسة أنشأ المأمون "دار الحكمة". وهى عبارة عن مجمع يضم مكتبة وأكاديمية للبحث ومكتب للترجمة"

(فليب حتى – تاريخ العرب صـ 310)

" فلأن "المأمون" كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه" المأمون" فكتب لملك الروم يسأله الإذن فى إنقاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم فأجابه إلى ذلك بعد الامتناع، فأخرج "المأمون" لذلك جماعة منهم، الحجاج بن مطر، و" ابن البطريق" وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم. وأخذوا مما وجدوا ما إختاروا فلما حملوا إليه أمرهم بنقله فنقل.

وقد قيل، إن "يوحنا بن ماسويه" كان ممن نفذ إلى بلاد الروم وأحضر" المأمون" أيضاً " حنين بن اسحق" وكان فتى صغير السن، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية، وإصلاح ما ينقله غيره، فامتثل لأمره. ومما حكى عنه: أن" المأمون" كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلا بمثل.

حيـــاتـــه العائلية

فإذا انتقلنا إلى حياته الخاصة فإننا لا نجد ذكرا لزوجته فى حين يؤكد القفطى وابن أبى اصيبعة أن لـه ولدان" داود" و" اسحق" واشتهر الأخير وتميز فى الطب وفى الترجمة حيث اهتم بنقل كتب الفلسفة والحكم. أما داود فلم يشتهر كطبيب وليس له سوى كناش واحد. لكننا لانعثر على أى ذكر لزوجة حنين وأم ولديه، مما كان يمكننا من التعرف على حياته العائلية، وما طرأ عليها نتيجة لما تعرض له حنين من االمحن والشدائد.

وقد ترجم حنين إلى السريانية لبختيشوع وهو فى السابعة عشر من عمره، كتاب جالينوس (أصناف الحميات) ثم كتابه فى (القوى الطبيعية). لكن حنينا نفسه لم يرض عن ترجمة هذين الكتابين، ولا عن ترجمة كتب أخرى أنجزها فى صباه فصححها جميعاً بل ترجم بعضها من جديد فيما بعد . لكن جبرائيل اغتبط بذكاء وكفاية فتاه اللغوى. وامتدحه عند الخليفة الذى عينه فى (بيت الحكمة) الذى أنشئ سنة "215 هـ-830 م". واختزنت فيه جميع المخطوطات اليونانية التى جمعها المأمون من أماكن كثيرة فى إمبراطوريته الشاسعة، ومن آسيا الصغرى التى كانت لا تزال ترفرف عليها راية الدولة البيزنطية ومن الأستانة، واستخدم فيها رهطا من شباب المترجمين لنقل الكتب اليونانية إلى السريانية أولا ثم إلى العربية ثانيا. وفى اثناء ذلك توفى جبرائيل"214 هـ - 829 م" وأصبح ابنه بختيشوع (المتوفى عام 257 هـ) صديقا لحنين ووليه الذى يحبوه برعايته. ولقى حنين فوق ذلك من يوحنا بن ماسويه أستاذه السابق وسلمويه بن بنان منافسه العلمى (المتوفى عام 225 هـ - 845) خير عطف وعناية. وقد ذكر حنين نفسه كيف شارك الأخير فى بعض غزوات المأمون ضد الدولة البيزنطية. ولما مات المأمون (813-833م) عقب ذلك بقليل عين ماسويه رئيساً لأطباء المعتصم بالله (218-227 هـ- 83- 839م) الذى خلف المأمون وأصاب عنده مكانة. ومما لا ريب فيه أن حنينا ظفر منه بصديق قوى استظل بحمايته، وترجم له خلاصة ثلاثة عشر كتاباً من أهم كتب جالينوس، وأصاب مثل هذه الحظوة عند الواثق بالله (227 – 232 هـ) الذى كان يعظم العلماء و يتعشق محادثتهم. وكان حنين خلال ذلك قد ترجم قدراً هائلا من كتب جالينوس وغيرها من الكتب الطبية والفلسفية عن اليونانية. ولقد قام حنين برحلات طويلة جاب فيها أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر(الإسكندرية) سعياً وراء الحصول على المخطوطات العلمية اليونانية، الإ أننا لا نعرف بالضبط فى أى وقت قام بهذه الرحلات.

وكان الخليفة وكبار رجال البلاط يدفعون نفقات هذه الرحلات وأثمان الكتب النادرة. وغنى عن البيان أن كبار رجال البلاط كانوا هم أنفسهم من جلة العلماء المبرزين فى حلبة المعرفة أمثال بنى موسى ابن شاكر منجم المأمون. وكانوا ثلاثة نخص منهم بالذكر محمد وأحمد اللذين كانا من مشاهير الرياضيين. واللذين قدما حنين ابن اسحق وثابت بن قرة الحرانى الطبيب الصابئى والفلكى العظيم إلى الخليفة. وقد قال ابن أبى أصيبعة أن بنى موسى بن شاكر كانوا ينفقون خمسمائة دينار تقريباً فى كل شهر على أعمال الترجمة. ويرى حنين نفسه أن ترجمته تحسنت كثيراً بعد أن بلغ سن الثلاثين. و من المحتمل أن حبيشا ابن أخت حنين اشترك فى أعمال الترجمة بعد ذلك بقليل مع خاله الذى أصبح بفضل حدبه عليه أحد مشاهير المترجمين.

بداية المحن:

و فى أيام الخليفة المتوكل على الله (232 – 247 هـ / 847– 86م) بلغ حنين قمة مجده كمترجم وطبيب. لكنه خلال نفس هذه الفترة نكب بمحن جرها سوء ظن المتوكل به وحسد زملائه النصارى له. وأول هذه المحن ما رواه ابن أبى أصيبعة من أن المتوكل لما قوى أمر حنين وانتشر ذكره بين الأطباء أمر بإحضاره. فلما حضر أقطع اقطاعات حسنة، وكان الخليفة يسمع بعلمه ولا يأخذ بأى دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره، وأحب امتحانه حتى يزول ما فى نفسه عليه، ظنا منه أن ملك الروم ربما كان عمل شيئا من الحيلة به، فا ستدعاه يوماً وأمر بأن يخلع عليه وأحضر توقيعا فيه اقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم. فشكر حنين هذا الفعل. ثم قال الخليفة بعد أشياء جرت " أريد أن تصف لى دواء يقتل عدوا نريد قتله سراً ". فقال حنين:" يا أمير المؤمنين إنى لم أتعلم إلا الأدوية النافعة. وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها. فإن أحب أن امضى وأتعلم فعلت ذلك " فقال الخليفة: "هذا شئ يطول". ورغبه وهدده فلم يزد حنين عما قاله. فأمر بحبسه فى بعض القلاع ووكل به من يوصل إليه خبره وقتا بوقت ويوما بيوم. فمكث سنة فى حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف غير مكترث بما هو فيه: فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره واحضار أموال يرغبه فيها. وأحضر سيفا ونطعا وسائر آلات العقوبات. فلما حضر قال له الخليفة "هذا شيء قد كان. ولا بد مما قلته لك. فإن أنت فعلت فزت بهذا المال وكان لك عندى أضعافه. وإن امتنعت قابلتك بشر مقابلة وقتلتك شر قتلة". فقال حنين:" قد قلت لأ مير المؤمنين انى لم أحسن إلا الشئ النافع ولم أتعلم غيره". فقال

الخليفة: " فإننى أقتلك " فقال حنين:" لى رب يأخذ بحقى غدا فى الموقف الأعظم، فان اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل". فتبسم الخليفة وقال له:" يا حنين طب نفساً وثق بنا فهذا الفعل كان منا لامتحانك، لأنا حذرنا من كيد الملوك وإعجابنا بك. فأردنا الطمأنينة إليك والثقة بك لننتفع بعلمك " فقبل حنين الأرض وشكر له. فقال الخليفة:" يا حنين ما الذى منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا فى الحالتين". فقال حنين:" شيئان يا أمير المؤمنين" فقال المتوكل:" وما هما، قال:" الدين والصناعة" فقال الخليفة وكيف؟ قال حنين:

"الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف بأصحابنا وأصدقائنا، ويبعد ويحرم من لم يكن كذلك، والصناعة تمنعنا من الإضرار ببنى الجنس لأنها موضوعة لنفعهم، ومقصورة على مصالحهم. ومع هذا فقد جعل الله فى رقاب الأطباء عهداً مؤكدا بإيمان مغلظة: ألا يعطوا دواء قتالا ولا ما يؤذى. فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين ووطنت نفسى على القتل. فإن الله ما كان يضيع من بذل نفسه فى طاعته. وكان يثيبنى". فقال الخليفة: "انهما لشريعتان جليلتان". أمر بالخلع فخلعت عليه. وحمل المال بين يديه. وخرج حنين من عنده وهوأحسن الناس حالا وجاها.

أخلاق الطبيب وآداب مهنة الطب:

لقد التزم حنين بمبادىء دينه الذى يحضه على محبة الأعداء، والتزم بآداب مهنة الطب التزاما صادقا وشجاعا، أودى به الى السجن والمهانة وضياع الحرية عاما كاملا. ولم يفت ذلك فى عضده ولم يفل عزيمته أو يضعف من إصراره على موقفه حتى لو أدى ذلك الى التضحية بحياته. وهو مؤمن بقول المسيح " من يبذل حياته من أجلى يجدها " كذلك تمسك بأخلاق المهنة التى تفرض على الطبيب أن يعالج المرضى ويخفف آلامهم لا أن يقتلهم، أو يستغل حالات ضعفهم وحاجتهم إليه. لقد ضرب حنين بن اسحق أعظم مثل فى الأمانة والصدق بصورة قوية تجسد هذا العهد الذى صاغه الطبيب العظيم أبقراط، ودعا الأطباء من كل جنس ودين إلى الإلتزام به حتى يكونوا فى خدمة المرضى وفى خدمة الحياة.

وفاز بثقة الخليفة وتقديره ولكن إلى حين. فقد كانت هذه التجربة امتحانا قاسيا وسوف تعقبها محنة أشد وأنكى. فكلما ارتقى حنين فى فكره وعلمه كلما كثر حساده والحاقدون عليه. فما أسهل اللعب بعقول الحكام المستبدين.

فبعد مضى سنوات قليلة ابتلى حنين بمحنة أخرى إذ كان بختيشوع بن جبرائيل – وفى رواية أخرى، إسرائيل بن زكريا الطيفورى الطبيب النسطورى، قد قلب لحنين ظهر المجن وأصبح يعاديه ويحسده على علمه وفضله وهو ما عليه من جودة النقل، فحاك له مكيدة عرضته لغضب الخليفة فأمر بسجنه وتعذيبه وتبديد مكتبته وبيته وكل ما كان يمتلكه. وقد سجل حنين تفاصيل هذه المحنة بقلمه ونقلها إلينا ابن أبى أصيبعة فى كتابه الحافل:

"عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" وسوف نعرضها فى فصل قادم.

ولا يفوتنا فى هذه المناسبة أن نشير الى أبى قراط وقسمه الذى يقسم عليه الأطباء الشبان عند التخرج، وقبل ممارستهم لمهنة الطب. وقد حاول أبو قراط عن طريق هذا القسم أن يربط مهنة الطب بالأخلاق وبالضمير، حماية للمرضى وهم الطرف الضعيف فى هذه العلاقة وذلك لأن أبى قراط هو بلا منازع من أعظم أطباء العالم فى التاريخ. وقد سماه العرب" أبو الطب" ورفعوا نسبه إلى عائلة أسقليبيوس. ولا يتردد ابن أبى أصيبعة الذى خصص له ترجمة طويلة فى تاريخه أن يشير إلى ما كان عليه من" التأ ييدالإلهى".

ومن أبرز مميزات ابقراط سمو أخلاقه فى مهنته كطبيب. فظل قسمه المشهور رمزاً للأخلاق الطبية الراقية وارتفاعها عن الاندماج فى الشبهات التجارية.
وها هو هذا القسم (الذى سماه العرب: عهد ابقراط):

عهد ابى قراط Hippocratic Oath

إنى أقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج، وأقسم بأسقليبيوس وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعا، على أنى أفي بهذه اليمين وهذا الشرط وأرى أن المعلم لى هذه الصناعة بمنزلة آبى، وأواسيه فى معاشى، وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالى. وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لأخوتى، وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولا شرط. وأشرك أولادى وأولاد المعلم لى والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا

بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة. وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك وأقصد فى جميع التدبير، بقدر طاقتى، منفعة المرضى.

وأما الأشياء التى تضر بهم وتدنى منهم بالجور عليهم فامنع منها بحسب رأى. ولا أعطى إذا طلب منى دواء قتالا، ولا أشير أيضا بمثل هذه المشورة. وكذلك أيضا لا أرى أن أدنى من النسوة فرزجة تسقط الجنين. وأحفظ نفسى فى تدبيرى وصناعتى على الذكاء والطهارة. ولا أشق أيضا عمن فى مثانته حجارة لكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل.

وكل المنازل التى أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى، وأنا بحالة خارجة عن كل جور وظلم و فساد إرادى مقصود إليه من سائر الأشياء، وفى الجماع للنساء والرجال الأحرارمنهم والعبيد.

وأما الأشياء التى أعانيها فى أوقات علاج المرضى أو أسمعها، أو فى غير أوقات علاجهم فى تصرف الناس من الأشياء التى لا ينطق بها خارجا، فأمسك عنها وأرى أن مثالها لا ينطق به. فمن أكمل هذا اليمين ولم يفسد منه شيئا كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها أن يحمده جميع الناس فيما يأتى من الزمان دائما ومن تجاوز ذلك كان بضده.

الفصل الرابع

4- المترجم والفقيه اللغوى

من أعظم سمات الحياة الفكرية للعصر العباسى هى الإحتفاء بالفلسفة والعلم الإغريقيين. وفيما كان التأثير الفارسى والهندى فى القرن الثامن الميلادى هو الراجح فى تلك الحياة، نجد أن بيت الحكمة الذى أسسه المأمون فى القرن التاسع الهجرى قد لعب دوراً فى هيمنة فكر أرسطو وابقراط و جالينوس وبطليموس على النفوس المستنيرة فى بغداد، وفى أرجاء العالم الأسلامى كله. ففى القرن التاسع الميلادى برزت ثلاث شخصيات عظيمة هى ثابت بن قرة أحد صائبة حران، والكندى الفيلسوف المسلم العربى، وحنين بن اسحق المسيحى النسطورى.

ومن رأى الأستاذ كوركيس عواد أنه "لم يقم بين المترجمين فى العصر العباسى، من فاق حنين بن اسحق فى وفرة التصنيف، من تأليف ونقل ومراجعة وتصحيح، ولا من جاراه فى حسن الأسلوب ودقة الترجمة."(مكتبة حنين بن اسحق).

وقد برز حنين بن اسحق كأقوى شخصية فى هذا العصر، إذ تفوق فى ميدانى الترجمة والتأليف، وحقق أمجادا عظيمة فى علوم الطب والفلسفة واللغة." ويؤخذ من قائمة وضعها حنين و أتمها أحد تلاميذه، أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتابا، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين. هذا إلى جانب أنه راجع ترجمة تلاميذه، فأصلح ستة كتب مما نقل إلى السريانية، ونحواً من سبعين كتابا إلى العربية. كما راجع وأصلح معظم الخمسين كتابا التى كان قد ترجمها إلى السريانية سرجيس الرأسعينى وأيوب الرهاوى وغيرهما من الأطباء المتقدمين" (رسالة حنين فى ذكر ما ترجم).

وفى رأى الأب جورج قنواتى، أن" حنين ابن اسحق كان حريصاً على تأدية المعنى بدقة، فاهما تماماً لمقتضيات النشر العلمى ووجوب الرجوع إلى أحسن المخطوطات. وبجانب ترجمته لكتب جالينوس، نقل حنين عدداً من كتب ابقراط".

لم ينحصر جهد حنين فى ميدان الترجمة بل تعداه إلى ميادين أخرى. فكان طبيباً ماهراً متقدماً عند الخلفاء تميز فى معالجة أمراض العين، وألف فى هذا التخصص أهم كتبه الطبية. وقد شملت مؤلفاته الطب والفلسفة واللغة. وقد أورد ابن أبى اصيبعة اكمل قائمة بأعماله، وهى تضم مائة وأحد عشر كتابا سوف نقدمها فيما بعد.

لكن عنايته الفائقة بطب جالينوس وبكتبه كان مثار اهتمام كبير، إذ أصبح جالينوس، بفضل هذه العناية أشهرالأطباء الإغريق فى تراث العربية. لقد انغمس حنين بشدة فى دراسة طب جالينوس و فى ترجمته حتى ألف أسلوبه، وأصبح إذا قرأ نصا استطاع أن يحكم هل هو من وضع جالينوس أو مدسوس عليه. (إبراهيم مدكور)

وفى هذا يقول ابن جلجل" و حنين ابن اسحق هو الذى أوضح معانى كتب ابقراط وجالينوس، ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استطاع منها، وأوضح مشاكلها (طبقات الأطباء والحكماء ص 69). أما ابن أبى اصيبعة فيعبرعن رأيه فى ترجمات حنين لمصنفات جالينوس بعد أن قارن بينها وبين ترجمات الآخرين لنفس المصنفات بقوله" فلما طالعتها وتأملت ألفاظها تبين لى بين نقلها ونقل الست عشرة التى هى نقل حنين تباين كثير وتفاوت بَين .. ... فأين الألكن من البليغ وأين الثرى من الثريا " (عيون الأنباء جـ 2، ص 149).

التزم حنين الأمانة فى نقله لكتب الثقافة اليونانية كما كان أمينا فى ممارسته للطب والتمسك بأخلاقيات الطبيب. فحرص على الدقة فى ترجمة النص اليونانى، وحرص على وضوح المعنى بدرجة لم يصل إليها أحد من أقرانه، فكان يحقق ويدقق فى قرائة النص، وفى قرائة الترجمة ثم يصحح ويراجع ولا يأنف أن يعيد ترجماته القديمة إذا وجد فيها نقصا. ورغم انتسابه للثقافة السريانية، فقد عشق العربية وأتقنها وكتب بها شعراً.

وقد تناول بروفسور شتروهماير ترجمات حنين بالفحص والدراسة، ورأى أن المؤرخين حينما اهتموا بحنين باعتباره طبيبا ومترجما، لم يهتموا به كلغوى بارع فى فقه اللغة حتى عام 1925، عندما نشر كوتهليف بيرجستراتر رسالة حنين بن اسحق إلى على بن يحيى" فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وما لم يترجم". ومنها تتضح لنا القواعد التى كان يسير بمقتضاها، فهو لم يكن يقبل

على ترجمة سريانية أو عربية لنص ما لم يتمكن من جمع عدة نسخ لذلك النص، فيقرأها ليس قراءة عامة إنما يقرأها كلمة كلمة ويطابقها. وهذا العمل كان يضطره للقيام برحلات عديدة بحثاً عن تلك المخطوطات لمقارنتها، فسافر الى حلب وفلسطين ثم الإسكندرية. والغرض من ذلك ليس قراءتها وإنما لغرض اقتنائها ومطابقتها مع نصوص المخطوطات الأخرى لديه.

وفى شبابه لم يكن قادراً على ذلك، لأنه كان يترجم النسخة المخطوطة الوحيدة التى لديه، لذا اضطر فى أواخر حياته إلى مراجعة تراجمه على ما وقع عليه من مخطوطات أخرى. ثم يورد شتروهماير ملاحظات حنين حول ترجمته لكتاب جالينوس (حول الفرق الطبية) الذى قرأه أمام (يوحنا بن ماسويه) فى الوقت الذى بعد فيه عن مدرسته:" إنى ترجمته وأنا حدث من أبناء عشرين سنة أو أكثر قليلا لمتطبب من أهل جنديسابوريقال له (شيريشوع بن قطرب) من نسخة يونانية كثيرة الإسقاط، ثم سألنى بعد ذلك وأنا من أبناء أربعين سنة أو نحوها، حبيش تلميذى، إصلاحه بعد أن كانت قد اجتمعت له عندى عدة نسخ يونانية، فقابلت تلك النسخ بعضها ببعض حتى صحت منها نسخة واحدة ثم قابلته بتلك النسخة السريانية وصححته، وكذلك من عادتى أن أفعل فى جميع ما أترجمه" .

وحينما كان حنين يجد قراءات مختلفة فى المخطوطات المتباينة، كان عليه أن يقرر أيها هى النسخة الأقرب إلى الأصل. وهذا مثيل ما يقوم به المحقق فى الوقت الحاضر، لنص قديم وذلك بإخضاع النص مختلف القراءات إلى نظام نقدى أصبح الآن سهلا بعد اختراع الطباعة. وعلى كل حال، فإن حنين كان يضطر إلى إضافة الشروح على تراجمه، أو فى حواشيها بغية إفهام القارئ اختلاف المخطوطات اليونانية، والإفصاح عن الشكوك التى تساوره فى أحد تلك الأجزاء من النص، ثم يمثل لذلك بكتاب جالينوس" العلاج بالتشريح" والذى ترجمه إلى السريانية أيوب الرهاوى وصحح حنين فيما بعد ترجمته العربية التى قام بها حبيش بن الحسن، حيث وجد حنين تناقضاً فى أقوال جالينوس حول أحدعظام الرأس:

" قال حنين وجدنا فى ثلاث نسخ يونانية لقيناها إلى هذه الغاية خلا النسخة السريانية أن نحسب ما نجد جالينوس يقول بعد قليل، ليس هذا الجزء الوسط غضروفى، لكنه عظمى، وإن كان ذلك كذلك فليس يخلو من احد أمرين، إما أن يكون غلط من الكاتب، وإما ان يكون إنسان ظن أنه يصلح الكتاب فغيره وأفسده".

ويعلق شتروهمايرعلى ذلك قائلا:

إن سبب إشارة حنين إلى ترجمة أيوب الرهاوى السريانية مع توفر المخطوطات اليونانية لديه، هو كونها مترجمة عن مخطوطة يونانية أخرى وقع فيها مثل هذا الغلط. وقد فعلنا نحن فى المانيا الديمقراطية فى أكاديمية العلوم مثل هذا العمل حينما قمنا بطبع كتاب" طب البدن اليونانى" لأحد الأطباءالإغريق، لأنه كان فى حوزة مخطوطات أغريقية أخرى أقدم مما لدينا.

وقرر شتروهمايرأن حنين لم يكن يتقاضى أجراً عما يقوم به من جمع ومقارنة المخطوطات، وذلك لصفته المتميزة بكونه فقيها لغويا بالإضافة لكونه أنه كان ينفق وقته وماله لهذا الغرض. وحينما كان يشعر بأنه غير قادر على إصلاح فقرة مضطربة، فكان لا يخفى فشله هذا عن القارئ، وحينما كان جالينوس فى كتابه " فى الأسماء الطبية" يقدم شواهد لاستعمالات اغريقية قديمة، ويقتبس ابياتا من الكاتب الهزلى أرستوفانيس، فإن حنين يستبدل هذا الشعر القصصى بالعبارة الأتيه : " قال حنين بن اسحق إن جالينوس من بعد ما قال هذا القول أتبعه بنسخ كلام ارستوفانيس إلا أن النسخة اليونانية التى منها ترجمت هذا الكتاب إلى السريانية كان فيها من الخطأ والسقط مقدار ما لم يكن يمكننى من أن أخلص معانيها لولا أننى قد ألفت وتعودت فهم كلام جالينوس باليونانية وعرفت جل معانيه من كتبه الأخرى ، فأما كلام ارستوفانيس فإننى لم أفهمه ولم أتعوده، لهذا السبب لم يسهل على تخلصه، وتركته ودعانى إلى تركه أيضاً سبب آخر، هو إننى لما قرأته لم أجد فيه معنى أفضل على ما وجدت جالينوس قد حصله فى معانيه ورأيت أن لا أشغل نفسى به واتخطاه إلى ما هو أنفع منه"

ومن هذا الكلام يستنتج شتروهمايرأن الآداب الرفيعة لم تكن فى مجال نشاط حنين فى الترجمة. ثم يشيرإلى أسلافه أمثال سرجيوس الرأسعينى وثيوفيل الرهاوى اللذان كانا يهتمان باللاهوت والفلسفة والطب والفلك والأمثال والحكم الشعبية. وكان ثيوفيل ثقة فى ترجمة آثار هوميروس. لكن بروفسور شتروهماير يشيد بفضل حنين فى هذا الجانب أيضا، لأنه نقل لنا أخبارا مفيدة عن الكاتب الساخر لوسيانو أو(لقيانوس) السمسياطى، وهوأعظم كاتب من أصل سورى، والمعروف أن لوسيان كان معاصرا لجالينوس، وقد زار اليونان فى شبابه فاصبح من أفصح اللغويين باليونانية، حتى أن صوره المازحة وتعليقاته الساخرة على المجتمع القديم والدين والفلسفة لاتزال موضع الاعجاب الى يومنا هذا.

أما الخبر الذى أثار اهتمام شتروهمايرهو أن لوسيان انتحل مرة كتابا يحتوى على شروح فلسفية هذيانية ونسبه الى هيراقليدس المعروف بالفيلسوف العابس، ثم أعطى الكتاب الى أحد المثقفين الذى فرح فرحا شديدا وشرع يعلق عليه فى الحال. يقول شتروهماير إن هذه الحكاية ليست معروفة فى الأخبار اليونانية، انما وجدتها أنا فى ترجمة حنين لتعليق جالينوس على "الامراض الوبائية" لابقراط.

ثم ينتقل الكاتب الى رواية أخرى ليؤكد بها على استفادة حنين بثقافته الأدبية فيقول:

" مع أن حنين لم يكن معنياً بالتراث الأدبي الإغريقي فى تراجمه، إلا أننا نجد تلميحات تنم عن براعة فائقة تتعدى حدود المعرفة المجردة للغة والموضوعات العلمية. ولقد وجدت مؤخراً مقالا نادرا عند مراجعتى ترجمة روسية جديدة للبيرونى غير مطبوعة عن الصيدلة. أن هذا الكاتب الطبى القديم المدعو" روفوس الأفسوسى" يصف طريقة لجمع قطرات صغيرة من نوع من الراتنج المستخرج من لحى الماعز الذى يقتات على نوع معين من النبات. لقد اقتبس هذا الكلام من جالينوس الذى ترجمه حنين فاقتبسه ثانية البيرونى. أما البلد الذى يعيش فيه مثل هذا الماعز وفقا لرأى حنين فهو بلاد العرب والحبشة والسند وبلاد الهند. ولقد احترت قليلا فى أمر هذا المرعى الفسيح، فرجعت إلى الأصل اليونانى فوجدت اسما لشعب واحد فقط يدعى" ارمبوى " وقد ذكر هذا الاسم فى الأدوية لهوميروس، ولا يعرف أحد من هم هؤلاء" الارمبوى". إن البعض يعتقد بأنهم عرب والبعض الآخر يعتبرهم أحباشا والآخرون هنودا، لكن نجد أن حنين يعرض كل هذه الشروح المحتملة، ويعددها فى ترجمته، وعلى هذا فيكون حنين قد أطلع على نوع من المعاجم أو هوامش الشروح حول هوميروس، أوربما تكون لديه دراسة خاصة عن هوميروس. لكننا نعرف بأن حنين فى عودنه إلى بغداد كان يحفظ ما خلف هوميروس عن ظهر قلب "

لقد كان حنين ماهراً فى تحويل التراكيب اليونانية المعقدة إلى عربية سهلة مفهومة غير متعالية بل ملائمة كل الملائمة للأغراض العلمية. مع ذلك فقد يلاحظ المرء شيئا من الإسهاب لنقل اصطلاح يونانى بكلمتين عربيتين ولم يكن ذلك دائما لغرض إيضاح التعبير، ولشرح ذلك نقرأ الفقرة التالية من رسالة حول كتابات جالينوس.

" و قد ترجمت إلى السريانية منذ قريب لبختيشوع على نحو ما من عادتى أن استعمله فى الترجمة من الكلام، وهو أبلغ الكلام عندى وأفلحه وأقربه من اليونانية من غير تعد لحقوق السريانية ثم سألنى بختيشوع أن أعيد ترجمته لكلام أسهل وأسلس وأوسع من الكلام الأول ففعلت " .

ومع الاختلاف فى قضية اتصاله بالخليل أو سيبويه، إلا أنه من الثابت أنه قد ذهب إلى البصرة حيث درس قواعد اللغة العربية ,. و مما يدل على ذلك عنوان كتابه " فى أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين".

وعناية حنين باللغة العربية تظهر فى قائمة الاصطلاحات الطبية التى اختارها هو وتلاميذه. واللغة العربية غنية بالمفردات ووافية بالاصطلاحات التى توضح الأقسام الخارجية من جسم الإنسان و الأمراض، غير إن ذلك لم يكن كافياً لعلمى التشريح والأمراض، بل كان من الممكن نسخ المصطلحات الإغريقية بحروف عربية كما كانت العادة فى الترجمة السريانية، لكن حنين وتلاميذه تجنبوا هذا الأسلوب وشرعوا يصوغون تعابير جديدة من الينابيع العربية. ولما لم يكن هناك مجمع لغوى يقوم بذلك، فتعهد المترجم أن يقوم بهذه المهمة من التعريب بما يلائم النصوص. وحينما كان الطبيب الإغريقي يميز غلافين للدماغ البشرية مثلا، الخارجى منها صلب والداخلى لين، كان العرب لا يعرفون سوى غشاء واحد، مع وجود عدة مترادفات لهذا الاسم الذى كان أكثرها شهرة كنية (أم الدماغ) والتى استشهد بها ببيت من الشعر للشاعر الجاهلى أوس بن غلفه الحجيمى فى المفضلات.

لقد قلت آنفا إن الأصالة الحقيقية تتجلى فى قدرة الإنسان على الأخذ والعطاء وقد تجلت هذه الخاصية فى شخصية حنين ين اسحق نتيجة لإتقانه أربع لغات. فإذا كانت العربية قد أخذت من السريانية، فإن السريانية أيضاً قد تغذت على العربية وتراثها وقد تجسد هذا كله فى أسلوب حنين وقدرته على التعبير الواضح المفهوم. واستحق هذه الشهرة التى حظى بها من المؤرخين، مثال ما يذكره صاعد الأندلسى" أبو زيد حنين ين اسحق" أحد أئمة التراجمة بالإسلام .... وإن حذاق الترجمة بالإسلام أربعة: حنين بن اسحق العبادى، ويعقوب بن اسحق الكندى، وثابت بن قرة الحرانى، وعمر بن الفرخان الطبرى " (طبقات الأمم ص 47-48).

ولابد لنا من الاعتراف بأن نجاح حنين ين اسحق لم يأت من فراغ، فقد نشأ حنين فى بيئة علمية إذ كان أبوه صيدليا، وتربى فى كنيسته السوريانية النسطورية وهى بيئة اجتماعية وثقافية متميزة مما وثق ارتباطه بالناس ولغتهم سواء الفصحى أو العامية .... بالإضافة إلى ما خلفه القرن الأول والثانى من ترجمات مهما كانت عيوبها. وكما يقول الدكتور ابراهيم مدكور:

" لقد عرف مترجمو القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) كيف يستفيدون من المصطلحات العلمية التى استقرت فى القرنين السابقين، وحاولوا ما استطاعوا أن يؤدوا اللفظ الأجنبى بلفظ عربى، فإن عز عليهم ذلك لجئوا إلى التعريب فى غير إسراف، فعربوا عن اليونانية والسريانية واستعانوا أيضا بالفارسية، ولحنين ومدرسته شأن فى استعمال طائفة من المصطلحات الفلسفية والطبية قدر لها أن تحيا إلى اليوم " (حنين ين اسحق المترجم) .

وحنين هذا الذى عد علماً فى النقل، ومن أعظم تراجمة العصر العباسى يعود الفضل فى تبوئه هذه المكانة فى تاريخ العلم عند العرب بل فى تاريخ الفكر العربى فى العصر الوسيط، إلى مدرسة جنديسابور رغم إكماله التحصيل فى بلاد الروم. ذلك لأن الذى حفزه على الرحيل على سبيل العلم والمعرفة هو ما تعلمه فى جنديسابور على يدى ابن ماسويه كما يقول دى لاسى أوليرى فى كتابه انتقال علوم الإغريق إلى العرب.

وهذا ما يؤكده الأب جورج قنواتى

ففى أكاديمية جنديسابور تفقه فى السريانية وتقوى فى الفارسية وأطلع على اليونانية وعلى بعض مفردات السانسكريتية(الهندية) فى العلوم، واتسعت آفاقه الفكرية وازداد نهمه للمعرفة. فالدارس لمصطلحات حنين فى الطب يجد أثر جنديسابور ومعهدها واضحاً أمامه كما هو الحال معى الآن، حين دراستى لجانب من مصطلحات حنين.

لقد اتخذت من كتابى(العشر مقالات فى العين) و(المسائل فى العين) لحنين نموذجين لدراسة مصطلحاته الطبية. اتخذ حنين الاشتقاق والمجاز والتعريب والترجمة نهجاً سار عليه فى وضعه المصطلحات الطبية. إليك أمثلة على ذلك.

الاشتقاق

(أ) على صيغة فعال وفعل

1- اشتق على صيغة فعال: صداع headache ورعاف epistaxis

2- اشتق على صيغة فعل: جرب scab وسبل pannus

(ب) واشتق على صيغة فعلة فقال : جمرة carbuncle

حمره Erysipela

(ج) و اشتق على صيغة انفعال وافتعال

1- أمثلة على صيغة انفعال: انعكاس reflection واندمال cicatrisation

2- مثال على صيغة افتعال: إلتزاق symblepharon

(د) و اشتق اسم الآلة التى يعالج بها الشئ على صيغة مفعل ومفعال ومفعلة .

1- مثال على صيغة مفعل: مقدح cooching needle

2- مثال على صيغة مفعال: مقراض pair of scissors

3- مثال على صيغة مفعلة: محجمة cupping glass

(هـ) و اشتق من أسماء الأعيان فقال عفوصة من العفص gall

(2) المجـــاز

المجاز عند علماء البيان لفظ ينقل المتكلم معناه الأصلى الموضوع له إلى معنى آخر بينه وبين المعنى الأصلى علاقة. وهذه أمثلة على المصطلحات التى وضعها على طريقة المجاز:

(أ) الشعيرة style): قال حنين فى (العشر مقالات فى العين ص 133)

" ورم يحدث أكثر ذلك فى طرف مستطيلا شبيها بالشعيرة (أو الشعيرة) ولذلك يسمى قريشى" . إن لفظ قريشى اليونانى (crithe) وضع له فى العربية (شعيرة) فالمصطلح وضعه على سبيل المجاز .

(ب) القرنية (cornea) قال حنين فى (المسائل فى العين ص 21) :

" و إنما سميت بهذا الاسم لأنها تشبه العنبة فى لونها الاسمانجونى" .

و يقابل هذا اللفظ فى اليونانية (phargoeides) .

(د) الشبكية (retina) قال حنين فى (المسائل فى العين ص 21) :

" إنما سميت بهذا الاسم لأنها أشبه بشبكة الصياد لكثرة ما فيها من العروق ". ويقابل هذا اللفظ فى اليونانية (Amphible Stoeides)

(هـ) الملتحمة (Conjunctive) قال حنين فى (المسائل فى العين ص 21)" إنما سميت بهذا الاسم لأنها تلتحم بالقرنية وتطيف بها ". ويقابل هذا اللفظ فى اليونانية (Epipephylos) .

3- التعـريب

أما طريقة حنين فى التعريب فتتلخص فى اتخاذ التعريب واسطة لوضع المصطلح عندما يعجز عن العثورعلى اللفظ العربى الواحد للمصطلح الأجنبى، ولم يتقيد بأن يكون اللفظ المعرب مطابقا للصيغ العربية دائما وقد سار على هذا النهج سيبويه وابن سيده وابن برى والخفاجى والمرزوقى وغيرهم حيث كانوا يرون أن الكلمات التى تعرب لا يشترط فيها أن تجئ دائما على الأوزان العربية، لكنه يرجح تشذيبها إن كان ذلك ممكنا حتى تستقيم على نهج كلام العرب.

عرب حنين عن اللغات: اليونانية والسريانية والفارسية وعن الهندية (السانسكريتية) بقلة ومن المادة الطبية فقط.

(أ) تعريبه عن اليونانية. هذه أمثلة ما عربه عن اليونانية:

1- تاراكسس: عرب حنين هذه اللفظة عن اليونانية (Taraxis) قال حنين فى (العشر مقالات ص 128): تاراكسس: "هو تكدر فى العين من علة هيجتها من خارج مثل الدخان والشمس والدهن والغبار وما أشبه ذلك". أقول تاراكسس معناه = (التهاب الملتحمة)

2- بلغم (Phlegm)، عرب حنين هذا اللفظ عن السريانية أوعن اليونانية فهو فى السريانية (Flaghma) (فلاغما) و فى اليونانية (Fleghma)
، و أنا أرجح أن السريانية استعارت هذا اللفظ من اليونانية فسريته (ان صح التعبير). والبلغم هو أحد الأخلاط الأربعة فى الطب القديم.
3- كيموس:(Chyme) عرب حنين هذا اللفظ عن اللفظ اليونانى (Chimos) الذى أصبح فى اللاتينية (Chymus) و الكيموس هو: الكتلة الطعامية الكثيفة التى تدلف بعد انهضامها فى المعدة إلى الأمعاء.

4- أسارون: هذا المصطلح من المادة الطبية. وهو اسم لعشبة معمرة طيبة الرائحة. عرب حنين هذا اللفظ عن اليونانية (Asarone) وهو فى اللاتينية (Asarum).

عن كتاب "تاريخ الصيدلة والعقاقير" للأب جورج قنواتى

الفصل الخامس

5- المحنـــــة الكبرى

رسالة حنين بن اسحق فيما أصابه من المحن والشدائد، كتبها بخط يده ونقلها لنا ابن أبى أصيبعة فى كتاب"عيون الأنباء فى طبقات الأطباء"

قال حنين بن اسحق: "إن ما لحقنى من أعدائى ومضطهد، الكافرين بنعمتى، الجاحدين لحقى، الظالمين إلى المتعدين على، من المحن والمصائب والشرور ما منعنى من النوم وأسهرعيني، وشغلنى عن مهماتى.

وكل ذلك من الحسد لى على علمى، وما وهبه الله لى عز وجل، من علو المرتبة على أهل زمانى، وأكثر أولئك أهلى وأقربائى فإنهم أول شرورى وابتداء محننى.

ثم من بعدهم الذين علمتهم واقرأتهم وأحسنت إليهم وأرفدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصناعة وقربت إليهم علوم الفاضل " جالينوس" وكفأونى عوض المحاسن مساوىء بحسب ما أوجبه طبعهم وبلغوا بى أقبح ما يكون من إذاعة أوحش الأخبار، وكتمان جليل الأسرار، حتى ساءت بى الظنون وامتدت إلى العيون ووضع على الرصد حتى أنه كان يحصى على ألفاظى، ويكثر اتهامى بما دق منها مما ليس غرضى فيه ما أومأوا إليه، فأوقعوا بغضتى فى نفوس سائر أهل الملل فضلا عن أهل مذهبى.

وعملت لى المجالس بالتأويلات الرذيلة. وكلما اتصل ذلك بى حمدت الله حمداً جديداً وصبرت على ما قد دفعت إليه. فآلت القصة بى إلى ان بقيت بأسوأ ما يكون من الحال، من الإضاقة والضر، محبوساً مضيق على مدة من الزمان لا تصل يدى إلى شئ من ذهب ولا فضة ولا كتاب وبالجملة ولا ورقة أنظر فيها.

ثم إن الله عزو جل، نظر إلى بعين الرحمة فجدد لى نعمة، وردنى إلى ما كنت عارفاً به من فضله. وكان سبب رد نعمتى إلى بعض من كان التزم عداوتى واختص بها. هنا صح ما قاله جالينوس: إن الأخيار من الناس قد ينتفعون بأعدائهم الأشرار. ولعمرى فقد كان ذلك أفضل الأعداء.

وأنا الآن مبتدئ بذكر ما جرى على مما تقدم ذكره، فأقول: كيف لا أبغض ويكثر حاسدى، ويكثر ثلبى فى مجالس ذوى المراتب، وتبذل فى قتلى الأموال، ويعز من شتمنى ويهان من أكرمنى.

كل ذلك بغير جرم لى إلى واحد منهم ولا جناية، لكنهم لما رأونى فوقهم وعالياً عليهم بالعلم والعمل، ونقلى إليهم العلوم الفاخرة من اللغات التى لا يحسنوها، ولا يهتدون إليها، ولا يعرفون شيئاً منها، فى نهاية ما يكون من حسن العبارة والفصاحة، ولا نقص فيها ولا زلل ولا ميل لأحد من الملل ولا استغلاق، ولا لحن باعتبار أصحاب البلاغة من العرب الذين يقومون بمعرفة وجوه النحو والغريب ولا (يعثرون على سيئة) ولا شكلة، ولامعنى، لكن بأعذب ما يكون من اللفظ وأقربه إلى الفهم. يسمعه من ليس من صناعة الطب، ولا يعرف شيئاً من طرقات الفلسفة، ولا من ينتحل ديانة النصرانية. وكل الملل يستحسنه ويعرف قدره، حتى أنهم قد يغرمون، على ما كان من الذى أنقل، الأموال إذ كانوا يفضلون هذا النقل على نقل كل من كان قبلى.

وأيضاً أقول ولا أخطئ: إن سائر أهل الأدب، وإن اختلفت مللهم محبون لى مائلون إلى، مكرمون إلى، يأخذون ما أفيدهم بشكر، ويجازوننى، بكل ما يصلون إليه من الجميل.

فأما هؤلاء الأطباء النصارى الذين يرومون سفك دمى، على أنهم لا بد لهم منى، فمرة يقولون من هو "حنين"؟! إنما"حنين" ناقل لهذه الكتب ليأخذ عن نقله الأجرة، كما تأخذ الصناع الأجرة على صناعتهم، ولافرق عندنا بينه وبينهم، لأن الفارس قد يعمل له الحداد السيف فى المثل بدينار، ويأخذ هو من أجله فى كل شهرمائة دينار. فهو خادم لأداتنا وليس هو عامل بها، كما أن الحداد وإن كان يحسن صنعة السيف، إلا أنه ليس يحسن العمل به، فما للحداد وطلب الفروسية! كذلك هذا الناقل، ما له والكلام فى صناعة الطب، ولم يحكم فى عللها وأمراضها. وإنما قصده فى ذلك تشبهه بنا، ليقال إن " حنين بن إسحاق الطبيب" ولا يقال "حنين الناقل". والأجود له لوأنه لزم صناعته، وأمسك عن ذكر صناعتنا. لقد كان يكون أجدى عليه فيما كنا سنوصله إليه من أموالنا، ونحسن إليه ما أمكننا، وذلك يتم له بترك أخذ المجس، والنظر فى قوارير الماء ووصف الأدوية. ويقولون إن حنينا (ما يدخل) إلى موضع من دور الخاصة والعامة إلا يهزءون به، ويتضاحكون منه عند خروجه.

فكنت كلما سمعت شيئاً من هذا ضاق به صدرى، وهممت أن اقتل نفسى من الغيظ والزرد. وما كان لى إليهم سبيل، إذ كان الواحد لايستوى له مقاومة جماعة عند تضافرهم عليه.

لكنى كنت أضمر وأعلم أن حسدهم هو الذى (يدعوهم إلى) سائر الأشياء وإن كان لا يخفى عليهم قبحاً. فإن الحسد لم يزل بين الناس، كان فى الأرض" قابيل" فى قتله لأخيه "هابيل" لما لم يقبل الله قربانه وقبل قربان "هابيل". وما لم يزل قديماً فليس بعجيب أن أكون أنا أيضاً أحد من يؤذى بسببه. وقد يقال: كفى بالحاسد حسده.

ويقال ان الحاسد يقتل نفسه قبل عدوه، ولقد أكثرت العرب فى ذكر الحسد فى الشعر، ونظموا فيه الأبيات منها، كما قال بعضهم:

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد
أنا الذى يجدونى فى صدورهم لا أرتقى صعدا منها ولا أرد

وقد قال قائل هذا، وغيره فى مثل هذا أكثر مما يطول ذكره مع قلة الفائدة منه. وهذا أيضاً مع أن أكثرهم إذا داهمهم الأمر فى مرض صعب، فإلى يصير حتى يتحقق معرفته منى، ويأخذ عنى له وصفة دوانه وتدبيره، ويتبين الصلاح فيما أمر به أن يعمل، لا مرة ولا مراراً.

و هذا الذى يجيئنى ويقتدى برأى، هو أشد الناس عداوة وغيظاً على وأكثرهم لى ثلباً وليس أزيدهم على أن أحكم رب الكل بينى وبينهم. وإنما سكت عنهم لأنهم ليسوا هم واحداً ولا اثنين ولا ثلاثة، بل هم ستة وخمسون رجلا، جملتهم من أهل المذهب، محتاجون إلى وأنا غير محتاج إليهم. وأيضاً فإن أثرتهم مع كثرتهم قوية بخدمة الخلفاء، وهم أصحاب المملكة.

وإنما أنا أضعف عنهم من وجهين: أحدهما وحدتى، والثانية أن الذين يعنون بى من الناس محتاجون إلى الأصل الذى يعنى بإعدائى، الذى هو أمير المؤمنين، ومع هذا كله لا أشكو إلى أحد ما أنا عليه، ولو كان عظيماً بل أبوح بشكرهم فى المحافل وعند الرؤساء، فإن قيل لى انهم يثلبونك ينقصون بك فى مجالسهم، أدفع ذلك وأروى أنى غير مصدق لشئ مما يقال لى.

بل أقول: إنا نحن شئ واحد، تجمعنا الديانة والبلدة والصناعة، فما أصدق أن مثلهم يذكر أحداً من الناس، فضلا عنى بسوء. فإذا سمعوا عنى مثل هذا القول. قالوا: قد جزع وأعطى من نفسه الصمة. وكلما ثلبونى زدت فى الشكر لهم. وأنا الآن ذاكرها هنا، آخر الآبار التى حفروها لى سوى ما كان لى معهم قديماً، خاصة مع بنى موسى، والجالينوسيين، والبقراطيين فى أمر النهب الأول، وهذه قصة المحنة الأخيرة القريبة.

وهو: أن"بختيشوع بن جبريل" المتطبب عمل على حيلة تمت له على، وأمكنته منى إرادته فى ذلك أنه استعمل أيقونة عليها صورة السيدة "مريم" وفى حجرها سيدنا المسيح والملائكة قد احتاطوا بها، وعملها فى غاية ما يكون من الحسن وصحة الصورة، بعد أن غرم عليها من المال شيئا كثيرا ثم حملها إلى أمير المؤمنين المتوكل، وكان هو المستقبل لها من يد الخادم الحامل لها، وهو الذى وضعها بين يدى المتوكل. فاستحسنها المتوكل جداً وجعل" بختيشوع" يقبلها بين يديه مراراً كثيرة.

فقال له المتوكل: لم تقبلها؟ فقال له: يا مولانا إذا لم أقبل صورة سيدة نساء العالمين فمن أقبل؟ فقال له المتوكل: وكل النصارى هكذا يفعلون؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وأفضل منى لأنى إن قصرت حيث أنا بين يديك ومع تفضيلنا معشر النصارى فإنى أعرف رجلاً فى خدمتك، وأفضالك وأرزاقك جارية عليه، من النصارى يتهاون بها ويبصق عليها، وهو زنديق ملحد، لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة، يستتر بالنصرانية، وهو معطل مكذب بالرسل.

فقال له المتوكل: من هذا الذى هذه صفته؟

فقال له: حنين المترجم. فقال له المتوكل: أوجه أحضره، فإن كان الأمر على ما وصفت، نكلت به وجلدته (فى سجن) المطبق، مع ما أتقدم به من التضييق عليه وتجديد العذاب.

فقال: أنا أحب أن يؤخره مولاى أمير المؤمنين إلى أن أخرج وأقيم ساعة، ثم تأمر بإحضاره.

فقال: إنى أفعل ذلك، فخرج بختيشوع من الدار وجاءنى، فقال: يا أبا زيد أعزك الله، ينبغى أن تعلم أنه قد أهدى إلى أمير المؤمنين أيقونة قد عظم عجبه بها وأحسبها من صور الشام. وقد استحسنها جداً وإن نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه، (تولع بنا وبها) فى كل وقت وقال: "هذا ربكم وأمه مصورين".

وقد قال أمير المؤمنين: انظر إلى هذه الصورة ما أحسنها، وايش تقول فيها؟ فقلت له: صورة مثلها يكون فى الحمامات وفى مواضع البيع، وفى المواضع المصورة، وهذا مما لا يبالى به ولا يلتفت إليه. فقال: أوليس هى عندك شئ ؟ قلت: لا! قال: فإن تكن صادقاً فأبصق عليها، فبصقت، وخرجت من عنده وهو يضحك ويعطعط بى، وإنما فعلت ذلك ليرمى بها، ولا يكثر الولع (بنا بسببها) و يعيرنا دائما ولا سيما أن حرد أحد من ذلك فإن الولع يكون أزيد.

والصواب إن دعا بك وسألك عن مثل ما سألنى أن تفعل كما فعلت أنا، فإنى قدعملت على لقاء سائر من يدخل إليه من أصحابنا وأتقدم إليه أن يفعلوا مثل ذلك الفعل.

فقبلت ما أوصانى به، وجازت علي سخريته، وانصرف، فما كان إلا ساعة حتى جاءنى رسول أمير المؤمنين فأخذنى إليه. فلما دخلت عليه إذ الأيقونة موضوعه بين يديه، فقال: يا حنين أما ترى ما أحسن هذه الصورة وأعجبها.

فقلت والله إنها لكما ذكر أمير المؤمنين. فقال: فإيش تقول فيها؟ فقلت: مثلها مصور فى الحمامات وفى الكنائس وفى سائر المواضع المصورة.

فقال :أوليس هى صورة ربكم وأمه ؟ فقلت: معاذ الله يا أمير المؤمنين! أن يكون الله تبارك وتعالى، بصورة أو يصور ولكن هذا مثال فى سائر المواضع التى فيها الصور.

فقال: فهذه إذن لا تنفع ولا تضر فقلت: هو كذلك يا أمير المؤمنين. فقال: فإن كان الأمر على ما ذكرت فابصق عليها، فبصقت عليها.

فللوقت أمر بحبسى، ووجه إلى ثوذسيس الجاثليق، فأحضره فلما دخل عليه ورأى الأيقونة موضوعة بين"يديه وقع عليها قبل أن يدعو له، فاعتنقها ولم يزل يقبلها ويبكى طويلا، فذهب الخدم ليمنعوه فأمر بتركه. فلما قبلها طويلا على تلك الحالة أخذها بيديه وقام قائما ودعا لأميرا لمؤمنين وأطنب فى دعائه، فرد عليه وأمره بالجلوس فجلس وترك الأيقونة فى حجره.

فقال له المتوكل: أى فعل هذا؟ تأخذ شيئاً كان بين يدى، وتتركه فى حجرك من غير إذنى؟ فقال الجاثليق: نعم يا أمير المؤمنين، أنا أحق بهذه التى بين يديك، وإن كان لأمير المؤمنين، أطال الله بقاءه أفضل الحقوق، غير أن ديانتى لم تدعنى أن أدع صورة ساداتى مرمية على الأرض وفى موضع لا يعرف مقدارها، بل لعله أن يعرف لها قدر لأن هذه حقها أن تكون فى موضع يعرف فيه حقها ويسرج بين يديها من أطيب البخور فى أكثر الأوقات أفضل الأدهان من حيث لا تطفأ قناديلها مع ما يبخر بين يديها من أطايب البخور.

فقال أمير المؤمنين: فدعها فى حجرك الأن. فقال الجاثليق: إنى أسأل مولاى أمير المؤمنين أن يجود بها على ويعمل على أن يقطعنى ما مقدار قيمته مائة ألف دينار كل سنة حتى أقضى من حقها ما يجب على، ثم يسألنى أمير المؤمنين ما أحب بعد ذلك أن أعرف فيما أرسل بسببه.

فقال له: قد وهبتها لك, وأنا أريد أن تعرفنى ما جزاء من بصق عليها عندك ؟ فقال الجاثليق: إن كان مسلماً فلا شئ عليه، لانه لا يعرف مقدارها، لكن يعرف ذلك ويوبخ ويلام على مقدار ما فعل حتى لا يعود إلى مثل ذلك مرة أخرى. وإن كان نصرانياً، وكان جاهلا لا يفهم، ولا معرفة عنده، فيلام ويزجر بين الناس، ويتهدد بالحرم العظيمة ويعزل حتى يتوب.

وبالجملة إن هذا فعل لا يقدم عليه إلا جاهل لا يعرف مقدار الديانة فإن كان عاقلا وقد بصق عليها فقد بصق على سيدتنا مريم أم سيدنا وعلى سيدنا المسيح.

فقال له أمير المؤمنين فما الذى يجب على من فعل ذلك عندك؟ فقال: أما عندى يا أمير المؤمنين، إذ كنت لا سلطان لى، أن أعاقبه بسوط أوبعصا، ولا لى حبس ضنك بل أحرمه وأمنعه من الدخول إلى البيع ومن القربان، وأمنع النصارى من ملامسته وكلامه وأضيق عليه ولا يزال مرفوضا عندنا إلى أن يتوب ويقلع عما كان عليه، وينتقل ويتصدق ببعض ماله على الفقراء والمساكين، مع لزوم الصلاة والصوم. فحينئذ نرجع إلى ما قال كتابنا وهو: إن لم تعفوا للخاطئين لم تغفر لكم خطاياكم فيحل جرم الجانى ونرجع إلى ما كناعليه.

ثم إن أميرالمؤمنين أمر الجاثليق بأن يأخذ الأيقونة وقـــال له: أفعل بها ما تريد وأمر له معها ببدرة دراهم وقال له: انفق ما تأخذه على قونيتك.

فلما خرج الجاثليق لبث قليلا يتعجب منه ومن محبته لمعبوده وتعظيمه إياه ثم قال: إن هذا الأمرعجيب. فأمر بإحضارى، فأحضرت إليه وأحضر السوط والحبال وأمر بى، فشددت مجرداً بين يديه وضربت مائة سوط وأمر باعتقالى والتضييق على، ووجه فحمل جميع ما كان لى من أحمال وأثاث وكتب وما شاكل ذلك وأمر بنقض منزلى إلى الماء.

و أقمت فى داخل داره معتقلا ستة أشهر فى أسوأ ما يكون من الحال، حتى صرت رحمة لمن رآنى وكان أيضا فى كل يوم يسيرمن الأيام يوجه إلى من يضربنى ويجدد العذاب.

فلم أزل على ما شرحته إلى أن أعتل أمير المؤمنين وذلك فى اليوم الخامس من الشهر الرابع من يوم حبسى. وكانت علته صعبة جداً فأقعد ولم يمكنه الحركة وأيس منه وأيس هو أيضا من نفسه. ومع ذلك فإن أعدائى الأطباء عنده ليلا ونهارا ولا يزايلونه ساعة واحدة وهم يعالجونه ويداونه ويسألونه فى كل وقت فى أمرى. ويقولون له لو أراحنا مولانا أمير المؤمنين من ذلك الزنديق الملحد لانكشف عن الدين منه محنة عظيمة.

فلما طالت مساءلتهم له فى أمرى وكثر ذكرهم لى بين يديه بكل سوء قال لهم: فما الذى يسركم أن أفعل به؟ قالوا له: تريح العالم منه.

و كان مع ذلك كل من سأل فى أمرى، وتشفع فى من أصدقائى يقول" بختيشوع: يا أمير المؤمنين هذا بعض تلاميذه وهو يعتقد اعتقاده، فيقل المعين لى، ويكثر المحوك على، فأيست من الحياة. فقال لهم أمير المؤمنين وقد ألحوا عليه فى السؤال: فإنى أقتله فى غد يومنا هذا وأريحكم منه،

فسر بذلك الجماعة وأنصرفوا على ما يحبون. فجاءنى بعض الخدم، وقال لى: إنه جرى فى أمرك العشية كذا وكذا.

فسألت الله عز وجل، التفضل بما لم تزل أياديه إلى بأمثاله مع ما أنا فيه من كثرة الاهتمام وشغل القلب مما أخاف نزوله بى فى غد بغير جرم أستوجبه، ولا جناية جنيتها بل بحيلة من أحتال على و طاعتى لمن اغتالنى وقلت: اللهم إنك عالم ببراءتى، فأنت أولى بنصرتى، وطال بى الفكر إلى أن حملنى النوم، فإذا بهاتف يحركنى، ويقول لى قم فاحمد الله وأثن عليه، فقد خلصك من أيدى أعدائك و جعل عافية أمير المؤمنين على يديك، فطب نفساً، فانتبهت مرعوبا، ثم قلت: كلما كثر ذكره فى اليقظة لم تنكر رؤيته عند النوم.

فلم أزل أحمد الله وأثنى عليه، إلى أن جاء وجه الصبح، فجاءنى الخادم ففتح على الباب ولم يكن وقته الذى كان يجيئنى فيه، فقلت: هذا وقت مبكر، جاءنى ما وعدت به البارحة. وقد جاء وقت رضاء أعدائى وشماتتهم بى، واستعنت بالله، فما جلس الخادم الا هنيهة، إذ جاء غلامه ومعه مزين ثم قال تقدم يا مبارك ليؤخذ من شعرك.

فتقدمت فأخذ من شعرى، ثم أمر بى إلى الحمام فأمر بغسلى وتنظيفى والقيام على بالطيب كما أمره مولاى أمير المؤمنين. ثم خرج من الحمام فطرح على ثيابا فاخرة وردنى إلى مقصورته إلى أن حضر سائر الأطباء عند أمير المؤمنين، وأخذ كل واحد منهم موضعه.

فدعانى أمير المؤمنين، وقال: هاتوا حنينا. فلم تشك الجماعة أنه إنما دعانى لقتلى. فأدخلت إليه فنظر إلى ولم يزل يدنيننى إلى أن اجلسنى بين يديه، وقال لى: قد غفرت لك ذنبك وأجبت السائل فيك، فاحمد الله على حياتك وخذ مجسى وشرعلى بما ترى، فقد طالت علتى.

فأخذت مجسه وأشرت بأخذ خيار شنبر منقى من قصبه وترنجبين لأنه شكا اعتقالا مع ما كان توجبه الصورة من استعمال هذا الدواء.

فقال الأطباء الأعداء: نعوذ بالله يا أمير المؤمنين من استعمال هذا الدواء، إذ كان له غائلة ردية، فقال: امسكوا فقد أمرت أن آخذ ما يصفه لى. ثم أمر بإصلاحه فأصلح وأخذه لوقته.

ثم قال لى: يا حنين اجعلنى فى كل ما فعلته بك فى حل فشفيعك إلى قوى. فقلت له: مولاى أمير المؤمنين فى حل من دمى، فكيف وقد من على بالحياة.

ثم قال: تسمع الجماعة ما أقوله. فانصتوا إليه فقال: اعلموا أنكم انصرفتم البارحة مساء على (أنى أبكر أقتل) حنينا كما ضمنت لكم.

فلم أزل أقلق إلى نصف الليل متوجعا، فلما كان ذلك الوقت، غفوت، فرأيت كأنى جالس فى موضع ضيق وأنتم معشر الأطباء بعيدون عنى بعداً كثيراً مع سائر خدمى وحاشيتى وأنا أقول لكم: ويحكم، ما تنظرون إلى فى أى موضع أنا، أهذا يصلح لمثلى، وأنتم سكوت لا تجيبوننى عما أخاطبكم به فإذا أنا كذلك حتى أشرف على فى ذلك الموضع ضياء عظيم مهول حتى رعبت منه وإذ أنا برجل قد وافانى وهو جميل الوجه ومعه أخر خلفه، عليه ثياب حسنة.

فقال لى : السلام عليك فرددت السلام، فقال لى: تعرفنى ؟ فقلت لا فقال: أنا المسيح. فتقلقلت وتزعزعت وقلت: من هذا الذى معك؟ فقال: " حنين بن إسحاق " فقلت أعذرنى ، فلست أقدر ان أقوم لأصافحك فقال: اعف عن " حنين " واغفر ذنبه، فقد غفر الله له وأقبل ما يشير به عليك فإنك تبرأ من علتك.

فانتبهت وأنا مغموم مما جرى على "حنين" منى، ومفكر فى قوة شفيعه إلى وأن حقه الآن على واجب، فانصرفوا ليلزمنى كما أمرت وليحمل إلى كل واحد منكم عشرة آلاف درهم لتكون دية من سأل فى قتله. وهذا المال يلزم من حضر المجلس البارحة وسأل فى قتله ومن لم يكن حاضرا فلا شئ عليه ومن لم يحمل ما أمرت بحمله من هذا المال لأضربن عنقه.

ثم قال لى: اجلس والزم رتبتك وخرجت الجماعة، فحمل كل أحد منهم عشرة آلاف درهم فلما اجتمع سائر ما حملوا أمر بأن يضاف إليه مثل من خزانته وكان زائد عن مائتى ألف درهم وأن يسلم إلى فلما كان أخر النهار وقد أقامه الدواء ثلاثة مجالس أحس بصلاح وخف ما كان يجد.

قال: يا حنين أبشر بكل ما تحب فقد عظمت رتبتك عندى وزادت طبقتك أضعاف ما (كنت عليه) فسأعوضك أضعاف ما كان لك وأحوج أعدائك إليك وأرفعك على سائر أهل صناعتك.

ثم أمر بإصلاح ثلاث دور من دوره التى لم اسكن قط منذ نشأت فى مثلها، و لا رأيت لأحد من أهل صناعتى مثلها وحمل إلى سائر ما كنت إليه محتاجا من الأوانى والفرش والكنب والآلات وما يشاكل ذلك، بعد أن أشهد لى بالدور، و توثق لى بشهادات العدو لأنها كانت خطيرة فى قيمتها ، لأنها تقوم بألوف الدنانير ، فلمحبته لى وميله إلى أحب أن تكون لى ولعقبى ، ولا تكون على حجة لمعترض .

فلما فرغ مما أمر به من الحمل إلى الدور وجميع ما ذكر وتعليقها بأنواع الستور ولم يبق غير المضى إليها، أمر بحمل المال الضعف الكثير بين يدى وحملنى على خمسة رؤوس من خيار بغاله الخاصة بمواكبها ووهب لى ثلاثة خدم وأمر لى فى كل شهر بخمسة عشر ألف درهم وأطلق لى الفائت من رزقى وفى وقت حبسى فكان شيئاً كثيراً.

وحمل من جهة الخدم والحرم وسائر الحاشية والأهل ما لم يكن أن يحصى من الأموال والخلع والإقطاع وحصلت وظائفى التى كنت خارج الدار من سائر الناس آخذها من داخل الدار وصرت المقدم على سائر الأطباء من أعوانى وغيرهم وهذا تم لى لما لحقنى من السعادة التامة.
و هذا ما جرى بعد عداوة الأشرار كما قال" جالينوس": " إن الأخيار من الناس قد ينتفعون بأعدائهم الأشرار". .

ولعمرى فقد لحق" جالينوس" محنة عظيمة، إلا أنها لم تكن إلى ما بلغت بى أنا هذه المحن. وإنى لأعلم مراراً كثيرة أن أول من كان يغدو إلى باب دارى فى حاجة تكون له إلى أمير المؤمنين وأن يسألنى عن مرض قد حار فيه أحد أعدائى الذين قد عرفت ما لحقنى منهم وكنت وحق معبودى العلة الأولى أسارع فى قضاء حوائجهم وأخلص لهم المودة ولم أكافئهم على شئ مما صنعوا لى ولا واحد منهم وأخذته بذلك.

فكان سائر الناس يتعجبون من حسن قضائى حوائجهم بعدما كانوا يسمعونهم يقولون فى عند الناس وخاصة عند مولانا أمير المؤمنين وصرت أنقل لهم الكتب على الرسم بغير عوض ولا جزاء وأسارع إلى جميع مجابهم، بعد أن كنت إذا نقلت لأحدهم كتاباً أخذت منه وزنه دراهم."

هذا هو النص الأصلى الذى كتبه حنين بن اسحق عن محنته.

والظاهر أن حنيناً كان من أنصار الحركة التى اتسع نطاقها فى ذلك الوقت ونعنى بها حركة مانعى الإكرام للصور. ولم يكن حنين ليتألم لشئ مما استصفاه الخليفة من متاعه وممتلكاته تألمه لفقدانه كتبه وحرمانه منها. كما يتجلى فى رسالة صغيرة أخرى بعث بها إلى على بن يحيى عما ترجمه من كتب جالينوس بعلمه وما لم يترجم قال فيها:" بسبب فقدى جميع كتبى التى جمعتها كتاباً كتاباً، فى دهرى كله منذ أقبلت أفهم، من جميع ما جلته من البلدان ثم فقدتها كلها جملة .... "

وفى سنة (244هـ) افتضح أمر بختيشوع عند الخليفة فنكبه ونفاه إلى البحرين (على الخليج الفارسى) ومنذ ذلك الوقت لم ينزعج بال حنين ولم يعكر صفو حياته حادث مكدر فأقبل على الترجمة بحمية وغيرة تدعو إلى الدهشة، وعكف عليها حتى وفاته. وقد عاونه فى مهمته تلك ولده اسحق بن حنين وابن أخته حبيش ورهط من التلاميذ نذكر منهم عيس بن يحيى بن ابراهيم وموسى بن خالد وأبا عثمان سعيد وعيسى بن على . لكن أحدا من تلاميذ حنين الذين دربهم فى بيت الحكمة لم يصل إلى مثل مهارة أستاذه. يؤيد ذلك ما رواه ابن أبى أصيبعة عن موسى بن خالد الترجمان: " وجدت من نقله كتبا كثيرة من الستة عشر لجالينوس وغيرها. وكان لا يصل إلى درجة حنين أو يقرب منها ".

عاش حنين عشرين عاما بعد نكبته الأخيرة مبجلا من الخلفاء: المنتصر بالله (توفى عام 248 هـ) و المستعين بالله (توفى عام251 هـ) و المعتز بالله (توفى عام 255هـ) و المهتدى بالله (توفى عام 256 هـ) و المعتمد على الله (256 – 279 هـ) ، و توفى خلال خلافة الأخير كما جاء فى (الفهرست) سنة 260 هـ . و لكن الأرجح هو أنه قضى نحبه لست خلون من صفر سنة 264 هـ كما جاء فى كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة) وكانت مدة حياته سبعين سنة وقيل انه مات بالذرب. وقيل أن حنينا بدأ ترجمة كتاب" فى قوام الصناعات " لجالينوس قبيل وفاته بشهرين لكنه لم يتمه.

ومما يؤسف له أننا لا نعلم الشئ الكثير عن طريقة العمل التى اتبعها هذا العلامة الدؤوب فى حياته العلمية. ولم يكتب ابن خلكان فى كتابه (وفيات الأعيان) الذى ألفه فى سنة (654هـ) عن أسلوب حنين فى حياته اليومية سوى النبذة الآتية التى نقلها عن رسالة مفقودة من تصنيف عبيد الله بن جبرائيل ابن بختيشوع (توفى عام 450 هـ) وهى : " كان حنين فى كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام فيصب عليه الماء، و يخرج فيلتف فى قطيفة و يشرب قدح شراب ويأكل كعكة ويتكئ حتى ينشف عرقه وربما نام ثم يقوم ويتبخر ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسمن قد طبخ زيرباجا ورغيف وزنه مائتا درهم. فيحسو من المرقة ويأكل الفروج والخبز وينام. فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شرابا عتيقا. فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامى والسفرجل وكان ذلك دأبه إلى أن مات.

المراجع:

1-ابن أبى أصيبعة – عيون الأنباء فى طبقات الأطباء

شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا

دار مكتبة الحياة –بيروت 1965(ص 255)

2- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء.

تحقيق ودراسة الدكتور عامر النجار

الهيئة العامة للكتاب 2001 (ج2ص140)

الفصل السادس

6- حنين والسلطة العباسية

قد يسهل علينا إلقاء تبعة هذا الظلم علي خصوم حنين من الأطباء المسيحيين الذين يكيدون له، و لكن كيف نفهم موقف الخليفة. لقد اختبر حنين في المرة الأولي حين طلب منه أن يصنع له سما فتاكا يقتل به أعداءه، ورفض حنين رغم تعذيبه ووضعه في السجن لمدة عام، وأصر علي موقفه حتي إذا اقتضي الأمر أن يضحي بحياته ...وأكد للخليفة أنه يرفض صنع السم لإيمانه بدينه الذي يفرض عليه أن يساعد الناس ويعمل لمصلحتهم وأنه يرفض هذا أيضا تمسكا بأخلاقيات مهنته كطبيب مهمته معالجة المرضى وتخفيف آلامهم ...وأظهر الخليفة المتوكل اقتناعه بهذا الموقف وكافأه عليه. فكيف ينقلب عليه لمجرد وشاية من أطباء ينافسونه؟ كيف ينقلب حظ الإنسان بين ليلة وضحاها في ظل هذه النظم الاستبدادية؟

لقد فكرت طويلا في تفسير مقنع لتقلبات الخليفة حتي اهتديت إلى بحث الدكتور فاروق عمر فوزي الأستاذ بكلية الآداب جامعة بغداد، الذى قدم فى مهرجان "أفرام وحنين"فى بغداد1974، وعنوانه:

حنين بن اسحق والسلطة العباسية

يقول الدكتور فاروق:

اما الموقف الرسمي للخلفاء فكان اجتماعياً متشددا وأحيانا معاديا لأهل الذمة. إذ صدرت بعض المراسيم بتميزهم إجتماعيًا وحرمانهم من الوظائف المهمة في الحكم. كما استعمل الولاة أو عمال الخراج أساليب تعسفية في جباية الجزية أحيانا وصدرت أوامر من بعض الخلفاء بمنع تشييد الكنائس أو أى بيع جديدة.

لكن هذا الموقف الرسمي ليس له ما يؤيده في تعاليم الإسلام السمحاء، ولذلك يمكن اعتباره مناورة تحتمها ظروف الخلافة وطبيعة المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط وسلاح سياسي بيد

الخليفة في أوقات يختارها هو ليكسب بذلك تأييد بعض الفقهاء ورجال الدين ذوي النفوذ في المجتمع والتأثير الكبير علي جماهير المسلمين والذين لا يرتضون بتسلط ذمي عليهم أو احتلاله منصبا مهما في الإدارة أو البلاط العباسي".

أما الحالة الواقعية التي عاشها ووصل إليها أهل الذمة في المجتمع العربي الإسلامي فتتناسب عكسيا مع الموقف الرسمي للسلطة، ذلك لأن تعقد المجتمع وتطوره واحتياجه إلى مهارات وكفاءات متنوعة دعا السلطة العباسية إلى تقييم الفرد وقابليته واستخدامه في مناصب إدارية ومالية وتجارية ومهنية دون تميز بين ذمي ومسلم. وتقبل المجتمع الإسلامي ذلك واعترف به بل إن بعض الفقهاء وقفوا موقفا يؤيد استخدام الذميين بل ويجيز أن يكون وزير التنفيذ من الذميين، ولم يكن تخريج الفقهاء فى الواقع فتوى جديدة أو بدعة مستحدثة بل اعترافا بأمر واقع فعلا.

وقد أحسن الخليفة المأمون (814/198--833/218) استغلال قابليات حنين فعينه مترجما، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية وإصلاح ما ينقله غيره، وهكذا بدأ حنين يترجم للبلاط العباسي ولما يبلغ العشرين من عمره.

لقد كان عهد المأمون من أحسن فترات النشاط العلمي في الدولة العباسية. فقد ابدي الخليفة اهتماما كبيرا في جلب الكتب من مختلف أصناف المعرفة وترجمتها إلى العربية. كما وأن المذهب الرسمي الذي تبناه الخليفة كان مذهب المعتزلة وهو مذهب، بالرغم من سلبيته المتمثلة بالمحنة، يؤمن بحرية الرأي وحرية الإرادة والنزعة العقلية. ويبدو أن هذا الجو الفكري شجع حنين علي العمل الجدي المستمر سواء كان ترجمة أو إنتاجا. إلا أن عهد المأمون لم يدم طويلا وجاء بعده المعتصم ثم الواثق وفي عهدهما اشتدت الإجراءات التعسفية ضد المخالفين لمذهب المعتزلة، وعذب الكثير منهم فكان لذلك ردود فعل عنيفة فاضطربت الأحوال وانشغلت السلطة عن العلم والثقافة بقمع الاضطرابات الداخلية التي أحدثتها المحنة، وتزايد نفوذ الجند الأتراك في العاصمة. هذا إضافة إلى أن المعتصم كان رجلا عسكريا من الطراز الأول فلم تكن لديه اهتمامات علمية أو ثقافية، ورغم إبقائه علي سياسة اخيه المأمون الاعتزالية فاننا نستبعد انه كان يدرك أبعاد وأهمية هذه السياسة.

ويؤكد الكاتب على ان هذه الاضطرابات والقلاقل قد أثرت في مسيرة حنين، ويبدو انه انسحب بهدوء إلى داره واعتزل البلاط فلم يعد يختلط برجال السلطة كما كان يفعل في عهد المأمون. ولكنه استمر يترجم ويؤلف بمبادرة شخصية منه دون طلب من البلاط أو السلطة.

انعطاف مهم في سيرة حنين:

يشير الكاتب الى ماتعرض له حنين من محن في عهد الخليفة المتوكل (232/847-247/861) الذي وصف بأنه كان متقلب المزاج يتبع الهوى ، ويظهر أن هذا التقلب قد اثر علي نشاط حنين العلمي وعكر صفو حياته الهادئة. ومن ثم يبدأ الكاتب فى الكشف عن دوافع المتوكل بشرح الظروف السياسية المحيطة به فيقول:

وصل المتوكل إلى الخلافة بترشيح ومساندة بعض القادة الأتراك في الجيش العباسي، بعد منافسة قوية بين هؤلاء القادة العسكريين وبين البيروقراطية المدنية، التي تضم كبار كتاب الدواوين في الدولة وتزعمها الوزير ابن الزيات.

و يعتبر عهد المتوكل انبعاثا لمذهب "أهل السنة والجماعة" ففي سنة 234هـ/848م أصدر المتوكل مرسوما أعلن فيه إنهاء المحنة، وفرض حظرا علي المناقشة حول طبيعة القرآن. كما أصدر منشورا أخر سنة 235/849 يدعو فيه إلى " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ويهاجم المعتزلة وفرقا أخرى، وأخذ فى تشجيع الكتاب واصحاب القلم علي الكتابة والدعاية لمذهب الدولة الرسمي، فقد كتب علي بن ربان الطبري كتابه الموسوم (الدين والدولة) وهدفه نشر فضائل الإسلام والرد علي أعدائه، كما كتب الجاحظ رسالة في (الرد علي النصارى) مبرزا ميزات الإسلام متوددا إلى أهل السنة داحضا دعايات النصارى المرتبطين بالدولة البيزنطية.

والمعروف أن فئة من هؤلاء الفقهاء كانت تنادي بالتشدد في استخدام الذميين في الوظائف وتحديد نشاطهم في مجالات الحياة المختلفة، خاصة وان قسما منهم نشط في نقل التراث اليوناني من الفلسفة والمنطق الأمر الذي اعتبره الفقهاء مبعثا للجدل والتشكيك في العقيدة.

لقد استمر حنين بن اسحق في السنوات الأولي من عهد المتوكل علي مرتبته السابقة، مؤتمنا ومقربا للبلاط العباسي، وطبيبا للخليفة ورئيسا للمترجمين. يقول ابن جلجل وابن ابي اصيبعة: "وخدم بالطب المتوكل وحظي في أيامه".

ولكن الخليفة المتوكل لم يلبث ان غير وبدل من علاقته بحنين بن اسحق. وفي ذلك يذكر المؤرخون روايات نجملها كالآتي:

ا- امتحان الخليفة المتوكل لحنين بن اسحق حين أمره بإعداد دواء سام:

ولعل حنين ادرك شكوك الخليفة فاعتذر قائلا:

"ما تعلمت غير الأدوية النافعة" وقد ضغط عليه الخليفة وسجنه ولكنه ما لبث ان عفى عنه وأعاده إلي مرتبته وعمله السابقين.

ب- يؤكد ابن جلجل وابن الداية والقفطي وابي اصيبعة رواية الأيقونة مع اختلاف في الأسماء والتفاصيل. فيذكر ابن جلجل والقفطي أن صديقه وزميله في العمل والاختصاص الطيفوري كان يحسد حنين لتقدمه عليه في مرتبة العلم، فأخرج له كتابا فيه صورة السيد المسيح مصلوبا من حوله صور ناس فقال له: أهؤلاء صلبوا المسيح؟ قال نعم، وطلب منه ان يبصق عليهم فامتنع مبررا ذلك انهم صور وليسوا أناسا حقيقيين. وقد رفع الطيفوري الأمر الي المتوكل فطلب منه ان يحيل الحكم الي الجائليق والأساقفة فحوكم حنين ولعن وحرم. ويذكر ابن ابي اصيبعة الحادثة نفسها لكنه ينسبها الى بختيشوع بن جبرائيل.

أما ابن العبري فيذكر ان الصورة كانت للمسيح وتلاميذه، وان حنين شاهدها وكانت الشموع تشتعل علي جوانب الصورة، قال لصاحبها لم تضيع الزيت؟ فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ انما هي صور، وعندئذ طلب منه الطيفوري ان يبصق عليهم فبصق. وبسبب ذلك أحاله المتوكل إلي الجاثليق والأساقفة فأوجبوا حرمانه وقطع زناره. وتتفق بعض الروايات في شخصية الرجل الذي أوصل الخبر الي الخليفة الا وهو الطيفوري إلا ان ابن ابي اصيبعة يقول انه بختيشوع بن جبرائيل.

ج-اتهام حنين بن اسحق بالزندقة:

يشير ابن ابي اصيبعة بعد ان يسرد نفس الحادثة التي ذكرناها في الفقرة (ب) ان التهمة التي وجهها بختيشوع بن جبرائيل الي حنين كانت الزندقة والإلحاد، حيث ذكر للمتوكل بان حنين لا يحترم السيدة مريم والسيد المسيح وهو زنديق ملحد، لا يقر ولا يعترف بالوحدانية، ولا يعرف آخرة، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل.

والمعروف عن المتوكل تشدده تجاه أهل الذمة وشكه في ميل فئة منهم إلي أعدائه البيزنطيين. ولما كان حنين ابن اسحق نصرانيا عرف عنه تجواله في بلا د الروم، ومكوثه هناك مدة تقرب من السنتين ...فان ذلك لابد ان يثير شكوك الخليفة في أن السلطة البيزنطية ربما نجحت في استخدام حنين عينا لها علي تحركات العباسيين وسياستهم، وربما استخدمته وسيلة لقتل الخليفة العباسي نفسه.

أما الفقرة (ب) وهي التي تتعلق بالأيقونة فإنها تثير أكثر من تساؤل بسبب ارتباك الروايات حولها، رغم اتفاقها في الخطوط العريضة للحادثة. والرواة يختلفون في ثلاث أمور رئيسية هي:
من هي الشخصيات التي شاهدها حنين مرسومة علي الأيقونة او الصورة؟ هل هى صورة العذراء ام المسيح والحواريين أم صورة المسيح وحوله اليهود؟

وهل بصق حنين علي الصورة ام أبدي معارضته للصورة والأيقونة؟ وهل ناقل الخبر الي الخليفة المتوكل هو الطيفوري الطبيب أم بختيشوع بن جبرائيل؟ وعلى ذلك يجيب د. فاروق فوزى:

أما موقف الخليفة من الاتهامات التي وجهت لحنين فيظهر انه لم يكن مهتما أو مدركا تماما للمشادة العنيفة بين الحركة الأيقونية واللاأيقونية...علي ان الجاثليق صور له حنين وكأنه شخص لا يحترم العذراء والمسيح، وبالتالي لا يؤمن بعقيدته المسيحية. ولذلك فان الخليفة اعتبر حنينا شخصا مارقا خرج علي دينه.

وفيما يتعلق بشخصية الواشي فالأعم الأغلب أنه الطيفوري (إسرائيل بن ذكريا) الطبيب وعالم المنطق، الذي كان معاصراً لحنين بن اسحق ومقرباً للبلاط العباسي كذلك، او بختيشوع بن جبرائيل من آل بختيشوع.

اما الرواية في القفرة (ج) فهي في نظرنا، اقرب الي الصحة في مغزاها. اما التهمة فهي الزندقة والإلحاد وعدم الإقرار بالوحدانية وعدم احترام المسيح والعذراء. وهذه التهمة بالإضافة الي أن لها ما يؤيدها في الفقرة (ب) فإنها تؤكد لا علي حادثة الأيقونة، بل علي تهم جديدة تصف حنين

بالشرك وعدم الإيمان بالوحدانية وبدينه المسيحي. وهذه التهمة اكثر وقعا واكثر قبولا لدي المتوكل ولدي السلطة العباسية.

الأسباب الحقيقية وراء محنة حنين (اعادة تقييم)

يعيد الدكتور فاروق عمر فوزى تقييمه لهذه القضية على النحو التالى:

لقد عاش حنين بن اسحق في فترة تقلبت فيها الأحوال السياسية واختلفت الأراء والمذاهب. فقد كان عهد المتوكل العباسي منعطفا حادا في تاريخ العباسيين، يمكن اعتباره فترة انتقال من عصر القوة الى عصر الوهن والضعف. ان المتمعن في حراجة موقف الخليفة السياسي تجاه المعارضة الداخلية المتمثلة بالمعتزلة والأتراك والعلويين، يدرك مدي حاجته الى سند قوي يتمثل بالفقهاء ورجال الدين ومن ورائهم جمهور العامة. ولذلك فإن اجراءات المتوكل تجاه حنين بن اسحق خاصة والذميين عامة كان لها هدف سياسي واضح.

علي ان من دواعي استغراب الباحث في سيرة حنين بن اسحق، ان يلاحظ بان هذا الرجل قد اشتهر وعرف في مجال الطب والترجمة، مع ان دراساته وترجماته في ميدان الفلسفة والمنطق لا تقل أهمية عن الميدانين السابقين. فقد الف حنين في الدراسات الفلسفية والمنطقية والدراسات النحوية التاريخية حيث ينسب اليه كتاب في تاريخ العالم من آدم الي العصر الذي عاش فيه. لقد كان حنين فيلسوفا ومنطقيا من الطراز الأول. يقول ابن جلجل:

"وله كتاب في صناعة المنطق لم يسبقه إلي مثله غيره لحسن تقسيمه وبراعة نظامه، وله تواليف عدة لولا التطويل أتيت بأ سمائها"

ويمتدح ابن ابي أصيبعة ما ألفه حنين فيقول " وله تواليف مثقفة بارعة" ويذكر منها

1- كتاب في كيفية ادراك الديانة.

2- كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء.

3- كتاب في المنطق.

4- رسالة في دلالة القدر علي التوحيد.

5- مقالة في خلق الإنسان.

6- كتاب فيما يقرا قبل كتب افلاطون.

7- كتاب في تاريخ العالم والمبدأ والأنباء والملوك والأمم والخلفاء في الإسلام.

8- رسالة فيما أصابه من المحن والشدائد.

9- كتاب الي علي بي يحيي جواب كتابه فيما دعاه إليه من دين الاسلام.

10- جوامع تفسير القدماء اليونانيين لكتاب ارسطوطاليس في السماء والعالم.

11- جوامع الست مقالات الباقية من كتاب السياسة.

12- شرح كتاب الفراسة لأرسطوطاليس.

أما كتابه الموسوم (ادراك حقيقة الديانة) وهي رسالة جدلية يمكن أن يفهم منها، كما يشير الأستاذ شتروهماير مناظرة وحوار حول الدين الاسلامي. ونختتم مناقشة هذا البحث بقول الدكتور عمر فوزى:

"وفي اعتقادي ان السبب الرئيسي وراء محنة حنين بن اسحق في عهد المتوكل هوما عرضه من آراء في الفلسفة والمنطق والدين. فقد منع هذا الخليفة الكلام في الفلسفة والمنطق، ولذلك كان لابد ان يضيق علي الفلاسفة وعلماء المنطق ومنهم حنين بن اسحق الذي أعتبر خطرا علي المجتمع، من وجهة نظر السلطة العباسية، بما يبثه من أفكار فلسفية تدعو الي التشكيك في العقيدة. هذا بالاضافة الي رسالته الجدلية والتي ناقش فيها بطريقه ذكية بعض المسائل الإسلامية، ومن هنا يأتي اتهامه بالزندقه. ولعل محنته تذكرنا بمحنة عبدالله بن المقفع في عهد المنصور. فكلا الرجلين كان مفكرا وفيلسوفا بارعا في ايصال آرائه الي الناس حاذقا فى اللغة العربية."

هذا بالنسبة لموقف الخليفة من حنين، فماذا عن موقف خصومه من الأطباء المسيحيين؟ يقول حنين إنهم ليسوا شخصا واحدا وانما هم جماعة قوية من ست وخمسين رجلا يريدون لى الموت.

أما معارضته لعبادة الصور واختلافه فى ذلك مع الطيفورى والجاثليق والأساقفة فنحن لا تعرف عنها الشيء الكثير، كما وأن روايتنا لا تجمع على كونه بصق على الصورة بل إن ما أورده في كتابه (نوادر الفلاسفة) لا يدل على معارضته لاستخدام الصور حيث يقول:

" أصل اجتماعات الفلاسفة أنه كانت الملوك من اليونانية وغيرها تعلم أولادها الحكمة والفلسفة وتؤدبهم بأصناف الأدب وتتخذ لهم بيوت الذهب المصورة بأصناف الصور. وإنما جعلت الصور لارتياح القلوب إليها واشتياق النظر إلى رؤيتها، فكان الصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور

التى فيها. وكذلك نقشت اليهود هياكلها وصورت النصارى كنائسها وبيعها وزوق المسلمون مساجدهم كل ذلك لترتاح النفوس إليها وتنشغل القلوب بها ...."

وإذا كان حنين يحبذ استخدام الصور، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة موافقته للحركة الأيقونية التى كانت تدعو إلى عبادة الصور وتقديسها. وهذا ربما كان الشىء الذى أثار المشادة بينه وبين الجاثليق.

أما لماذا يريدون قتله؟ فيقول حنين:" إنهم رأوني فوقهم وعالياً عليهم بالعلم والعمل". ومن الواضح أن فقهاء المسلمين كانوا يناصبونه العداء لا لكونه ذمياُ فحسب بل لكونه فيلسوفا ومنطقياً. وهى علوم كان يعارضها الفقهاء لأنها على حد قولهم تشكك فى العقيدة وتدعو إلى الإلحاد والزندقة. ومعنى هذا أن حنينا لم يتهم بالانحراف عن عقيدته المسيحية فقط، بل أتهم بالزندقة أيضاً وفى نفس الوقت. وإلى هذا يشير حنين نفسه حيث يقول عن أعدائه بأنهم:

" أوقعوا بغضتى فى نفوس سائر أهل الملل فضلا عن أهل مذهبى". والظاهر أن حنينا لم يقابل أعداءه ومنافسيه بالمثل بل كانت له رزانة العالم وحلمه فصبر على ذلك كله على مضض متمثلا بقول الشاعر:

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

ولكن الذى آلمه هو سجنه وضربه بالسياط ومنعه من القراءة والبحث حيث صودرت كافة كتبه وأوراقه.

الفصل السابع

7–حنين وطب العيون

يقول الدكتور جورج قنواتى إن طب العيون هو من أهم فروع الطب الذى تخصص فيه العرب، ووصلوا فيه الى نتائج مدهشة حتى صارت تفاصيل تاريخه معروفة الى حد كبير. ويرجع الفضل فى ذلك إلى أبحاث الدكتور يوليوس هيرشبرج أستاذ طب العيون فى جامعة برلين سابقا.

والذى كان فى الوقت نفسه متفقها فى اللغات ومؤرخا محققا، قضى الخمس والعشرين سنة نظير له من نوعه على الإطلاق. وكان من عادة هيرشبرج أن يرجع إلى المصادر الأصلية (المحفوظات). وعلى ذلك فإنه قضى خمسة أعوام فى تدوين تاريخ طب العيون عند العرب والشعوب الإسلامية الأخرى على نمط جديد، فكان عليه أن يحصل على عشرات من النسخ الخطية لكتب الطب الباطنى والجراحة وطب العيون التى صنفها العرب والفرس. ثم كان عليه أن يعهد فى ترجمتها إلى مشاهير المستشرقين أمثال ى. ليبرت وا. ميتوخ. ولقد طبع التراجم الألمانية لأحسن هذه المصنفات. وقد كشف عمله هذا عن بلوغ طب العيون عند العرب فى القرنين الرابع والخامس من الهجرة مرتبة سامية تدعو إلى الدهشة حقا،

هذا وقد تتبع هيرشبرج فى الوقت نفسه الطريق الذى سلكه تقدم العلوم الطبية وطب العيون، مبتدئا بنشوئها خلال أيام الخلفاء العباسيين فى القرن الثالث الهجرى، عندما ترجم الكثيرون من الأطباء المتبحرين فى العلم – بفضل تشجيع الخلفاء، وبالأخص المأمون والمتوكل على الله – جملة ما خلفه اليونان من كتب العلم إلى السريانية والعربية. وسرعان ما بلغ العلم (اليونانى – العربى) مع زيادات فارسية وهندية أعلى مراتبه فى سنة 400 هجرية. و بلغ هذه المرتبة الرفيعة فى طب العيون كتابان نفيسان هما: (تذكرة الكحالين) لعلى بن عيسى وهو مسيحى من أهل بغداد. و(كتاب المنتخب فى علاج أمراض العين) لعمار بن على الموصلى، وهو مسلم تعاطى صناعة الطب فى القاهرة. ثم تدهور العلم رويدا رويدا حتى القرن التاسع من الهجرة. حيث بدأ العلم الغربى فى النهوض، والتفوق فى الإنتاج على الشرق الذى كانت خير كتبه قد ترجمت خلال ذلك إلى اللاتينية.

وهنا يصرح دكتور ماكس مايرهوف بأنه" لا مندوحة لنا عن التسليم بأن المؤلفات العربية فى طب العيون حتى ما جاء منها فى عصر الانحطاط تفوق بدرجة عظيمة الكتب التى ظهرت فى أوربا قبيل سنة 1100 هجرية أى سنة (1700 ميلادية) "

لقد وفق هيرشبرج الى العثور فى الكتب العربية وبالأخص فى كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعة على أسماء لما لا يقل عن أثنين وثلاثين كتابا عربيا فى أمراض العيون، وأسماء لمثل ذلك العدد من أطباء العيون، وستة أقسام فى طب العيون تشتمل عليها الموسوعات العربية فى الطب والجراحة التى صنفها الرازى وابن سينا وأبو القاسم الزهراوى وغيرهم من مشاهير أطباء العرب والفرس وبلاد الأندلس. واستطاع أن ينسخ من هذه الكتب المصنفة فى طب العيون كتابا واحدا فارسيا وأحد عشر كتابا عربيا بنى عليها معلوماته الوثيقة عن المميزات الجوهرية لطب العيون عند االعرب.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن هيرشبرج اقتصر فى أبحاثه الخاصة بالطب العربى فى أوائل عهوده على ما ترجم إلى اللاتينية من العربية فى العصور الوسطى، إذ كانت النسخ العربية الأصلية قد فقدت أو تعذر الحصول عليها مثل (كتاب الحاوى فى الطب) للرازى وهو موسوعة ضخمة دونت فيها المعلومات الطبية التى ظهرت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى.

على أن تمكن هيرشبرج من فقه اللغات هداه إلى إظهار أن كتاب (العشر مقالات فى العين) لحنين ابن اسحق، وهو من أوائل الكتب العربية (فى القرن الثالث الهجرى أو التاسع الميلادى) يوجد تحت اسم مستعار فى ترجمتيتن لاتينيتين مختلفتين، ظهرتا فى العصور الوسطى. أولهما باسم (كتاب جالينوس فى العين) – نقل دميتريوس

Galeni liber de oculis translatus a Demetrio liber

و الثانية باسم (كتاب قسطنطين الأفريقى فى العين)

Liber de oculis constantini africani

وقد أقام هيرشبرج الدليل على صحة زعمه فى رسالة صغيرة قيمة إذ وجد أن معظم الفقرات العديدة – المقتبسة من كتاب حنين هذا والتى عثر عليها فى الترجمة اللاتينية للموسوعة الطبية المسماة (الحاوى) للرازى – وردت ثانية فى الترجمتين اللاتينيتين المذكورتين آنفا. وفضلا عن هذا فإن ترتيب

المقالات فى هاتين الترجمتين يطابق بالضبط ترتيبهما فى كتاب"العشر مقالات فى العين" لحنين ابن اسحق، على حسب ما أورده ابن أبى أصيبعة مؤرخ الطب العربى، لكن هذه التراجم الثلاث – ترجمة كتاب الحاوى وترجمة كتاب العشر مقالات – بالرغم من ركاكة عباراتها ورداءتها وعدم العناية بطبعها، قد مكنت هيرشبرج من تتبع المضمون تقريبا أو الجوهر الذى صار فيه هذا الكتاب العربى المبكر. وأن يقرر أن جميع أطباء العيون المتأخرين قد اقتبسوا من ذلك الكتاب ورشحوه، وبالأخص على بن عيسى وعمار ابن على وأبا روح بن منصور، الطبيب الفارسى المعروف باسم (زرين دست) والغافقى طبيب العيون الأندلسى المغربى (فى القرن السادس من الهجرة)، وخليفة ابن أبى المحاسن وصلاح الدين(سوريا) والقيسى (مصر – فى القرن السابع من الهجرة) والأكفانى والشاذلى
وكلاهما تعاطى الصناعة فى مصر فى القرن الثامن من الهجرة).

ثم يضيف مايرهوف فى مقدمته قائلا:

إن الكتب التى ألفها حنين صورة منعكسة لكتب أطباء اليونان التى استنفد فى ترجمتها أهم قسط من نشاطه فى حياته العلمية. والكتاب الذى ذاعت شهرته فى العصور الوسطى بأوربا هو مقدمته (تفسير كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس" المدخل ") والذى ترجم إلى اللغة اللاتينية تحت عنوان Isagoge Iohannitii (طبع فى ليبزج سنة 1497، وفى استراسبورج سنة 1534).

وكتابا حنين اللذان صادفا نجاحا عظيما بين الشرقيين هما كتاب (المسائل فى الطب) و(طب العيون). وسنتكلم عن الأخير فى نهاية فصول هذه المقدمة. أما كتاب (المسائل فى الطب) فهو عبارة عن مقدمة للطب العام على هيئة أسئلة وأجوبة. ولم يتمكن حنين من إتمام هذا الكتاب الذى أتمه ابن أخته (حبيش) وقد كتب الكثير من أطباء العرب فى القرون الأخيرة شروحا وتعليقات على هذا الكتاب القيم. ويوجد فى مكتبات أوربا عدد وافر من مخطوطات هذه الكتب تنتظر الطبع والشرح. هناك كتب أخرى تبحث فى غذاء المرضى الناقهين والعلاجات المختلفة والأعراض والنبض والحمى والبول والحمامات وعلم الصحة، ومنها واحد يبحث فى الطب البيطرى واثنان يدونان كتبا عن الفلاسفة والأطباء الأقدمين .

وقد أحصى (جبرييلى) 47 كتابا من هذه الكتب فقد أكثرها لسوء الحظ. وفضلا عن هذا، يوجد أكثر من 34 ثماراً وجوامع لكتب الإغريق الطبية والفلسفية. وتعالج ثمانية كتب منها مواضيع شتى مثل المنطق وعلم النحو، وتاريخ جامع وصل به إلى حكم العباسيين ومسائل دينية ثم رسالة أشار فيها إلى (المحن والشدائد التى أصابته فى حياته) الخاصة. وقد فقد جميع هذه الكتب. وقائمة حنين عن

(تراجم كتب جالينوس) و(ما تركه جالينوس فى فهرسه) محفوظة فى ثلاث مخطوطات فى مكتبة (أيا صوفيا) بالأستانة.

يقول د. ماكس مايرهوف:

و قد اعتمدنا فى كتابنا عن مؤلفات حنين فى طب العيون على ما كتبه ابن النديم فى الفهرست وابن القفطى فى تاريخ الحكماء وابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء (جزء 1 ص 198 – 200). وكان ما كتبه هذا الأخير أوفى مما كتبه السابقان. وقد أغفل ابن القفطى أكثر كتب حنين فى العيون ذيوعاً وشهرة وهو:

1-كتاب العشر مقالات فى العين

يطلق كتاب الفهرست لابن النديم على هذا الكتاب اسم:(كتاب علاج العين). وكثيرا ما يذكره محمد بن زكريا الرازى الطبيب الفارسى العظيم فى (كتاب الحاوى فى الطب) مطلقا عليه اسم (كتاب العبن) بينما عنوان النسختين الخطيتين اللتين طبعت منهما هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ هو كتاب (العشر مقالات فى العين).

و إليك ما قاله ابن أبى أصيبعة عن هذا الكتاب: (كتاب العشر مقالات فى العين). وهذا الكتاب يوجد فى نسخه اختلاف كثير. وليست مقالاته على نسق واحد. فإن بعضها توجد مختصرة موجزة فى المعنى الذى هى فيه. والبعض الأخر قد طول فيه وزاد عما يوجبه تأليف الكتاب. والسبب فى ذلك أن كل مقالة منه كانت بمفردها من غير التئام لها مع غيرها. وذلك لأن حنينا يقول فى المقالة الأخيرة من هذا الكتاب: إنى قد كنت ألفت منذ نيف وثلاثين سنة فى العين مقالات مفردة نحوت فيها إلى أغراض شتى سألنى تأليفها قوم بعد قوم ..... (قال) ثم إن حبيشا سألنى أن أجمع له ذلك وهو تسع مقالات وأجعلها كتاب واحد، وأن أضيف للتسع مقالات الماضية مقالة أخرى أذكر فيها شرح الحال فى الأدوية المركبة التى ألفها القدماء وأثبتوها فى كتبهم لعلل العين. وهنا ذكر أغراض المقالات التى تضمنها هذا الكتاب: -

المقالة الأولى - يذكر فيها طبيعة العين وتركيبها.
المقالة الثانية- يذكر فيها طبيعة الدماغ ومنافعه.
المقالة الثالثة – يذكر فيها العصب الباصر والروح الباصر ونفس الإبصار كيف يكون.

المقالة الرابعة– يذكر فيها جملة الأشياء التى لابد منها فى حفظ الصحة واختلافها.
المقالة الخامسة– يذكر فيها أسباب الأمراض الكائنة فى العين.
المقالة السادسة– فى علاجات الأمراض التى فى العين.
المقالة السابعة– يذكر فيها جميع قوى هذه الأدوية عامة.
المقالة الثامنة– يذكر قيها أجناس الأدوية للعين خاصة وأنواعها.
المقالة التاسعة– يذكر فيها مداواة أمراض العين.
المقالة العاشرة– فى الأدوية المركبة لأمراض العيون.

وجدت مقالة أخرى حادية عشر لحنين مضافة إلى هذا الكتاب يذكر فيها علاج الأمراض التى تعرض للعين بالحديد.

هذا كلام ابن أبى أصيبعة عن الكتاب مع ما عن له من الملاحظات وفى الجملة الأخيرة منه يؤيد الرازى ما جاء بها إأنه اقتبس فى كتاب (الحاوى) مقالة حنين عن العمليات التى تجرى على العين. على أن النسختين الخطيتين تخالفان ما زعمه ابن أبى أصيبعة بعض الشئ فيما يتعلق بجمع التسع مقالات فى كتاب واحد، وتنصان على أن حبيش جمع المقالات. بل تنصان على أنه ترجمها من الأصل إلى العربى إلى اللغة السريانية. ولكن ليس بها ما ينص على أنه هو الذى ألف له حنين المقالة العاشرة. (أنظر صفحة 194 من النص):

قال حنين:

"فبقى الكتاب شبيهاً بالمبتور حتى انتبهت له أنت بما قد خصصت به من ايثار الانتفاع و التنفع بجمع الكتب وإحياء العلم إذ كنت قد بلغت من جلالة القدر وعلو المنزلة ما صرت به رئيساً فى الأطباء والفلاسفة ".

و يعلق ما يرهوف على هذه الفقرة بقوله:

ولسنا نعلم اسم هذا الطبيب النابه الذى يخاطبه حنين، ولكننا نستطيع الظن بأنه كان مسلما، لأن حنينا كان من عادته أن يؤلف الكتب بالسريانية أو يترجمها إليها لعظماء النصارى وأطبائهم. بينما كان يؤلف الكتب بالعربية لعظماء المسلمين وإذا تدبرنا قوله:" رئيساً فى الأطباء والفلاسفة " وهو اللقب الذى لقب به الخليفة المتوكل حنينا نفسه، وجدنا حسب ما أورده مؤرخو العرب وأصحاب كتب تراجم الحياة منهم، أنه لم يحمل هذ اللقب من المسلمين غير (أبى الحسن على بن سهل ربن الطبرى) الذى كان نصرانياً ثم اعتنق الإسلام. فلقد كان بناء على ما رواه صاحب الفهرست حظيا عند المتوكل وأحد

أساتذة الرازى. ثم يستدرك مايرهوف فيقول لكن ما أذهب إليه ليس إلا مجرد افتراض ولا يبعد أن يكون غيره من رؤساء الأطباء المسلمين قد تمتع بهذا اللقب دون أن يذكر ذلك فى كتب التواريخ التى بين أيدينا.

2- كتاب المسائل فى العين

وقد جاء فى(الفهرست) أن حنينا هو الذى ألفه وكذلك قال ابن أبى أصيبعة فى(عيون الأنباء) فإن الأخير روى أنه ألفه لولديه داود واسحق وقد أسلفنا (فى صفحة 4) أن هناك خمس نسخ خطية من هذا الكتاب من نصين مختلفين. وسنضطر فيما بعد إلى الكلام عن علاقة هذا الكتاب بالكتاب السابق. وقد جاء فى عيون الأنباء ص 198 عنه ما يلى:

1- " كتاب فى العين على طريقة المسألة والجواب ثلاث مقالات آلفه لولديه داود واسحق وهو مائتان و سبع مسائل ".

وتجئ بعد ذلك عدة مقالات متفرقة ذكرها صاحب الفهرست وابن القفطى وابن أبى أصيبعة هى بلا شك بعض هذه المقالات التى كتبها حنين قبل أن يجمعها ابن أخته حبيش فيجعلها كتابا فى طب العيون. وهذه الكتب هى :

2- كتاب فى ترجمة العين: ويرجح ان يطابق المقالة الأولى من كتاب العشر مقالات فى العين.
3- كتاب الألوان: وقد يطابق المقالة الثالثة.
4- 4 كتاب تقاسيم علل العين:يطابق المقالة الخامسة أوالسادسة.
5- كتاب اختبار أدوية العين: يطابق المقالة الثامنة على الأرجح.
6- كتاب علاج أمراض العين بالحديد:

وهو بلا شك المقالة الحادية عشر التى أضيفت كما قال ابن أبى أصيبعة إلى بعض النسخ الخطية القديمة من كتاب العشر مقالات.

وليس فى المكاتب ذات الفهارس واحدة من هذه المقالات الخمس المذكورة على اعتبار أنها كتب قائمة بذاتها. وقد تكون بعض المقالات الأخرى القائمة بذاتها والمنسوبة إلى حنين مطابقة للمقالات التى يتضمنها كتاب العشر مقالات مثل كتاب (فى الأدوية المفردة) و(كتاب فى أسرار الأدوية المركبة) و(كتاب فى اختلاف الطعوم). ولكن لما كانت هذه الكتب قد فقدت فانا لا نستطيع الكشف عن حقيقتها.

وخلاصة القول أن هذا الكتاب يشتمل على عشر مقالات فى العين شارحاً وملخصا ما قاله جالينوس فى الموضوع. فيقول حنين نفسه فى المقدمة:

"أنا مؤلف لك كتابا كما سألت وماشرحه جالينوس الحكيم بأوضح ما أقدر عليه من القول وأوجزه " وأما مضمون الكتاب فهو أيضا وارد فى المقدمة إذ يقول حنين إن الطبيب الذى يريد مزاولة طب العيون يجب ان يعرف "طبيعة العين" ومن كم جزء ركبت وما فعل كل واحد منها، وما الحاجة إليه، وكيف هيئته، ومن أين مبدؤه، وأين منتهاه، وفى أى موضوع هو من العين مع أسباب ذلك والاحتجاج فيه.

الفصل الثامن

8- مؤلفاته حنين وترجماته

كان حنين طبيبا متميزا ذا حظوة عند الخلفاء وقد نوه ابن أبى أصيبعة بمهارته فى معالجة أمراض العين. ولكن أهم جانب من حياته العلمية هو تراجمه التى من بينها مصنفات جالينوس التى ترجمها من اليونانية إلى السريانية والعربية.

وعن هذا يقول ماكس مايرهوف:

نحن الآن على علم تام بهذا الجانب من حياته العلمية بفضل(رسالته إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس)،التى يوجد منها نسخ ويؤخذ من قائمة وضعها حنين، وأتمها أحد تلاميذه أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتابا، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين، وعدا ذلك فإنه راجع وأصلح ما ترجمه تلاميذه، وهى ستة إلى السريانية ونحو من سبعين إلى العربية، كما راجع وأصلح معظم الخمسين كتابا التى كان قد ترجمها من السريانية سرجيس الرأسعينى وأيوب الرهاوى وسواهما من الأطباء المتقدمين. وقد نقل براون (ص 26) عن كتاب الفهرست:" إن حنينا كان فى الغالب يترجم من اليونانية إلى العربية رأسا". وكانت التراجم السريانية تعمل فى الغالب للأطباء والعلماء النصارى أمثال جبرائيل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه وسلمويه بن بنان وبختيشوع بن جبرائيل وزكريا الطيفورى وولده إسرائيل وشيريشع بن قطرب وسواهم.

وكانت التراجم العربية تعمل لأعاظم المسلمين الذين اعتنق الكثير منهم الإسلام حديثا، أمثال على بن يحيى كاتم سر المتوكل على الله وصديقه، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وزير الخليفة المعتصم بالله، ومحمد وأحمد ابنى موسى اللذين كانا من مشاهير الرياضيين وعلماء الطبيعيات، وأحمد ابن محمد بن المدبر والى مصر فى أيام المتوكل، واسحق بن إبراهيم الطاهرى والى خراسان فى أيام المأمون، واسحق بن سليمان أحد ولاة مصر السابقين.

وكان أسلوب حنين فى الترجمة رائعا ووافيا بأغراض علم اللغات الحديث تماما. وكان ينتقد فى عنف تراجم المتقدمين وتراجمه هو أيضاً التى ترجمها حين كان شابا، وقد ترجم معظمها من جديد، ومن قوله فى رسالته إلى على بن يحيى المذكورة آنفا عن كتاب (فى الفرق) لجالينوس: " ترجمته وأنا شاب .. من نسخة خطية يونانية مشوهة، ثم لما بلغت الأربعين من عمرى طلب إلى تلميذى حبيش أن أصلحها بعد إذ كنت قد جمعت قدرا من المخطوطات اليونانية. وعند ذلك رتبت هذه بحيث نسقت منها نسخة صحيحة قارنتها بالنص السريانى ثم صححتها. وتلك عادتى التى أتبعها فى كل ما ترجمته". وكان حنين يتجشم رحلات طويلة بغية الحصول على النسخ الكاملة مثال ذلك: كتاب (فى البرهان لجالينوس) الذى كان نادر الوجود فى القرن الثالث الهجرى والذى قال عنه حنين:" اننى بحثت

عنه بحثا دقيقا وجبت فى طلبه أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر إلى أن وصلت للإسكندرية لكنى لم أظفر إلا بما يقرب من نصفه فى دمشق.

ويرى (برجستراسر) أستاذ اللغات السامية فى جامعة ميونخ وأعظم حجة فى تراجم حنين العربية: إن حنينا وحبيشا أفضل تلاميذه تجشما عناء كبيرا فى التعبيرعن معنى أصول الكتب اليونانية بقدر ما يستطاع من الوضوح. وكانا يترجمان ترجمة حرفية حتى لو ضحيا فى ذلك بجمال اللغة وتنسيق ديباجتها. " لكن تراجم حنين أفضل ودقتها أعظم. ومع ذلك فإن الإنسان يخيل إليه أنها ليست نتيجة مجهود صادق ولكن نتيجة تمكن وثيق من اللغة وحسن تصرف فى مذاهبها. ويتجلى هذا فى سلاسة التوفيق بين اليونانية والعربية والدقة المتناهية فى التعبير مع الإيجاز– تلك هى مميزات فصاحة حنين التى اشتهر بها". ولقد أسهب (برجستراسر) فى دحض رأى (سيمون) من أن تراجم حنين وحبيش حافلة بالفقرات المنتحلة الغريبة عن الأصل، ويرى أن طريقتها فى التعبير ليست على الدوام جميلة ولكنها على الأقل حرفية. هذا وبوجد عدد عظيم من مترجمات حنين لكتب جالينوس فى المكاتب الأوربية وبالأخص فى مكتبة الأستانة، وهى مودعة هناك فى انتظار فحصها ثم طبعها مع التعليق عليها وشرح غوامضها.

أما تراجم حنين الأخرى التى لا يتحدث عنها فى كتبه فإن مايرهوف لا علم له بها. ويقول إن الرسالة الآنفة الذكر تقفنا على عدد معين من تراجم حنين لكتب أبقراط. مثال ذلك: (كتاب الفصول) مع تفسير جالينوس عليه المترجم إلى السريانية والعربية و(كتاب الكسر) و(كتاب الخلع) و(تقدمة المعرفة) و(تدبير الأمراض الحادة) وكتاب فى(القروح) وكتاب (جراحات الرأس) و كتاب (الابيذيميا) وكتاب(الأمراض الوافدة) وكتاب فى(الآخلاط) وكتاب (قاطيغيرون) وكتاب(الأهوية المياه و البلدان) و(كتاب فى الغذاء) وكتاب(طبيعة الإنسان). وقد أتم تلاميذ حنين شطرا من ترجمة تفسيرات جالينوس إلى العربية. وقد ترجم حنين إلى السريانة كتاب" العهد القديم الذى يرجح أنه لغير جالينوس. وقد ترجمه حبيش واسحق إلى العربية. ونحن نعرف فوق ذلك من كتاب (الفهرست) أن حنينا ترجم (كتاب الكنانيش) لأوريباسيوس بحذافيره و(كتابه إلى أونابيوس) و(كتاب السبع مقالات) لبولس الأجنيطى. و(المادة الطبية) لديسقريديس. وكلها كتب ضخمة جداً ولسنا نعرف بالضبط مقدار نصيب حنين فى ترجمة مؤلفات روفس وفيلاغريوس. ولكن نسخة باريس الخطية تعزو إليه ترجمة (كتاب الجراحة وكتاب الطب البيطرى) لثاومنستوس.

ولقد ترجم حنين من كتب الفلسفة إلى السريانية (كتاب العبارة) لأرسطو الذى ترجمه ولده اسحق إلى العربية. واسحق هو أعظم مترجم لكتب أرسطو إلى العربية. ولكن معلوماته فى اللغة العربية كانت قليلة جدا بحيث أنه لم يتمكن من حسن الترجمة. ولقد راجع حنين كثيرا من تراجمه. ويعزو إليه كتاب الفهرست (ص 251) ترجمة كتاب (الكون والفساد) إلى السريانية. وفى ليدن نسخة خطية من (كتاب الطبيعة) لأرسطو منسوبة ترجمتها إلى حنين ولكن هذا غير محقق.

أما عن كتاب (فى النفس) فالأرجح أن حنينا ترجمه إلى السريانية. وقد ترجمه مجهول إلى العربية. وتعزى إلى حنين ترجمة كتاب (جوامع فلسفة أرسطو) لنيقولاس الدمشقى كما يعزى إليه ترجمة (تفسير كتب أرسطو للإسكندر الأفروديسى) وترجمة(المدخل إلى الفلسفة لفوريفيريوس) و(شرح ثامستيوس لكتب أرسطو) ويعزى إليه أيضا تفسير رياضى لكتاب أوطوقيوس (فى الكرة) و(فى الأسطوانة) مع أن الذى ترجمه هو ثابت بن قرة(توفى عام 288 هـ).

ويؤكد مايرهوف أن كثيراً من التراجم الزائفة المذكورة آنفا قد نسبت خطأ لحنين. إذ كانت تلك عادة بعض مؤرخى تراجم الحياة فى اللغة العربية. ومما أوقعهم فى هذا الخطأ تشابه اسمى حنين وحبيش فى الكتابة الخطية أيام أن كانت الحروف لا تنقط فكانا يرسمان هكذا:" حس" و" حسس ". وعدا هذا فقد نزع الكثيرون من أطباء العرب فى القرون المتأخرة إلى استعارة اسم حنين لمؤلفاتهم الزائفة.

وثبت فى النهاية قول ابن القفطى أن حنينا ترجم إلى العربية كتاب العهد القديم من اليونانية وكان قد ترجم من العبرية خلال حكم بطليموس فيلاديلفوس. وقد فقدت للأسف هذه الترجمة كما فقدت سائر تراجمه السريانية وشطر كبير من تراجمه العربية، وما بقى من الأخيرة موجود كما أسلفنا فى مكاتب الأستانة العديدة.

كذلك فإن آثار حنين السريانية لم تفقد كلها، فقد أعلن بروفسور أرثر فوبس فى مهرجان "أفرام وحنين" سنة 1974، فى بغداد عن اكتشافه مخطوطات جديدة وهامة لحنين بن اسحق، وذكر منها كتاب الخوف من الله، وكتاب النحو السريانى ،ثم معجم سريانى مختصر مفصلا عن بعض المخطوطات العلمية.

و يؤخذ من أقوال بومستارك أنه ألف بالسريانية كتاب (فى تدبير الشيوخ) كما ألف قاموسا يونانيا سريانيا. وفيما يتعلق بكتاب فى الطب بالسريانية الذى تولى (بادج) جزءا منه والذى جمعه حنين من مختلف كتب جالينوس . فإن مايرهوف يرى أنه من العسير إقامة الدليل على أنه من تأليف حنين وإن كان بعض العلماء يؤكد ذلك.

هذا وقد أورد ابن أبى أصيبعة أكمل قائمة لمؤلفات حنين العربية. وهى تحتوى على أكثر من مائة كتاب فى مختلف فروع الطب. وقد حظيت هذه القائمة بعمليات فحص وتحقيق من جانب كثير من المستشرقين والباحثين العرب من أمثال، عبد الحميد الحلوجى فى كتابه "تاريخ الطب العراقى(بغداد، 1967) ثم عامر رشيد السامرائى وعبد الحميد الحلوجى فى كتاب"آثار حنين بن اسحق(بغداد دار الحرية ،1974) وأخيرا الدكتور الأب سمير خليل اليسوعى إالذى نشر قائمة ابن النديم، كما وردت فى أول تدوين للثقافة العربية، وهو فهرست النديم الموضوع(سنة377هـ/987م) إلى جانب قائمة، ابن أبى أصيبعة المتوفى (1296م) كما وردت فى كتابه " عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" ورقم الدكتور سمير هذه المؤلفات تسهيلا للحالات، فكان مجموعها 30 مؤلفا عند النديم و111 عند ابن أبى أصيبعة.

أما القفطى (1248م) فهو يتبع النديم، إلا أنه لم يذكر الأرقام 6، 20 ،21 ،22 فصار المجموع 26 مؤلفا(،فى هذا تصحيح لما قاله مايرهوف حين زعم أن " ابن أبى أصيبعة إنما اختزل مقالة بن القفطى على ما بها من نقص ظاهر) خصوصا وأن ما نشره الأب سمير خليل فى كتابه " حنين ابن اسحق" يتفق تماما مع ما جاء فى أحدث طبعة لكتاب "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" التى حققها الدكتور عامر النجار وصدرت عن هيئة الكتاب بالقاهرة سنة (2001 م) وقدم الدكتور سمير خليل أيضا فى كتابه هذا تحقيقا علميا لمقالة " فى الأعمار والآجال" لحنين بن اسحق التى وجدها فى طوايا موسوعة دينية للعالم القبطى مؤتمن الدولة إبراهيم أبى اسحق المعروف بابن العسال (والكتاب صادر عن دار المشرق– بيروت 2001) وقد اعتمدنا عليه بعد مراجعة هذه القوائم على الأصول والهوامش عند ابن النديم وابن أبى أصيبعة.

حول ضياع مخطوط العهد القديم:

وتعقيبا على ما يقوله مايرهوف هنا عن فقد هذه التراجم وبالأخص ترجمة العهد القديم وتراجمه السريانية أحب أن أقول أن الدكتور يوسف زيدان مدير المخطوطات بمكتبة الإسكندرية أخبرنى أن المكتبة تملك نسخة نادرة من ترجمة حنين بن اسحق للعهد القديم، وأنه عرضها على البابا شنودة لكنه لم يهتم بها فقلت له " ربما لأن حنين كان نسطوريا" فاستغرب كلامى بما يعنى أنه لم يكن يعرف ذلك. وقد دار هذا النقاش القصير أثناء إحدى جلسات الندوة التى عقدها نادى القلم الدولى بالاشتراك مع المعهد السويدى بالإسكندرية فى 28 يناير 2004م، فى وجود الروائى الكبير إدوار الخراط والدكتور محمد الكردى الأستاذ بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ودعانا لزيارة المكتبة فى اليوم التالى لإطلاعنا على المخطوطات، لكن عند وصولنا للمكتبة فى اليوم التالى سألنا عنه، فقيل إنه غير موجود وهو موقف استنكره البعض وسخروا منه.

والأدهى من هذا أننى فوجئت بحديث له مع "أخبار الأدب " بعد حواالى سنتين يعلن فيه عن إقامة مؤتمر للمخطوطات ويؤكد ضياع مخطوط العهد القديم ترجمة حنين بن اسحق. فتحدثت معه تليفونيا وقلت له "إنك قلت إنه فى مكتبة الاسكندرية وأنك عرضته على البابا شنودة، فكيف ضاع فى هذه المدة الوجيزة "" فرد على قائلا "المخطوط كان فى دار الكتب فسألت الدكتور أيمن فؤاد عن ذلك وهو خبير بمخطوطات الهيئة العامة لدار الكتب المصرية، فقال إنه لم يعرف شيئا عن هذا المخطوط." ولم نعرف حتى الآن كيف سرق هذا المخطوط ؟، ومن سرقه؟ وهل انتهى البحث عنه؟ ولماذا لم يعلن الدكتور يوسف زيدان نتائج البحث عنه حتى الآن؟

. قائمة النديم (والقفطى)

قال ابن النديم: " وله من الكتب التى ألفها، سوى ما نقل من كتب القدماء:

1. **كتاب أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين، مقالتان.**
2. **كتاب مسائل فى الطب للمتعلمين وزاد فيها حبيش الأعسم تلميذه.**
3. **كتاب الحمام، مقالة.**
4. **كتاب اللبن، مقالة.**
5. **كتاب الأغذية، ثلاث مقالات.**

6. كتاب علاج العين، عشر مقالات،
7. كتاب تقاسيم علل العين، مقالة.
8. كتاب اختيار أدوية علل العين، مقالة.
9. كتاب علاج أمراض العين بالحديد، مقالة.
10. كتاب آلات الغناء، ثلاث مقالات
11. كتاب الأسنان واللثة، مقالة.
12. كتاب الباه (1) مقالة.
13. كتاب عرفة أوجاع المعدة وعلاجها، مقالتان (3).
14. فى المد والجذر، مقالة.
15. كتاب فى السبب الذى صارت مياه البحر له مالحة، مقالة.
16. كتاب الألوان، مقالة.
17. كتاب فى البول، على طريق المسألة والجواب، مقالة.
18. كتاب المولودين لثمانية أشهر، مقالة.
19. كتاب الترياق، مقالتان.
20. كتاب العين، على طريق المسألة والجواب، ثلاث مقالات.
21. كتاب ذكر ما ترجم من الكتب، مقالتان.
22. كتاب قاطيغورياس (4)، على رأى ثامسطيوس (5)، مقالة .
23. كتاب رسالة الطيفورى (6) فى قرص الورد.
24. الفروج وتولده، مقال.
25. كتاب فى الآجال، مقالة.
26. كتاب تولد النار بين الحجرين، مقالة.
27. كتاب تولد الحصاة، مقالة.
28. كتاب أخبار الأدوية المحرقة (7).
29. كتاب إلى ابن المنجم (8) " فى استخراج، كتب جالينوس.

2. قائمة ابن أبى أصيبعة

ولحنين بن اسحق من الكتب:

1- كتاب المسائل.

2- كتاب العشر مقالات فى العين.

3- كتاب فى العين، على طريق المسألة والجواب، ثلاث مقالات ألفه لولديه داود واسحق وهو مائتان وتسع مسائل.

4- اختصار الستة عشر كتابا لجالينوس، على طريق المسألة والجواب. اختصره أيضا لولديه وأكثر ما ألفه من الكتب على طريق المسألة والجواب، إنما غرضه بها إلى هذا القصد.

5- كتاب الترياق، مقالتان؟

6- اختصار كتاب جالينوس فى الأدوية المفردة، إحدى عشر مقالة. اختصره بالسريانى وإنما نقل منه إلى العربية الجزء الأول، وهو خمس مقالات، نقلها لعلى بن يحيى.

7- مقالة فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس، وبعض ما لم يترجم كتبها إلى على بن يحيى المنجم.

8- مقالة فى اعتذاره لجالينوس، فيما قاله فى المقالة السابقة من كتاب آراء إبقراط وأفلاطون. (9)

9- مقالة جالينوس فى أصناف الغلط الخارج عن الطبيعة، على طريق المسألة والجواب.

10- جوامع [10] كتاب جالينوس فى الذبول، على طريقة المسألة والجواب.

11- جوامع كتاب جالينوس فى أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً، على طريقة المسألة والجواب.

12- جوامع كتاب جالينوس فى كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة

13- جوامع كتاب جالينوس فى الحث على تعلم الطب على طريقة المسألة والجواب.

14- جوامع كتاب المنى لجالينوس، على طريقة المسألة والجواب.

15- ثمار تفسير جالينوس لكتاب" الفصول " لأبقراط على طريقة المسألة والجواب. سبع مقالات وكان تأليفه له بالسريانى، وإنما نقل منه إلى العربية المقالة الأولى والثانية

والثالثة والرابعة. أما الثلاث مقالات الباقية، فنقلها إلى العربية عيسى بن صهر بخت (16)

16- تفسير جالينوس لكتاب "الفصول" لأبقرط على طريقة المسألة والجواب. سبع مقالات. وكان تأليفه له بالسريانية، وإنما نقل منه إلى العربية المقالة الأولى والثانية والثالثة والرابعة. وأما المقالات الثلاثة الباقية فقد نقلها إلى العربية عيسى بن صهر بخت. (11)

17- ثمار تفسير جالينوس لكتاب " تقدمة المعرفة "، على طريقة المسألة والجواب.

18- ثمار تفسير جالينوس لكتاب أبقراط فى تدبير الأمراض الحادة، على طريقة المسألة والجواب.

19- ثمار تفسير جالينوس لكتاب أبقراط فى جراحات الرأس، على طريقة المسألة والجواب.

20- ثمار السبع عشرة مقالة الموجودة من كتاب جالينوس لكتاب" ابيذيميا" [12] لأبقراط، على طريقة المسألة والجواب.

21- ثمار تفسير جالينوس لكتاب "قاطيغريون" Categories لأبقراط على طريقة المسألة والجواب.

22- ثمار تفسير جالينوس لكتاب أبقراط "فى الأهوية والأزمنة والبلدان"، على طريقة المسألة

23- شرح كتاب الهواء والماء والمساكن لإبقراط. لم يتم.

24 - شرح كتاب الغذاء لإبقراط.

25 – ثمار المقالة الثالثة من تفسير جالينوس لكتاب" طبيعة الإنسان" لإبقراط.

26 – ثمار كتاب إبقراط " فى المولودين لثمانية أشهر".

24- فصول استخرجها من كتاب " ابيذيميا ".

25- فصول استخرجها من كتاب " الأهوية والبلدان "، ومما فى كتاب " الفصول " من الكلام فى الأهوية والبلدان بتفسير جالينوس.

26- مقالة فى تدبير الناقهين، ألفها لأبى جعفر محمد بن موسى. (13)

27- رسالة فى قرص العود.

28- رسالة إلى الطيفورى فى قرص الورد.

29- كتاب إلى المعتمد (14) فيما سأله عنه من الفرق بين الغذاء والدواء المسهل. ثلاث مقالات.

30- كتاب قوى الأغذية. ثلاث مقالات

31- كتاب فى كيفية إدراك الديانة.

32- مسائل فى البول، انتزعها من كتاب "ابيذيميا" لإبقراط.

33- مقالة فى تولد الفروج، بين فيها أن تولد الفروج إنما هو من بياض البيضة، واغتذاؤه من المح الذى فيه.

34- مسائل استخرجها من كتب المنطق الأربعة.

35- مقالة فى الدلائل، وصف فيها أبوابا من الدلائل التى يستدل بها على معرفة كل واحد من الأمراض.

36- كتاب فى النبض.

37- كتاب فى الحميات.

38- كتاب فى البول، مستخرج من كتاب إبقراط وجالينوس.

39- كتاب فى معرفة أوجاع المعدة وعلاجها، مقالتان.

40- كتاب فى حالات الأعضاء.

41- مقالة فى ماء البقول.

42- مقالة فى اليبس.

43- كتاب فى حفظ الأسنان واللثة.

44- كتاب في من يولد لثمانية أشهر، على طريقة المسألة والجواب ألفه لأم ولد المتوكل.

45- كتاب فى امتحان الأطباء.

46- كناب فى طبائع الأغذية وتدبير الأبدان.

47- كتاب فى أسماء الأدوية المفردة، على حروف المعجم.

48- كتاب فى مسألة العربية. (15)

49- كتاب فى تسمية الأعضاء، على ما رتبها جالينوس.

50- كتاب فى تركيب العين.

51- مقالة فى المد والجزر.

52- كتاب فى أفعال الشمس والقمر.

53- كتاب فى تدبير السوداويين.

54- كتاب فى تدبير الأصحاء بالمطعم والمشرب.

55- كتاب فى اللبن.

56- كتاب فى تدبير المستسقين.

57- كتاب فى أسرار الأدوية المركبة.

58- كتاب فى أسرار الفلاسفة فى الباه.

59- جوامع كتاب السماء والعالم.

60- كتاب فى المنطق.

61- كتاب فى النحو.

62- مقالة فى خلق الإنسان، وأنه من مصلحته والتفضل عليه جعل محتاجاً.

63- كتاب فيما يقرأ قبل كتب أفلاطون.

64- مقالة فى تولد النار بين الحجرين.

65- كتاب الفوائد.

66- مقالة فى الحمام.

67- مقالة فى الآجال.

68- مقالة فى الدغدغة.

69- مقالة فى ضيق التنفس.

70- كتاب فى اختلاف الطعوم.

71- كتاب فى تشريح آلات الغذاء، ثلاث مقالات.

72- تفسير كتاب النفخ لإبقراط.

73- تفسير كتاب حفظ الصحة لروفس. (16)

74- تفسير كتاب "الأدوية المكتومة" (17) لجالينوس يبين فيه شرح ما ذكره جالينوس فى كل واحد من الأدوية.

75- رسالة فى دلائل القدر على التوحيد.

76- رسالة إلى سلمويه بن بنان (18) ، عما سأله من ترجمة مقالة جالينوس فى العادات .

77- كتاب فى أحكام الإعراب، على مذهب اليونانيين. مقالتان.

78- مقالة فى السبب الذى من أجله صارت مياه البحر مالحة.

79- مقالة فى الألوان.

80- كتاب قاطيغورياس، على رأى ثامسطيوس. مقالة.

81- مقالة فى تولد الحصاة.

82- مقالة فى اختيار الأدوية المحرقة.

83- كتاب فى مياه الحمامات، على طريق المسألة والجواب.

84- كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء، وآداب المعلمين القدماء.

85- كناش اختصره من كتاب بولس. (19)

86- مقالة فى تقاسيم علل العين.

87- كتاب اختيار أدوية علل العين.

88- مقالة فى الصرع.

89- كتاب الفلاحة.

90- مقالة فى التركيب، مما وافقه عليه الفاضلان إبقراط وجالينوس.

91- مقالة تتعلق بحفظ الصحة وغيرها.

92- كلام فى الآثار العلوية.

93- مقالة فى قوس قزح.

94- كتاب تاريخ العالم، والمبدأ والأنبياء، والملوك والأمم، والخلفاء والملوك فى الإسلام، وابتدأ فيه من آدم، ومن أتى من بعده. وذكر ملوك بنى إسرائيل، وملوك اليونان والروم وذكر ابتداء الإسلام وملوك بنى أمية، وملوك بنى هاشم، إلى الوقت الذى كان فيه حنين بن اسحق (وهو زمان المتوكل على الله) .

95- حل بعض شكوك جاسيوس الإسكندرانى (20) على كتاب الأعضاء الآلمة لجالينوس.

96- رسالة في ما أصابه من المحن والشدائد.

97- كتاب إلى على بن يحيى، جواب كتابه فى ما دعاه إليه من دين الإسلام.

98- جوامع ما فى المقالة الأولى والثانية ولثالثة من كتاب: ابيذيميا "لإبقراط، على طريق المسألة الجواب .

99- مقالة فى كون الجنين. جمع من أقاويل جالينوس وبقراط.

100- جوامع تفسير القدماء اليونانيين لكتاب أرسطوطاليس فى السماء والعالم.

101- مسائل مقدمة لكتاب فرفوريوس (21) المعروف بـ " المدخل " وينبغى أن يقرأ قبل كتاب فرفوريوس.

102- شرح كتاب الفراسة لأرسطوطاليس.

103- كتاب دفع مضار الأغذية.

104- كتاب الزينة.

105- كتاب خواص الأحجار.

106- كتاب البيطرة

107- كتاب حفظ الأسنان.

108- كتاب فى إدراك حقيقة الأديان.

3. مؤلفات حنين الدينية

معظم هذه المؤلفات طبية أوعلمية، إلا أن لبعضها طابعاً دينياً، نذكرها هنا مع رقمها بحسب قائمة ابن أبى أصيبعة.

1- رسالة فى دلائل القدر على التوحيد (78) . مفقودة.

2- مقالة فى خلق الإنسان، وأنه من مصلحته والتفضل عليه جعله محتاجاً. قد تكون هذه المقالة هى التى تعرف بكتاب " تحفة الألباب، ذخيرة الأطباء"، إذا صح ما كتبه السامرائى والعلوجى بأن " مطلع هذه المخطوطة يوحى بأنها ليست سوى (مقالة فى خلق الإنسان)[1] و منها نسخة حديثة منسوخة سنة 1302 هـ (= 1885 م) محفوظة فى الخزانة العامة بالرباط ، فى مجموع رقمه 2742 ، من ورقة 70 ب إلى 113 ب [23] .

3- كتاب فى كيفية إدراك الديانة (34) (مفقود).

4- كتاب فى إدراك حقيقة الأديان (111) . نشره الأب لويس شيخو ثلاث مرات. وأعاد نشره الأب بولس سباط.

5- كتاب إلى على بن يحيى (المنجم) جواب كتابه فى ما دعاه إليه من دين الإسلام (100) . نشره الأب سمير خليل سنة 1981، وترجمه الأب بولس نويا إلى الفرنسية [33]

6- كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء، وآداب المعلمين القدماء (8) نشره MERKLE مع ترجمة ألمانية ، و نشر LÖWENTHal الترجمة العبرية القديمة مع ترجمة ألمانية.

7- مقالة فى الآجال (70).

8- كتاب تاريخ العالم (97) .

9- كتاب فى مخالفة الله، كتبه حينما كان شماساً. ذكره عبد يشوع الصوباوى.

10- ترجمة العهد القديم، عن اليونانية. ذكرها المسعودى المتوفى سنة (345هـ / 956 م) قال : " وقد ترجم هذه النسخة [السبعينية] إلى العربية غددا ممن تقدم وتأخر منهم حنين بن اسحق ، وهى أصح نسخ التوراة عند كثير من الناس [24] .

هوامش:

(1) الباه، هو القوة على الجماع .

(2) قرأها فؤاد زسكين " تدبير الناقة " والناقه من برئ من المرض ولا يزال به ضعف .

(3) يأتى رقم 14 قبل رقم 13 عند القفطى.

(4) هو كتاب أرسطو المعنون : catègories.

(5) ثامسطيوس Themistius فيلسوف يونانى (317 – 388 م) . مدير مدرسة القسطنطينية صديق يوليانوس الكافر. له تفاسير عديدة لكتب أرسطو

(6) هو إسرائيل ابن زكريا الطيفورى، متطبب الفتح بن خاقان، وكان ذا منزلة عظيمة عند الخليفة المتوكل على الله (847 – 861 م) (راجع عامر بن رشيد السامرائى وعبد الحميد الحلوجى، آثار حنين بن إسحاق، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1974، ص 130، حاشية 32) .

(7) فى طبعة رضا تجدد (طهران 1970)"المجربة"

(8) هو على بن يحيى المنجم (ت 888 م)، نديم المتوكل على الله (847 – 861 م) ومن بعده من الخلفاء. أسس " دار العلم " للمتوكل. له كتاب الشعراء القدماء الإسلاميين (المنجد فى الأعلام، ص 686 ب-جـ)

(9) أفلاطون Plato (427- 347 ق . م.) من فلاسفة اليونان. تلميذ سقراط ومعلم أرسطو، درس فى بستان أكاديموس فى أثينا. مؤسس نظرية" الأفكار" أو "المثل"، فالحقيقة ليست فى الظواهر العابرة ولكن فى الأفكار السابقة لوجود الكائن،

(15) هو كتاب جوامع الاسكندراsummari Alexandrinorum الذى يتألف من 16 كتابا. لا أثر له باللغة اليونانية بل هو فقط بالترجمة العربية.

(11) عيسى بن صهر بخت طبيب نسطورى وناقل من السريانى إلى العربى، معاصر لحنين. له كتاب قوة الأدوية المفردة على الحروف.

GAS III , 243

(12) أى الوباء .

(13) هو أبو جعفر محمد بن موسى بن شاكر ، أحد أولاد موسى بن شاكر (مع أحمد وحسن أخويه) ، وعميد إحدى الأسر الثرية فى بغداد. وكان ينافس الخليفة المأمون فى حماية المترجمين ودفعهم ترجماتهم بسخاء، فهو من رعاة حركة الترجمة فى أيام حنين.

(14) هو الخليفة العباسى الخامس عشر، المعتمد على الله (870 – 892 م) ابن الخليفة المتوكل على الله . فيكون هذا المؤلف من نتاج حنين قبيل وفاته.

(15) قد يكون هذا الكتاب " الغراميطيقى " الذى ذكره عبد يشوع الصوباوى أى كتاب النحو (grammar) .

(16) روفس الأفسسى، طبيب يونانى ولد نحو 80 م، وعاش فى مصر وفى روما. نقلت كثير من مؤلفاته (أكثر من خمسين) إلى السريانية والعربية، فكان له تأثير كبير فى الأطباء العرب. راجع GAS III , 64-68

(17) هو كتاب نصائح الرهبان ، ثمة نسخة منه فى مكتبة ميونخ
.60(nº103) ;ULLMANNp 8r MÜnchen arab .243, fol.220r-22

(18) سلمويه بن بنان (ت 840 أو841) طبيب مسيحى نسطورى للخليفة المعتصم (833 – 842 م) ، يمدحه حنين كثيراً، وترجم بطلب منه 12 كتاباً لجالينوس. له مختصر فى الطب وتدبير الصحة.
GAS III, 227 ; ULLMANN, p. 112

(19) هو بولس الأجانيطى (Paul d 'Egine) المعروف بالقوابلى. طبيب عاش فى الإسكندرية أيام الفتح العربى، ترجمت مؤلفاته إلى العربية فى القرن الثامن الميلادى. له كناش الثريا وتدبير الحوامل وتهزيل السمان وعَلل النساء وغيرها من المؤلفات. راجع
GAS III, 168-170 ; ULLMANN, p. 86-87

(20) هو الطبيب جاسيوس الإسكندرانى (Gessios) الذى عاش فى القرن السادس الميلادى . مدحه ابن بطلان. له تفسير لكتاب بقراط عن طبيعة الجنين. راجع GAS III, 160-161.

(21) فرفوريوس Porphyre (233–304). ولد فى صور. فيلسوف من أتباع الأفلاطونية الجديدة وتلميذ أفلوطين. كان له الدور الأول فى نشر تعاليم أستاذه فى كتاب التاسوعات. له إيساغوجى، وهو كتاب عرفه العرب.

(22) عامر بن رشيد السامرائى وعبد الحميد العالوجى: آثار حنين بن إسحاق (بغداد : مجمع اللغة السريانية : 1974) ص 77 (رقم 93) .
(23) راجع GAS III ص 254 رقم 19 .
(24) المسعودى: التنبيه والإشراف.

الفصل التاسع

9- حنين بن اسحق ومدرسته

عندما غضب عليه أستاذه يوحنا بن ماسويه وطرده من مدرسته لأنه كان يرى أنه لا يصلح لدراسة الطب ويكفيه أن يعمل بائعا سريحا على الطرقات، خرج حنين باكيا وأقسم أن يكون بريئا من دين النصرانية إن هو رضى أن يتعلم الطب قبل أن يحكم اللسان اليونانى بدرجة لا يصل إليها أحد فى عصره. ثم غاب حنين عن بغداد حوالى خمس أو ست سنوات وعاد بعد أن أتقن اليونانية واستوعب الثقافة الهللينية. وبهذا أصبح حنين يتقن أربع لغات هى السريانية والعربية والفارسية واليونانية وجمع بهذه اللغات ثقافات ثرية متنوعة هى نتاج هذه الحضارات القديمة.

وقد تعذر على الباحثين وضع تواريخ محددة لمراحل حياته التى انطلقت من الحيرة الذى نشأ فيها، وتعلم فى كنيستها ثم إلى جنديسابور التى درس فيها الفارسية ومبادئ الطب، ثم بغداد حين التحق بمجلس يوحنا بن ماسويه الذى طرد منه .... وذلك نتيجة لما حدث له من مكائد أوغرت عليه صدر الخليفة المتوكل فسجنه وأمر بتدمير كل ما يمتلكه بما فيها مكتبته. ونتيجة لهذا فقدت كل كتبه وأوراقه. ولحسن الحظ أن حنين نجا بعد هذه النكبة وعاش سنينا طويلة وكتب رسالته إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم، وكان سنه فى الثانية والأربعين ثم أضاف إليها ما كتبه وهو فى الرابعة والستين من العمر إضافة إلى ترجمته الذاتية فى رسالته التى كتبها عما أصابه من"المحن".

وفى هذه الرسائل نجد المفاتيح إلى ثقافة حنين وفكره ونتعرف منها على شخصيته، وعلى طريقته فى تعليم الطب بل وفى الترجمة أيضا. فقد ذكر فى رده على السائل:" أعلمتك أن جالينوس قد وضع كتابا نحا فيه هذا النحو ورسم فيه ذكر كتبه وسماه فينكس وترجمته الفهرست. وأنه قد وضع مقالة أخرى وصف فيها مراتب قراءة كتبه، وأن التماس تعرف أمر كتب جالينوس من جالينوس أولى من التماس تعرفه منى".

ثم ذكر أنه قد فقد جميع كتبه كلها بما فيها فهرست جالينوس الذى ذكره منذ قليل ... وأنه يعتمد على الذاكرة فى هذه الرسالة. لكنه يكشف بدرجة واضحة عن إحاطته بكل هذه الكتب إحاطة شاملة ودقيقة ... ولنأخذ مثلا ما يقوله عن كتاب فهرست جالينوس:

فهذه الكتب التى كان يقتصر على قراءتها فى مواضع تعليم الطب بالإسكندرية، وكانوا يقرؤونها على هذا الترتيب الذى أجريت ذكرها عليه، وكانوا يجتمعون كل يوم على قراءة إمام منها وتفهمه، كما يجتمع أصحابنا اليوم من النصارى فى مواضع التعليم التى تعرف بالاسكول فى كل يوم على كتاب إمام. إما من كتب المتقدمين وإما من سائر الكتب، وإنما كانوا يقرؤونها الأفراد كل واحد على حدة، بعد الارتيا ض بتلك الكتب التى ذكرت، كما يقرأ أصحابنا اليوم تفاسير كتب المتقدمين. وأما جالينوس فلم ير أن تقرأ كتبه على هذا النظام. لكنه تقدم فى أن يقرأ من كتبه بعد كتابه فى"الفرق" كتبه فى "التشريح"، ولذلك أنا مفتتح من ذكر كتبه بتعديد كتبه فى التشريح ثم متبعها بسائر كتبه على الولاء وعلى النظام والترتيب الذى وضعه هو."

وبعد ذلك ذكر حنين عشرين كتابا من كتب جالينوس التى ترجمها هو، أو ترجمها غيره من المترجمين ولمن ترجمت. ومن هذا نتبين معرفة حنين الدقيقة بأساليب التعليم فى ثلاث مدارس فى عصره هى:

1- مدرسة الإسكندرية
2- مدرسة النصارى فى الرها ونصيبين
3- مدرسة جالينوس

وواضح مما ذكره أن جالينوس كان يعطى التشريح المكانة الأولى فى تعليم الطب ... وكما يقول الأب جورج قنواتى إنه عرف فى روما كطبيب لامع وأستاذ للتشريح، كان يهتم كثيرا بالتجارب العملية. فهو من أول الأطباء الذين أجروا اختبارات للوقوف على طريقة عمل بعض الأعضاء مثل الكلى والحبل الشوكى بحركات الجسم والحساسية وطريقة العمل والنبض. فأثبت عمليا أن الشرايين تحتوى على دم وتنقله، وقد اقترح تفسيرا فسيولوجيا. وكان إعجابه بابقراط عظيما جداً ففسر أهم كتبه. وقد اقتفى أثره فأبدى اهتماما كبيرا بالفحص الاكلينيكى مستنداً قبل كل شئ على الوقائع الملموسة. عاش جالينوس طويلا ولم يتوقف أبدا عن التأليف وقد بلغ عدد مؤلفاته أربعمائة مؤلف ضاع بعضها فى الحريق وقد وصل إلينا منها 83 كتابا لا يتطرق الشك فى نسبها إليه، و19 يشك فيها، و15 تفسيرا لكتب ابقراط.

هذه هى أهم دائرة ثقافية تحرك فيها حنين ابن اسحق ... ومن القائمة التى وضعها وأكملها أحد تلاميذه. نعرف أنه ترجم أكثر من مائة كتاب لجالينوس وأحد عشر كتابا لابقراط ... لقد تعلم حنين فى هذه المدرسة الطبية الكبيرة فأضاف إلى ما حصله فى جنديسابور وبغداد مجدا عظيما ... أما كيف توصل إلى كتب ابقراط وجالينوس وأين تعرف عليها، فسوف يظل هذا السؤال معلقا حتى نحصل على إجابة مقنعة من كتبه ومخطوطاته ... لقد كان التشريح هو أساس تعليم الطب فى مدرسة الإسكندرية ... وقد زار جالينوس الإسكندرية وكان بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة بيرجامون التى ينتمى إليها علاقات متراوحة من التنافس والتعاون. أضف إلى ذلك اهتمام أهل الإسكندرية بمؤلفات جالينوس. فقد اختار الإسكندرانيون ستة عشر كتابا من كتب جالينوس [1] لتكون أعمدة فى دراسة الطب، وسميت بجوامع الإسكندرانين يقول المؤرخ جون مارلوإ ن جالينوس كان من أنجب تلاميذ مدرسة الإسكندرية. (كتاب: "العصر الذهبى للإسكندرية" الترجمة العربية ص78)

وقد ذكر حنين فى رسالته المذكورة " إننى بحثت عن نسخة تامة باليونانية لكتاب البرهان، وجلت فى طلبه بلاد الجزيرة والشام كلها وفلسطين ومصر إلى أن بلغت الإسكندرية فلم أجد منها شيئا إلا فى دمشق". وهذا الكلام الأخير يدل على أنه كان يعرف بعض هذه الأماكن .... وما فيها من مدارس ومكتبات.

راجع كتاب "جالينوس إلى غلوقن فى التأتى لشفاء الأمراض" ص 3 هامش 1.

– تحقيق د.محمد سليم سالم

حنين وتلاميذه:

لم يكن حنين يؤمن بالعمل الإنفرادى وإنما بالعمل الجماعى أى بأسلوب الفريق كما نسميه اليوم، لذا نراه يختار لنفسه فريقا من المعاونين يعهد إليهم ما ينقله من اليونانية إلى السريانية فينقلونه إلى العربية، أو ينقلون إلى السريانية ما يضعه حنين بالعربية، ولا يتوانى عن مراجعة ترجماتهم وتدقيقها. ومن مشاهير تلاميذه ابنه اسحق وابن أخته حبيش بن الحسن الأعسم، واسطيفان بن بسيل وموسى بن أبى خالد، ويحيى بن هارون، وعيسى بن يحيى بن إبراهيم، وأبو عثمان سعيد وعيسى بن على. أما كاتبه الخاص فرجل عرف بالأزرق.

ولابد من التمييز بين العمل الذى كان يقوم به حنين ونفر من تلاميذه لحسابه الخاص، وبين العمل الذى كان مترتبا عليه فى بيت الحكمة حيث "اختير للترجمة، وأؤتمن عليها، وكان المتخير لها جعفر المتوكل على الله. ووضع له كتابا نحارير عالمين بالترجمة كانوا يترجمون. ويتصفح حنين ما ترجموه، فانشأ هكذا مدرسة للترجمة تبنت الطريقة العلمية النقدية شعارا فكانت السباقة والمبدعة"

(يوسف حبى)

والذى لا شك فيه أن التلاميذ الذين عملوا مع حنين بن اسحق فى "بيت الحكمة" شكلوا مدرسة ذات طابع مميز. والمدرسة نشأت هنا داخل العمل الذى ترأسه حنين، والذى انبثق عن الدولة أصلاً. وربما جاءت الإشارات التى أوردتها الكتابات المختلفة لتؤكد أن قوام التلاميذ الذين التفوا حول الأستاذ وعملوا معه يتراوح عددهم بين التسعين وبين المائة. ويمكننا أن نحصل من بين الكتابات المختلفة والمتناثرة هنا وهناك على قائمة غير كاملة بعدد هؤلاء التلاميذ. لكن الذى لا يدانيه شك أن كتب التراث حفظت لنا أسماء بعض هؤلاء الأعلام، وأشارت إلى أعمالهم، بل لدينا فى كثير من الحالات مخطوطات ومؤلفات، نرجمها ودونها هؤلاء الأتباع .... وفى المقالة التى دونها ماكس مايرهوف فى" تراث الإسلام" " عن العلوم والطب، يذكر انه:" كان لحنين بن اسحق أندادا كثيرون يصح أن نسميهم بالمترجمين العظام، فضلاً عن حوالى تسعين تلميذا من تلاميذه اضطلعوا بعمل كهذا، ولكنه يقل عنه أهمية". هل يمكن لنا إذن أن نقف على الأعلام الذين عاصروا هذا الأستاذ، واقتدوا بطريقته؟

(ماهرعبد القادر – حنين بن اسحق والعصر الذهبى للترجمة ص 148)

وسوف نكتفى بذكر الأسماء المشهورة التالية:

- **اسحق بن حنين**

يقول ابن أبى أصيبعة:

هو أبو يعقوب" إسحاق بن حنين بن إسحاق" العبادى، كان يلحق بأبيه فى النقل، وفى معرفته باللغات وفصاحته فيها، إلا أن نقله للكتب الطبية قليل جداً بالنسبة إلى ما يوجد من كثرة نقله من كتب ارسطوطاليس فى الحكمة وشروحها إلى لغة العرب، وكان" إسحاق" قد خدم من خدمهم أبوه من الخلفاء –والرؤساء، وكان منقطعاً إلى" القاسم بن عبد الله" (وزير المعتضد بالله) وخصيصاً به ومتقدما عنده، يفضى إليه بأسراره. ولإسحاق حكايات مستطرفة، ونوادر وأشعار.

قال" إسحاق بن حنين": شكا إلى رجل علة فى أحشائه فأعطيته معجوناً، وقلت له تناوله سحراً وعرفنى خبرك بالعشا، فاجأنى غلامه برقعة من عنده، فقراً، وإذا فيها يا سيدى تناولت الدواء واختلفت لاعدمتك عشرة مجالس: أحمر مثل الريق فى اللزوجة، وأخضر مثل السلق فى السلق، في البقلية، ووجدت بعده مغسا فى رأسى وهوسا فى سرتى، فرأيك فى إنكار ذلك على الطبيعة بما تراه إن شاء الله .

قال: فتعجبت منه وقلت: ليس للأحمق إلا جواب يليق به، وكتبت إليه: فهمت رقعتك وأنا أتقدم إلى الطبيعة بما تحب إذا التقينا والسلام.

ولحق إسحاق فى آخر عمره الفالج، وبه مات وتوفى فى بغداد فى أيام المقتدر بالله وذلك فى شهر ربيع الأخر سنة ثمان وتسعين ومائتين. ومن كلام إسحاق، قال: قليل الراح صديق الروح، وكثيرها عدو الجسم..

و من شعره الطويل

أنا أبن الذين استودع الطب فيهم وسمى بن طفل وكهل ويافع
يبصرنى فيه أرسطوطاليس بارعاً يقوم منى منطق لا بدافع
وبقراط فى تفصل ما أثبت الأولى لنا النصر والأسقام طب مضارع
و ما زال جالينوس يشفى صدورنا لما اختلفت فيه علينا الطبائع
ويحيى بن ماسويه وأهرن قبله لهم كتب للناس فيها منافع

رأى أنـه فى الطب نيلت فلم تكـن لنـا راحة من حفظها وأصابـــع

و من أشهر الكتب التى ترجمها اسحق نذكر:

- كتاب أنالوطيقا الأول ومعناه (تحليل القياس) نقله اسحق الى السريانية.
- كتاب أنالوطيقا الثانى ومعناه (البرهان) نقله اسحق الى السريانـة.
- كتاب ذكر فيه ابتداء صناعة الطب، وأسماء جماعة من الحكماء والأطباء.
- كتاب الكون والفساد نقله اسحق الى العربية.
- كتاب الأخلاق نقله اسحق الى العربية دون ذكر اللغة التى نقل منها.
- اختصار كتاب إقليدس.
- كتاب (قاطيغورياس) ومعناه المقولات. وقد وضع اسحق تفسيرا لهذا الكتاب.
- كتاب ايساغوجى، وهو المدخل إلى صناعة المنطق.
- إصلاح جوامع الإسكندرانيين لشرح جالينوس لكتاب الفصول لإبقراط.
- كتاب طوبيقا ومعناه (الجدل) نقله اسحق الى السريانية.
- مقالة فى الأشياء التى تفيد الصحة والحفظ وتمنع النسيان، ألفها لعبد الله بن شمعون.
- كتاب ريطوريقا (الخطابة) ترجمه اسحق الى اللغة العربية.
- كتاب بارى أرمينياس ومعناه (العبارة) نقله حنين الى السريانية، ونقله اسحق الى العربية.
- (مقالة فى التوحيد)

(ابن أبى أصيبعة: "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" ص 158)

- **وبخصوص ترجمة اسحق لكتاب الأخلاق ينقل الأستاذ رشيد الجميلى قول دوجلاس دنلوب" إننا نعلم بصورة عامة بأن اسحق بن حنين كان مولعا بترجمة المواضيع الفلسفية من اللغة اليونانية، بينما كان والده مختصا بترجمة المواضيع الطبية، وأن الاستنتاجات التى لا تقبل الخطأ هى أن مترجم كتاب الأخلاق لابد أن يكون اسحق الابن. وهى الفكرة المعترف بها الآن" (كتاب "الأخلاق لأرسطو حسب ترجمة مدرسة حنين بغداد،1974 ص3)**
- **حبيش الأعسم**

كتب ابن أبى أصيبعة:

هو " حبيش بن الحسن الدمشقى"، وهو ابن أخت" حنين ابن إسحاق"، ومنه تعلم صناعة الطب وكان يسلك مسلك"حنين" فى نقله وفى كلامه وأحواله، إلا أنه كان يقصر عنه.

وقال "حنين بن إسحاق" وقد ذكره فى بعض المواضع: (أن حبيشا) ذكى مطبوع على الفهم، غير أنه ليس له اجتهاد بحسب ذكائه، بل فيه تهاون، وإن كان ذكاؤه مفرطاً وذهنه ثاقباً.
وحبيش هو الذى تمم كتاب مسائل حنين فى الطب (الذى وضعه للمتعلمين وجعله مدخلاً إلى هذه الصناعة).

ولحبيش من الكتب:

- **كتاب إصلاح الأدوية المسهلة.**
- **كتاب الأدوية المفردة.**
- **كتاب الأغذية.**
- **كتاب فى الاستسقاء.**
- **مقالة فى النبض على جهة التقسيم. (عيون الأنباء-160)**

و قد ذكر ابن القفطى الكتب التى عربها حبيش من مؤلفات جالينوس على النحو التالى:

- **كتاب النبض الكبير. 16 مقالة.**
- **حيلة البرء.**
- **التشريح.**
- **تشريح الحيوان.**
- **تشريح الحيوان الميت مقالتان.**
- **علم بقراط بالتشريح.**
- **كتاب تشريح الرحم.**
- **الحاجة إلى النبض.**

- الحركة المجهولة.
- آراء بقراط وأفلاطون.
- منافع الأعضاء.
- الكيموس.
- تركيب الأدوية. 17 مقالة.
- الرياضة بالكرة الصغيرة.
- الحث على تعلم الطب.
- تدبيرالأصحاء.

أما صاحب الفهرست فقد ذكر لنا ما نقله حبيش من كتب جالينوس بصورة وافية:

1- كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة، نقل حبيش ست مقالات.
2- كتاب النبض الكبير، نقل حبيش ست عشر مقالة أربعة أقسام.
3- كتاب تدبير الأصحاء، نقل حبيش ست مقالات.
4- كتاب حيلة البرء، نقل حبيش ست مقالات إلى العربية.

* موسى بن خالد

ذكر ابن النديم فى الفهرست أن:" موسى ويوسف ابنا خالد، وكان يخدمان داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة وينقلان له من الفارسية إلى العربية"، وقد ورد قول ابن النديم هذا ذاكرا إياهما فى زمرة النقلة من الفارسية إلى العربية.

وفى طبقات الأطباء لابن جلجل جاء أن المتوكل على الله اختار حنين للترجمة، وجعل لـه كتاباً نحارير عالمين بالترجمة كانوا يترجمون ويتصفح هو ما ترجموه كاصطفن بن بسيل وموسى بن خالد الترجمان ويحيى بن هارون. ونجد أن هذا النص ذاته ينقله ابن القفطى فى تاريخ الحكماء.

أما ابن أبى أصيبعة فيذكر عن موسى ابن خالد أنه:" كان لا يصل إلى درجة حنين أو يقرب منها" وأنه وجد من نقل موسى كتبا كثيرة من الستة عشر التى لجالينوس وغيرها.

* عيسى بن يحيى بن إبراهيم

ذكر ابن النديم أن من تلامذة حنين بن اسحق ومن الناقلين المجيدين عيسى بن يحيى بن إبراهيم. ويتفق ابن أبى أصيبعة مع ابن النديم فيقول عنه:" كان أيضاً تلميذا لحنين بن اسحق، وكان فاضلاً، أثنى عليه حنين ورضى عن نقله، وقلده فيه".

ومما يذكره القفطى عن المؤلفات المختلفة ومترجميها، نعرف أن عيسى بن يحيى قام بترجمات عديدة تحت إشراف أستاذه حنين بن اسحق، وقد وصفه ابن القفطى بقوله إنه:" من تلاميذ حنين والناقلين المجيدين من اليونانة إلى العربة. وله تصنيف فى الطب " ومما يذكره القفطى أنه نقل كتاب السبعين لأوريباسيوس، و فسر الثمانى مقالات لأبقراط من ابيذيميا، ونقل كتاب الفصد لجالينوس، والأدوية المقابلة للأدواء ، وكذلك كتاب فى أن المحرك الأول لا يتحرك. هذا بالإضافة إلى ما أشار إليه حنين بن اسحق من مترجمات عيسى فى رسالته التى بعث بها إلى على بن يحيى.

- **عيسى بن على**
- **شخصية أخرى هامة من المترجمين والناقلين الذين عملوا تحت رياسة حنين، قال عنه ابن النديم:"عيسى بن على من تلاميذ حنين، وكان فاضلاً وله من الكتب كتاب" المنافع التى تستفاد من أعضاء الحيوان."**

ويذكر ابن القفطى فى تاريخ الحكماء أن"عيسى بن على من تلاميذ حنين. وكان فاضلاً ومصنفاً، مشهور التصنيف. ومن ذلك كتاب" تذكرة الكحالين" وعليها عمل أطباء هذا النوع فى كل زمان، كتاب المنافع أما ابن أبى أصيبعة فيعتبره من أجل تلاميذ حنين ويقول: كان عيسى بن على طبيبا فاضلا ومشتغلا بالحكمة، وله تصانيف فى ذلك. وكان قد قرأ صناعة الطب على حنين بن اسحق، وهو من أجل تلاميذه. وكان عيسى بن على يخدم بن المتوكل وهو المعتمد على الله، وكان طبيبه قديما، ولما ولى الخلافة أحسن إليه وشرفه وخلع عليه. ومن كتبه كتاب "المنافع التى تستفاد من أعضاء الحيوان "وكتاب" السموم" وهو مقالتان.

وهناك أعلام كثيرون فى مدرسة حنين، لهم نقولات كثيرة راجعها حنين ومنحها جواز المرور إلى القارئ . وكما يقول الأستاذ ماهر عبد القادر (حنين بن اسحق العصر الذهبى للترجمة). ص158:

لكن أهم ما فى المدرسة العلمية التى نشأت فى بيت الحكمة أن التراجمة الذين عملوا مع حنين على اختلافهم كانوا يستخدمون طريقة المقابلة بين النسخ حين يترجمون، ويبحثون بحثا مدققا. كما أن معظم هؤلاء أجادوا العربية واليونانية والسريانية، وبعضهم أجاد الفارسية وتمكن منها. وكانوا على علم ودراية بالمصطلحات الفنية المستخدمة يفهمون ما يترجم ولا ينقلون نقلا حرفيا، بل يشرحون ويعلقون على المترجمات. وتغلب على هذه المدرسة أيضاً الأمانة والدقة فى النقل والإشارة إلى المصادر وفهم الموضوع، وربما كان هذا أهم ما ميزهم عن اللاتين فى العصور الوسطى المسيحية، يقول أسعد خير الله فى كتاب (الطب العربى): فبين ما ترجم العرب من اليونانية إلى العربية وبين ما ترجم الإفرنج من العربية إلى اللاتينية نجد البون الشاسع بين أمانة أولئك وصدق ترجمتهم وبين تقصير هؤلاء وعدم أمانتهم " فكأن مدرسة حنين كانت بحق مدرسة علمية بكل ما تحمله الكلمة من معنى."

المترجمون العظام

تحدثنا فى الجزء الأول من هذا الفصل عن أبرز تلاميذ حنين بن اسحق الذين يقدرهم ما يرهوف بحوالى تسعين مترجماً. ولكن صورة عصر الترجمة لا يمكن أن نكتمل بدون الحديث عن أنداد حنين بن اسحق، والذين يصفهم ما يرهوف أيضا بالمترجمين العظام أمثال، الكندى، وقسطا بن لوقا، وثابت بن قرة، وعمر بن الفرخان من الذين عاصروا حنينا أو جاءوا فى الجيل التالى بعده. وكانوا من طبقة المفكرين والعلماء واسهموا بأعمالهم وابتكاراتهم العظيمة فى إثراء ثقافة ذلك العصر وازدهاره، ولعل من أشهرهم:

(1) قسطا بن لوقا

يقول الأب لويس شيخو، قسطا بن لوقا البعلبكي أحد مشاهير علماء الدولة العباسية. قال صاحب الفهرست (ص295) بعد ذكره لحنين:" كان يجب أن يقدم علي حنين لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب، ولكن بعض الأخوان سأل أن يقدم حنين عليه وكلا الرجلين فاضل ... وكان بارعا في علوم كثيرة، منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقي لا مطعن عليه، فصيحا باللغة

اليونانية. جيد العبارة بالعربية". ونقل ابن أبى أصيبعة (1: 244) عن سليمان بن حسان أن قسطا "مسيحي النحلة طبيب حاذق نبيل فيلسوف منجم عالم بالهندسة والحساب" ثم زاد عليه: "وكان جيد النقل فصيحا فى اللسان اليوناني والسرياني والعربي، واصلح نقولا كثيرة وأصله يوناني. ومما روي من أخباره أنه كان في أيام المقتدر. وقال ابن القفطي في تاريخ الحكماء:

" دخل أيام بني عباس إلى بلاد الروم وحصل من تصانيفهم الكثير، وعاد إلى الشام واستدعي إلى العراق ليترجم كتبا ويستخرجها من لسان اليونان إلى لسان العرب، وعاصر يعقوب بن إسحاق الكندي. وقد نقل صاحب الفهرست وابن أبى أصيبعة عن عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع، أن قسطا اجتذبه سنحاريب إلى أرمينية فأقام بها، وكان بأرمينية أبو الغطريف البطريق من أهل العلم والفضل، فعمل له قسطا كتبا كثيرة جليلة نافعة شريفة المعاني، مختصرة الألفاظ في أصناف من العلوم، ومات هناك فدفن وبني علي قبره قبة وأكرم قبره كإكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع"

(قال): " فلو قلت حقا قلت إنه أفضل من صنف كتابا بما احتوي عليه من العلوم والفضائل وما رزق من اختصار الألفاظ وجمع المعاني" ثم ذكروا له جدول تأليفه البالغ خمسين كتابا ونيف فقد أكثرها. ومما يؤسف علي فقده خصوصا كتاب تاريخ كان دعاه "الفردوس" وكتاب "نوادر اليونانيين ومذاهبهم" وكتاب"آداب الفلاسفة" وكتاب" الأوزان والمكاييل"وكتاب"المرايا المحرقة" وكتاب "القرسطون". وقد نجا من آفات الدهر كتابه (اختلاف الناس في أخلاقهم وسيرهم) وكتاب في العمل بالكرة وكتاب الاسطرلاب، وبعض نقوله لكتب اليونان ككتاب إقليدس وكتاب الأكر لناودصيوس، وكتاب اطولوقس في الطلوع والغروب. ولم يطبع لقسطا بن لوقا إلا شئ قليل. فمن ذلك كتاب "رفع الأثقال" لأبرن ترجمه من اليونانية وطبعه آخر هو العلامة كارا دي فو **Carra de Vaux: Les Mecaniques de Heron d'Alexanrie** (أى ميكانيكا هيرو السكندرى) ويقول الأب لويس شيخو وقد طبع في مصر كتاب (الفلاحة اليونانية) لقسطوس الفيلسوف الرومي، فظن الطابع أن قسطوس المذكور هو قسطا بن لوقا. ولو حقق النظر لرأي أن قسطوس هذا ليس بقسطا بن لوقا وإنما هو أحد قدماء اليونان وقد ترجم كتابه سرجوس بن هلبا. ثم يضيف الأب شيخو:

" ولقسطا بن لوقا من الآثار المذكورة في جدول تأليفه ومحفوظة في مكتبتنا الشرقية جوابه إلى ابن عيسي يحي ابن المنجم. وكان هذا وجه إليه والي حنين بن إسحاق رسالة دعاها بالبرهان ليثبت

فيها دين الإسلام. فأجابه قسطا برسالة مثلها والرسالتان بين مخطوطات مكتبتنا، وكذلك لدينا جواب حنين علي صورتين الواحدة علي طريقة جدلية والأخرى علي مبني فلسفي يثبت فيه النصرانية، فهذه الصورة الثانية قد نشرناها في مجموع الأبحاث الذي طبع ليوبيل العلامة نولدكة (1) وقد عدنا فكررنا طبعها في مجموعنا (مقالات لاهوتية قديمه (ص121)

1- يعقوب بن اسحق الكندى: قال ابن أبى أصيبعةعنه:

"فيلسوف العرب، وأحد أبناء ملوكها، وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى. وكان يعقوب بن إسحاق "الكندى" عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم وعند ابنه احمد. وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جداً فى جميع العلوم وقال " سليمان بن حسان ": إن يعقوب بن إسحاق الكندى " شريف الأصل بصرى كان جده ولى ولايات لبنى هاشم ونزل البصرة وضيعته هنالك وانتقل إلى بغداد وهناك تأدب.

وكان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم. ولم يكن فى الإسلام فيلسوف غيره احتذى فى (تأليفه) حذو أرسطوطاليس. وله تواليف كثيرة فى فنون من العلم، وخدم الملوك فباشرهم بالأدب وترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص.

وقال أبو معشر فى كتاب مذكرات لشادان: حذاق التراجمة فى الإسلام أربعة:" حنين بن إسحاق ويعقوب بن إسحاق الكندى وثابت بن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى"

وقال القاضى" أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد" فى كتاب طبقات الأمم عن الكندى، عندما ذكر تصانيفه وكتبه قال: منها كتب فى علم المنطق، وهى كتب قد نفقت عند الناس نفاقا عاما. وقلما ينتفع بها فى العلوم لأنها خالية من صناعة التحاليل التى لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل فى كل مطلوب إلا بها. أما صناعة التركيب وهى التى قصد يعقوب فى كتبه هذه إليها فلا ينتفع بها إلا من كانت عنده مقدمات عتيدة. فحينئذ يمكنه التركيب ومقدمات كل مطلوب لا توجد إلا بصناعة التحاليل ولا أدرى ما حمل " يعقوب " على الإضراب عن هذه الصناعة الجليلة،

هل جهل مقدارها أو ضن على الناس بكشفه، وأى هذين كان فهو نقص فيه وله بعد هذا رسائل كثيرة فى علوم جمة ظهرت له فيها آراء فاسدة ومذاهب بعيدة عن الحقيقة "

ويرى ابن ابى أصيبعة أن ما قاله القاضى "صاعد" فيه تحامل كبير على الكندى وليس ذلك مما يحط من علم الكندى ولا مما يصد الناس عن النظر فى كتبه، والانتفاع بها.

ومن كلام أوصى به لولده" أبى العباس" (نقله بن أبى أصيبعة من كتاب المقدمات لابن بختويه قال الكندى: يا بنى الأب رب، والأخ فخ والعم غم والخال وبال والولد كمد والأقارب عقارب وقول: لا: يصرف البلاء، وقول: نعم يزيل النقم، وسماع الغناء برسام حاد، لأن الإنسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيموت والدينار محموم فإن (صرفته) مات، والدرهم محبوس فإن أخرجته فر، والناس شجرة، فخذ شيئهم واحفظ شيئك ولا تقبل ممن قال اليمين الفاجرة فإنها تدع الديار بلا قع.

ورغم شهرة الكندى إلا أنهم اختلفوا فى تحديد ديانته وبهذا الصدد يقول البيهقى: واختلفوا فى ملته فقال قوم كان يهوديا ثم أسلم وقال بعضهم كان نصرانيا (تتمة صوان الحكمة) ويمثل ما اختلفوا فى ملة الكندى فى الماضى اختلفوا فى ملته فى الحاضر. فالأستاذ تريتون يرى أن الكندى كان يهودياً ثم أسلم.

ويقول ما يرهوف: (وكان الكندى أول فيلسوف مسلم) "التراث اليونانى"

والوحيد الذى تطرق إلى ذكر سنة وفاة الكندى هو التوحيدى الذى يقول " وأنه مات فى بغداد فى أيام المستعين وذلك فى حدود سنة 252 هـ (866 م): المقابسات ص 85)

ويرى د.رشيد الجميلى أن ما ذكره التوحيدى فى هذا المجال هو الذى يجب أن يؤخذ به، خاصة إذا علمنا أن صاحبنا هذا كان معاصرا لحنين بن اسحق المتوفى سنة 260 هـ / 873 م وثابت بن قرة الحرانى المتوفى سنة 288هـ / 900 م. كذلك يرفض الدكتور رشيد الجميلى تشكيك عبد الرحمن بدوى فى أصالة ترجمات الكندى ويرد عليه بذكر الأراء التالية:

فالأستاذ أوليرى يذكر بهذا الصدد: (وقد عمل أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندى أول الأمر مترجما، وقد اثبت كفاءة بنقله للكتب اليونانية الفلسفية العلمية، وانصرف نشاطه الجدى إلى ترجمة كتب الفيلسوف أرسطو وتعريف العرب بتعاليمه تعريفا صحيحا، يغنيهم عن الأفكار المبهمة المغلوطة التى جمعوها وتزيدوا فيها، عند أخذها من شراح فلسفته من السريان. ثم يقول الأستاذ أوليرى فى مناسبة أخرى: (وسر دربته وعدته هو المعرفة بالإغريقية التى استخدمها فى إعداد

ترجمات لميتافيزيقا أرسطو وجغرافية بطليموس، ونسخة عربية مراجعة من ترجمة إقليدس ويذكر أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى فى بحثه لمصنفات الكندى : (واحدة من أولى ترجمات جغرافية بطليموس وأغلب الظن أن تأثيرها قد ظهر فى تأليفه لكتاب" رسم المعمور من الأرض " والذى لا نعرف عنه شيئا ونقل يعقوب بن اسحق الكندى إلى العربية الكتاب الثالث عشر من الميتافيزيقيا والانالوطيقيا الأولى والثانية (تحليل القياس والبرهان) والسوفسطيقا.

وفى هذه الأمثلة وغيرها يجد رشيد الجميلى الدليل الحاسم الذى يقطع الشك باليقين، وبالتالى إلى نفى رأى الأستاذ عبد الرحمن بدوى المنوه عنه آنفا جملة وتفصيلا.

(حركة الترجمة فى المشرق الإسلامى (ص 272– 277)

ذكر بن جلجل: "وكان يعقوب عالما بالفلسفة، ولم يكن فى الإسلام من اشتهر عند الناس بمعاناة علم الفلسفة حتى سموه فيلسوفا غير يعقوب هذا، واحتذى فى تواليفه حذو ارسطوطاليس" وقد أحصى الأستاذ الجميلى أكثر من مائتين من مؤلفات الكندى شملت الفلسفة والهندسة والحساب والموسيقى والسياسة والمنطق والفلك والطب ولا يتسع المجال لذكر أسمائها هنا.

ثم يشير الجميلى الى صفة تميز بها فلاسفة المسلمين فى ذاك الزمان فيقول:

ومن المفيد أن يقارن المرء بين الامتنان العظيم الذى كان فلاسفة المسلمين جميعاً يشعرون به نحو اليونان، وبين تواضعهم الجم عندما يتحدثون عن آثارهم الشخصية فى الفلسفة. ففلاسفة الإسلام جميعاً متفقون علي أن الحقيقة المتوصل إليها عن طريق الفلسفة تسمو على الحدود القومية والدينية، ولا يهمهم أبدا إلآ اكتشاف الحقيقة أولاً وموقفهم هذا يشبه صاحب الشريعة الإسلامية الذى يعتبر الإسلام خاتمة ما نزل به الوحى من الحقائق الدينية، ولكنه ليس بأولها. فلولم تكن اليونان لم تكن الفلسفة. وإن من يحاول أن يقطع نفسه عن تجارب الأمم وتراثها فى العصور الغابرة لا يمكنه أن يكون فيلسوفا أو عالما. فلعمرى إن عمر الواحد لقصير جدا.

وهنا يؤيد رشيد الجميلى كلامه بفقرة من إحدى رسائل الكندى يقول فيها:

"ومن أوجب الحق أن ألا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغيرة الهزيلة، فكيف بالذين هم أكثر أسباب منافعنا العظيمة الحقيقية الجدية. وينبغى أن لا نستحى من استحسان الحق واقتناء الحق

من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شئ أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغى بخس الحق ولا تصغير لقائله ولا بالآتى به، بل كل يشرفه الحق"

أبو الحسن ثابت بن قرة الحرانى:

قال ابن أبى أصيبعة –

كان من الصابئة المقيمين بحران ويقال الصابئون نسبتهم إلى صاب، وهو طاط بن النبى إدريس عليه السلام. وثابت هذا هو" ثابت بن كرايا بن إبراهيم بن كرايا بن مارينوس بن سالايونوس"

وكان" ثابت بن قرة صيرفيا بحران، ثم اصطحبه" محمد بن موسى" بن شاكر لما انصرف من بلاد الروم لأنه رآه نصيحاً. وقيل: إنه قدم على "محمد بن موسى " فتعلم فى داره، فوجب حقه عليه فوصله بالمعتمد، وأدخله فى جملة المنجمين. وهو أصل ما تجدد للصابئة من الرياسة فى مدينة السلام وبحضرة الخلفاء، ولم يكن فى زمان" ثابت بن قرة" من يماثله فى صناعة الطب ولا فى غيرها من جميع أجزاء الفلسفة، وله تصانيف مشهورة بالجودة، وكذلك جاء جماعة كثيرة من ذريته ومن أهله يقاربونه فيما كان عليه من حسن التخرج والتميز فى العلوم، ولثابت ارصاد حسان للشمس، تولاها ببغداد وجمعها فى كتاب بين فيه مذهبه فى سنة الشمس، وما أدركه بالرصد فى موضوع أوجها ومقدار سنيها وكمية حركتها وصورة تعديلها. ثم نقل بن أبى أصيبعة عن أبى إسحاق الصابىء الكاتب قوله: إن ثابتا كان يمشى مع" المعتضد" فى الفردوس، وهو بستان فى دار الخليفة للرياضة، كان الخليفة قد اتكأ على يد" ثابت" وهما يتمشيان، ثم نثر" المعتضد" يده من يد ثابت شدة ففزع "ثابت" فإن"المعتضد" كان مهيباً جداً فلما نثر يده من يد "ثابت"

قال له: يا أبا الحسن – وكان فى الخلوات يكنيه، وفى الملأ يسميه – سهوت ووضعت يدى على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يعلون، ولا يعلوا عليهم.

ولد فى حران أو الرها وانتقل إلى بغداد حيث درس الفلسفة والرياضيات. وترك كتبا كثيرة متنوعة بعضها نقول وبعضها تأليف والأخرى تصحيح. وهو من ألمع علماء القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، وقد نقل الكثير من المؤلفات اليونانية إلى العربية، كما ادخل إضافات إلى علم الرياضيات، واعتبره قدرى طوقان من الذين مهدوا لإيجاد حساب التفاضل والتكامل.

وقد سار ثابت بن قرة على نهج حنين بن اسحق، فجمع حوله تلاميذ وشكل جماعة من صابئة حران، يعملون فى الترجمة تحت إشرافه. وهذا ما نفهمه من حديث فيليب حتى حين يقول" وكما كان حنين رئيس النقلة النساطرة، هكذا ثابت بن قرة رئيس جماعة أخرى من صابئة حران الوثنيين، وكان هؤلاء الصابئة من عبدة النجوم. ومن هنا كانت لهم رغبة من عهد بعيد فى العلوم الرياضية والفلكية. وكانت مدينتهم حران فى عهد المتوكل مقر مدرسة الفلسفة والطب التى كانت قبلا فى الإسكندرية وانتقلت إلى إنطاكية. فى هذا الوسط نفسه نشأ ثابت بن قرة وتلاميذه وترعرعوا، وإلى هؤلاء جميعا ينسب الفضل فى نقل القسم الأكبر من كتب اليونان فى الرياضيات والفلك. ولقد تولى أعمال ثابت الجليلة من بعده ابنه سنان وحفيده ثابت وإبراهيم.

(تاريخ العرب ج2 نقلا عن كتاب" حركة الترجمة فى المشرق الإسلامى" ص 289)

ويتميز إنتاج ثابت بالغزارة الشديدة. وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة قائمة طويلة أحصيتها فبلغ عددها مائة أربعة وخمسين كتابا بين مترجم ومؤلف، منها عشر أعمال بالسريانية فيما يتعلق بطقوس ورسوم مذهب الصائبة، نتناول الفروض والسنن ودفن الموتى، واعتقاد الصابئين والعبادات وعن الطهارة والنجاسة، وأعمال أخرى تشمل الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والموسيقى أيضاً، وهى بين مترجم ومؤلف – ولكن ترجماته للرياضيات والفلك ضمنت له التميز بين أنداده، ويقارن الأستاذ رشيد الجميلى بينه وبين حنين بن اسحق فيقول:

"وفى رأى أن هذا الفيلسوف إذا هو لم يفق حنين بن اسحق العبادى فى مجالى الترجمة والطب، فإنه، قد فاقه أيضا فى مجالات أخرى أشهرها الرياضيات والفلك، إذ حقق نتائج باهرة فى هذين العلمين، الأمر الذى أدى إلى ارتقاء الدراسات الرياضية فى عهد المأمون، وبخاصة فى أيام الرياضى العربى محمد بن موسى الخوارزمى والفلكى البارز يحيى بن أبى منصور الموصلى"

ومن أقوال ثابت المأثورة قال:" ليس على الشيخ أضر من أن يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء، لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ومن الجماع فيهرم.

راحة الجسم قلة الطعام، وراحة النفس فى قلة الآثام، وراحة القلب فى قلة الاهتمام، وراحة اللسان فى قلة الكلام.

كذلك نقل بن أبى أصيبعة عن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة أنه قال: كانت بين أبى أحمد يحيى بن على بن يحيى بن المنجم النديم" وبين جدى"أبى الحسن ثابت بن قرة" رحم الله مودة أكيدة، ولما ما توفى فى سنة ثمان وثمانين ومائتين رثاه "أبو أحمد" بقصيدة طويلة نكتفى منها بالأبيات التالية: :

ألا كل شىء ماخلا الله مائت ومن يغترب يرجى ومن مات فائت

نعنينا العلوم الفلسفيات كلها خبا نورها إذ قيل قد مات ثابت

وكانوا إذا ضلوا هداهم لنهجها خبير بفضل الحكم للحق ناكت

عمر بن الفرخان الطبرى:

هو أحد النقلة العظام أو كما قال صاعد الأندلسى " أحد حذاق الترجمة الأربعة فى الإسلام، وكان ابن الفرخان يترجم من الفارسية ألى العربية"

قال عنه صاحب الفهرست:

هو أبو بكر محمد بن عمر بن حفص بن الفرخان الطبرى أحد أفاضل المنجمين. وله من الكتب: كتاب المقياس – كتاب المواليد – كتاب العمل بالاسطرلاب – كتاب المسائل – كتاب المدخل – كتاب الاختيارات – كتاب تحويل سنى المواليد – كتاب الميالات–كتاب تحويل سنى العالم.

(ابن النديم: الفهرست ص 273)

ونقص المعلومات واضح بالنسبة لحياة بن الفرخان ونشاطاته، إلا أن رشيد الجميلى يجد فيما قيل هنا ما يغنى عن التفاصيل ويقول:

ان شهرة صاحبنا فى حقل الترجمة غطت براعته فى أحكام علم النجوم إلى درجة كبيرة، وينقل قول القفطى:

" عمر بن الفرخان الطبرى، أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم حركات النجوم وأحكامها. وكان عمر بن الفرخان عالما حكيما، وكان منقطعاً إلى يحيى بن خالد بن برمك ثم انقطع إلى الفضل بن سهل. وأن ذا الرئاستين الفضل بن سهل وزير المأمون، استدعى عمر بن الفرخان من بلده ووصله بالمأمون، فترجم له كتبا كثيرة وحكم بأحكام موجودة اليوم (أى إلى زمن القفطى المتوفى 646هـ

1248م) فى خزائن السلطان، وألف له كتبا كثيرة فى النجوم وغير ذلك من فنون الفلسفة، منها كتاب تفسير الأربع مقالات لبطليموس من نقل أبى يحيى البطريق، كتاب المحاسن، كتاب اتفاق الفلاسفة واختلافهم فى خطوط"

ولقد حظى بن الفرخان بمكانته الكبيرة فى نظر هؤلاء المؤرخين نتيجة لشهرته فى مجال الترجمة وعلم النجوم.

لقد أثمرت حركة الترجمة ثمارا رائعة وكانت هى بداية البعث الحقيقى لهذه النهضة العلمية التى بلغتِ أوجها فى عصر الدولة العباسية والى ظهورفلاسفة وعلماء مسلمين بارزين ، مثل الفارابى والرازى وابن سينا و الحسن بن الهيثم.

وفى كتاب" الفكر العربى فى الثقافة العربية" الصادر (عام 2000) نجد أن مؤلفه ديمترى جوتاس يركز اهتمامه فى الكشف عن العوامل السياسية والأيديولوجية الخاصة بقيام الدولة العباسية والتى دفعت إلى الاهتمام بالترجمة وأدت الى ازدهارها. وقد كشف فعلا عن جوانب هامة لهذه الحركة لكنه لم يبحث جديا فى الأسباب التى أدت الى توقف هذه النهضة، ثم تراجعها وهو الأمر الذى يهمنا كشفه، فقد نستطيع إذا عرفنا هذه الأسباب أن نعمل على التخلص منها من أجل استعادة دورنا فى الإبداع العلمى والفكرى والمشاركة فى علوم هذا العصر ومنجزاته.

لقد أنهى ديمترى جوتاس تحليله بأن الإبداع العلمى قد تواكب مع حركة الترجمة، وتوازى معها تقريبا. وهذا ما نفهمه من الفقرة التالية:

"قبل الفترة البويهية (744هـ- 105م) بوقت طويل، أى قبل ذبول حركة الترجمة، كان العلماء التالية أسماؤهم قد وضعوا أعمالهم الرئيسية التى طورت العلم على نحو ثورى، فى الطب على بن عباس المجوسى المتوفى حول نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى وابن سينا (ت 428هـ – 1037 م)

وفى الفلك البتانى (ت 317هـ /929 م) والبيرونى (ت 440هـ/ 1048-م) وفى الرياضات الخوارزمى (فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى) وفى الطبيعة ابن الهيثم (ت بعد 432هـ/ 1041 م) وفى الفلسفة الفارابى (339هـ/ 950م)..الخ. إن أعمال هؤلاء العلماء لم تقف عند الحد الذى توقف فيه الأدب المترجم بل لم تلبث ان تفوقت عليه من وجهة نظر علمية، بل

إنها صنفت على أسلوب وصيغة واتخذت موقفاً بحيث استجابت للمواقف المعاصرة فى العالم الإسلامى. ومن الأمثلة المختارة التى تعطينا صورة نقدية واضحة كتاب الرازى" الشكوك على جالينوس" وكتاب بن الهيثم" الشكوك على بطليموس" ويمكن أن نضيف على هذين كتاباً مثل كتاب ابن سينا" الحكمة الشرقية" الذى كان يمثل عصارة ما كشفه من نواحى الخلاف مع أرسطو، والذى كان من الممكن تسميته من نواح علمية الشكوك على أرسطو. وفى نهاية التحليل فليس المهم هو أثر هذه الكتب بالذات على كشف نواحى النقص فى أعمدة العلم اليونانى الثلاثة– جالينوس، بطليموس وأرسطو – ولكن المهم هو موقف الباحثين والعلماء الذين نجحوا، من خلال اهتمامهم العلمى فى تطوير الميادين التى تخص كلاً منهم، فى خلق جو عقلى كان يسمح بوضع مثل هذه الكتب وأن يتاح لها المجال للإفادة منها."

وأنا لا أنكر أهمية هذا المنهج وما حققه من نتائج فى الكشف عن العوامل السياسية والأيديولوجية التى دفعت حركة الترجمة فى مراحلها المختلفة، وأعتقد أن السطور الأخيرة الخاصة بخلق " جو عقلى" أو على الأصح مناخ عقلانى يسمح بحرية التفكير والتعبير تشير الى العامل الأساسى فى تلك النهضة العربية الشاملة. إن تاريخ هولاء العلماء يؤكد فهمهم الرائع للعلاقة بين النظر الفلسفى والابتكار العلمى بصورة تثير الاهتمام الجاد. وهذه مسألة تستوجب الفحص والدراسة لفهم علاقتها بالانفتاح العقلى فى سياق الأوضاع السياسية والاجتماعية. وهذا ما أطمح الى القيام به عن طريق تغطية هذه الفترة التى أعقبت حركة الترجمة حتى نملأ فجوات هذا التاريخ ونكشف عن الإضافة الحقيقية التى قدمتها العلوم العربية لمسيرة العلم والحضارة العالمية.

10- حنين وعلم الفهرسة

يعتبر حنين بن اسحق أول من وضع فهرساً للكتب فى اللغة العربية، ذلك ما نفهمه من رسالته إلى على بن يحيى " فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم". وكذلك نعرف من هذه القائمة التى وضعها حنين أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتابا، وترجم إلى اللغة العربية منها تسعة وثلاثين، علاوة على أنه راجع ترجمة تلاميذه فأصلح ستة كتب مما نقل الى السريانية، ونحواً من سبعين كتابا إلى العربية، كما راجع وأصلح معظم الخمسين كتاباً التى كان ترجمها إلى السريانية سرجيس الرأسعينى وأبوب الرهاوى وغيرهما من الأطباء المتقدمين.

وكان حنين حريصا على تأدية المعنى بدقة، متفهماً تماماً لمقتضيات النشر العلمى ووجوب الرجوع إلى أحسن المخطوطات. فهو يقول عن إحدى ترجماته التى قام بها فى سن الشباب لكتاب " فى الفرق الطبية" لجالينوس:

" ترجمته وأنا شاب من نسخة خطية يونانية مشوهة، ثم لما بلغت الأربعين من عمرى طلب تلميذى حبيش أن أصلحها بعد إذ كنت قد جمعت قدراً من المخطوطات اليونانية, وعند ذلك رتبت هذه (النسخ) بحيث نسقت منها نسخة صحيحة قارنتها بالنص السريانى ثم صححتها. وتلك عادتى التى أتبعها فى كل ما ترجمته". ومعنى هذا أنه كان يقوم بعملية تحقيق ودراسة للنصوص قبل ترجمتها.

وبجانب ترجمته لكتب جالينوس، نقل حنين إلى العربية عدداً كبيراً من كتب أبقراط مثل " كتاب الفصول" مع شرح جالينوس عليه المترجم إلى السريانية والعربية، و" كتاب الكسر"،" وكتاب الخل" "وتقدمة المعرفة،" والأبيذيما" وغيره كذلك ترجم كتاب " الكنانيش" لأوريباسيوس، وكتابه إلى أونابيوس وكتاب السبع مقالات" لبولس الأجنيطى" "والمادة الطبية" لديسقوريدس. وكلها كتب ضخمة جداً بالإضافة إلى الكتب الفلسفية لأرسطو وأفلاطون.

أما حكاية الفهرسة فقد حدثنا عنها فى رسالته الى على بن يحيى، إذ كتب هذا الرجل يقول لحنين إن هناك حاجة ماسة إلى ثبت تجمع فيه كتب القدماء فى الطب، ويشرح فيه الغرض من كل كتاب ومحتوياته، حتى تخف مؤنة الطالب لأى باب من هذه الأبواب, فأجاب حنين بأن حفظه يقصر

عن الإحاطة بجميع هذه الكتب لأن جميع ما كان قد جمعه منها بالإضافة إلى أن مؤلفاته هو قد ضاعت فى الحريق الذى دمر مكتبته حين غضب عليه المتوكل وسجنه.

ثم أضاف أنه كتب كتابا بالسريانية لأحد السريان شبيه بالمطلوب منه، بين فيه ما ترجمه من كتب جالينوس، فترجم هذا الكتاب من السريانية إلى العربية. وأضاف ما كان قد نسى ذكره فى ذلك الكتاب وذكر أن جالينوس قد وضع كتابا على هذا النحو ورسم فيه ذكر كتبه وسماه "فينكس" وترجمته " الفهرست" كذلك أضاف جالينوس مقالة أخرى وصف فيها مراتب قراءة كتبه. يزيد حنين الأمر وضوحاً فيقول:

"أما الكتاب الذي سماه جالينوس فينكس وأثبت فيه أسماء كتبه فهو مقالتان ذكر في المقالة الأولي كتبه في الطب، وفي الثانية كتبه في المنطق والفلسفة والبلاغة والنحو. وقد وجدنا هاتين المقالتين في بعض النسخ باليونانية موصولتين كأنهما مقالة واحدة. والغرض في هذا الكتاب أن يصف الكتب التي وضعها، وما غرضه في كل واحد منها، وما دعاه الي وضعه ولمن وضعه، وفي أي حد من سنه. وقد سبقني إلي ترجمته إلي السريانية، أيوب الرهاوي المعروف بالأبرش ثم ترجمته أنا إلي السريانية لداود المطبب وإلي العربية لأبي جعفر محمد بن موسي، ولأن جالينوس لم يأت في ذلك الكتاب علي ذكر جميع كتبه أضفت إلي المقالتين مقالة ثالثة صغيرة بالسريانية بينت فيها أن جالينوس قد ترك ذكر بعض كتبه في ذلك الكتاب، وعددت كثيرا منها مما رأيته وقرأته ووصفت السبب في تركه ذكرها."

ومن هذا نفهم إلمام حنين التام بكل كتب جالينوس ومحتوياتها إلى الدرجة التى تجعله يشرح الأسباب التى دعت جالينوس إلى عدم ذكره بعضها فى فهرسه. ثم يقول حنين:

"وأما الكتاب الذي عنوانه في مراتب قراءة كتبه، فهو مقالة واحدة وغرضه فيها أن يخبر كيف ينبغي أن ترتب كتبه في قراءتها كتابا بعد كتاب من أولها إلي آخرها. ولم أكن ترجمت هذه المقالة إلي السريانية وقد ترجمها ابني لبختيشوع. وأما إلي العربية فترجمتها أنا لأبي الحسن بن موسي ولا أعلم أحدا ترجمها قبلي"

وواضح من كلام حنين أن هذا الكتاب خصصه جالينوس لشرح منهجه المتدرج فى قرائة كتبه وقد يذكرنا هذا بأحوال التعليم آنذاك حين كان يعتمد على المعلم والتلميذ ولم تكن هناك فصول مدرسية

أو مراحل دراسية. وكانت عملية التعليم تعتمد على التدرج فى قراءة الكتب تمشياً مع سن الطالب وتطور قدراته العقلية والنفسية على الفهم والاستيعاب.

أما" كتابه في الصناعة الطبية: هذا الكتاب أيضا مقالة ولم يعنونه جالينوس إلي المتعلمين، لأن المنفعة في قراءته ليست تخص المتعلمين دون المستكملين. وذلك أن غرض جالينوس فيه أن يصف جميع جمل الطب بقول وجيز وذلك نافع للمتعلمين وللمستكملين. أما المتعلم فكيما يسبق فيتصور في وهمه جملة الطب كله علي طريق الرسم، ثم يعود بعد ذلك في جزء جزء منه فيتعلم شرحه وتلخيصه والبراهين عليه من الكتب التي بالغ فيها في الشرح، وأما المستكمل فكيما يقوم له مقام التذكرة لجملة ما قد قرأه وعرفه بالكلام الطويل. وأما المعلمون الذين كانوا يعلمون في القديم الطب بالإسكندرية فنظموا هذا الكتاب بعد كتاب الفرق ثم من بعده في النبض إلي المتعلمين، وبعده المقالتين في مداواة الأمراض إلي اغلوقن وجعلوها كأنها كتاب واحد ذو خمس مقالات وعنونوها عنوانا واحداً عاما إلي المتعلمين. وقد كان ترجم هذه المقالة أعني الصناعة الطبية عدة منهم سرجيس الرأس عيني قبل أن يقوي في الترجمة. ومنهم ابن سهدا ومنهم أيوب الرهاوي وترجمته أنا بعد لداود المتطبب. وكان داود المتطبب هذا رجلا حسن الفهم حريصا علي التعلم. وكنت في الوقت الذي ترجمته شابا من أبناء ثلاثين سنة أو نحوها. وكانت قد التأمت لي عدة صالحة من العلم في نفسي وفيما ملكته من الكتب ثم. ترجمته إلي العربية لأبي جعفر محمد بن موسي. "

وإذا أنعمنا النظر فى الفقرتين السابقتين يمكننا أن نعرف كيف انتقل الاهتمام وتطور من فهرست جالينوس الى فهرست حنين بن اسحق، والذى أثبته فى الرسالة المذكورة، وكيف حوت هذه الرسالة كل ما يمكن تصوره حول مؤلف كل كتاب، ثم مترجمه أو مترجميه، وزمن كل واحد منهم ومستوى الترجمة، وأسماء الذين ترجمت لهم ومستوى هذه الترجمات. وبتعبير حنين نفسه" ومبلغ قوة كل واحد من أولئك المترجمين فى الترجمة، ولمن ترجمت ومن الذين ترجمت لهم كل واحد من تلك الكتب التى توليت ترجمتها. وفى أى حد من سنى ترجمته لأن هذين أمرين قد يحتاج الى معرفتهما إذ كانت الترجمة إنما تكون بحسب قوة المترجم للكتاب والذى ترجم له، وأى تلك الكتب مما لم يترجم الى هذه الغاية وجدت نسخته باليونانية وأيها لم توجد له نسخة أو وجد البعض منه"

ولعل البعض يتساءل عما يقصده حنين من عبارته، "إذ كانت الترجمة انما تكون بحسب قوة المترجم والذى ترجمت له "وهنا يضرب حنين مثلين نفهم منهما مقصده.

1–وقد كان ترجم هذه المقالة الى السريانية ابن سهدا ثم ترجمتها أنا لسلمويه من بعد ترجمتى لكتاب الصناعة, وبحسب ما كان عليه سلمويه من الفهم الطبيعى ومن الدراية بقراءة الكتب بها كان فضل حرصى على استقصاء تخلص جميع ماترجمته، بعد ذلك ترجمته إلى العربية لأبى جعفر بن موسى.

2–وعن الثانى يقول: وقد كان ترجمه الى السرياني سرجيس الرأس عينى ترجمة رديئة، ثم ترجمته أنا منذ سنيات ليوحنا ابن ماسويه، وقصدت فى ترجمته لاستقصاء معانيه على غاية الشرح والايضاح، وذلك أن هذا الرجل يحب الكلام الواضح.

من هذين المثلين نفهم أن مستوى قارىء الكتاب فى الفهم والادراك كان موضع اعتبار حنين فى اختيار اللغة والعبارات التى يترجم بها، من حيث البساطة والوضوح حتى يتمكن طالب الترجمة من فهمها. أما قوة المترجم فهى واضحة فى الفرق بين ترجمات حنين وترجمة سرجيس مثلا.

باختصار فإن نسق الفهرسة عند حنين يقوم على ذكر اسم الكتاب، واسم مؤلفه ومترجمه وتاريخ ترجمته ولمن ترجمه أيضا، ومستوى ترجمته أو ترجماته فى حالة إعادة ترجمته، علاوة على تحقيقه للنص، عن طريق جمع مخطوطاته المتوفرة ومقارنتها حتى يصل الى النص الصحيح، ثم يبدأ فى ترجمته.

فهذه الكتب التى كان يقتصر على قراءتها فى مواضيع تعليم الطب بالإسكندرية وكانوا يقرؤونها على هذا الترتيب الذى ذكره حيث يقول:" وكانوا يجتمعون كل يوم على قراءة إمام منها وتفهمه، كما يجتمع أصحابنا اليوم من النصارى فى مواضع التعليم التى تعرف بالاسكول فى كل يوم على كتاب إمام. إما من كتب المتقدمين وإما من سائر الكتب وإنما كانوا يقرؤونها الأفراد كل واحد على حدة، بعد الارتياض بتلك الكتب التى ذكرت كما يقرأ أصحابنا اليوم تفاسير كتب المتقدمين. وأما جالينوس فلم ير أن تقرأ كتبه على هذا النظام. لكنه تقدم فى أن يقرأ من كتبه بعد كتابه فى الفرق كتبه فى التشريح. ولذلك أنا مفتتح من ذكر كتبه بتعديد كتبه فى التشريح، ثم متبعها بسائر كتبه على الولاء وعلى النظام والترتيب الذى وضعه هو."

ومعنى هذا أن جالينوس كان يريد أن يقرأ الدارسون كتابه"فى الفرق الطبية" أولا ثم كتب التشريح بعد ذلك. وهو منهج يقوم على التدرج فى مراحل القراءة مما يساعد على ترابط المعرفة الطبية

وقد ذكر حنين عشرين كتابا من كتب جالينوس التى قام بترجمتها أوترجمها غيره, ومن هذا الشرح المفصل نتأكد من معرفة حنين الدقيقة بأساليب التعليم فى ثلاث مدارس فى عصره هى :

مدرسة الإسكندرية

مدرسة النصارى فى الرها ونصيبين

مدرسة جالينوس

هنا ندرك أن حنين بن اسحق كان تلميذاً نجيباً لجالينوس، رغم المسافة الزمنية التى تفصل بين كل منهما وقد ترجم حنين لأبقراط وغيره واقترنت هذه الأسماء جميعاً فى الحديث عن ترجمات حنين ومؤلفاته. ورغم ما كشفه المستشرقون عن أصالة حنين وبراعته فى الترجمة، وإضافاته لعلوم الطب وتفوقه الباهر فى طب العيون بصفة خاصة، الإ أن تلازم هذه الأسماء معا فى أغلب الأحوال يستلزم منا إجراء محاولة لفض هذا الاشتباك حتى نكشف عن طريق التسلسل الزمنى عن مكانة كل واحد من هؤلاء الرواد العظام فى تاريخ الطب، كما شرحه الآب جورج قنواتى فى كتابه

" تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط القاهرة 1959"

ومنه نستخلص بعض النقاط االتالية:

أبقراط والمدرسة الأبقراطية

"أبقراط هو بلا منازع من أعظم أطباء العالم فى التاريخ. وقد سماه العرب"أبو الطب" ورفعوا نسبه إلى عائلة أسقليبيوس. ولا يتردد ابن أبى أصيبعة الذى خصص له ترجمة طويلة فى تاريخه أن يشير إلى ما كان عليه من"التأييد الإلهى".

ولد أبقراط فى جزيرة (قوص) وهى جزيرة صغيرة من الجزائر اليونانية فى القرن الخامس ق م(حوالى 460) وكان الطب فى هذا الزمن لا يزال فى أيدى أناس تنقصهم الروح العلمية، كثيراً ما يلجئون إلى السحر والشعوذة، مستغلين سذاجة المرضى. وكان أبو قراط متضلعاً فى العلوم الطبيعية فأدخل الطب فى إطار علمى مستعملاً الفحص الاكلينيكى (clinical observation) والاستنتاج المنطقى.

وقد بنى علاجه على بعض المبادئ مثل: مبدأ الحيوية (vitalism) إذ يعتقد أبو قراط أن هناك عنصراً خاصاً غير مادى يحيا به الجسد هو النفس (psyche) وهو بمثابة نسيم عابر ينقرض بانقراض الجسد.

ومبدأ الأخلاط (humorism) المبنى على الاعتقاد بأن الأشياء مكونة من الأربع العناصر الأساسية: الحار البارد والرطب واليابس. فالجسم الانسانى مزيج متناسب من الدم والبلغم والصفراء، فإذا امتزجت هذه العناصر امتزاجاً محكماً فى الكيفية والكمية، وكان الامتزاج متناسباً تمتع الجسد بصحة جيدة. وهناك تماسك وتضامن فى أعضاء الجسم ووظائفه فإذا مرض عضو أثر على الجسم كله.

ثم المبدأ الطبيعى (naturism) أى محاكاة الطبيعة فى المعالجة. وهذا الم بدأ يشرف على جميع الوظائف الحيوية، ويقاوم العوامل الهدامة للجسم، وعلى الطبيب أن يساعد هذه الطبيعة لكى تقوم بعملها. ولقد وصف أبقراط وصفاً دقيقاً بعض الأمراض مثل السل والتشنج النفاسى (eclampsia) والصرع والحميات المختلفة. وفى وصفه المشهور، الطلعة الأبقراطية (facies Hippocratica)، أشار بدقة إلى العلامات التى تنذر بالموت المقترب. وقد وصف بدقة 42 حالة مرضية و25 منها مصيرها الموت.

وقد ظل علم الجراحة الأبقراطى فى بعض أقسامه لا يضارع حتى أواخر القرن الثامن عشر.
ومن أنبل مميزات أبقراط سمو أخلاقه فى مهنته كطبيب فظل قسمه المشهور رمزاً للأخلاق الطبية الراقية وارتفاعها عن الاندماج فى الشبهات التجارية.

بعد أبقراط

توفى أبقراط مخلفاً وراءه سلسلة من أطباء تشبعوا من مبادئه, ولكن شتان بين المعلم وتلاميذه ! فعلى مر السنين فقدت المدرسة الأبقراطية حيويتها واتخذت العناصر القليلة من الفيسيولوجيا الموجودة فى مذهبها الطبى أساساً لتفسيرات طبية منهجية لا تخلو من التصنع. فنهضت مدرسة

الإسكندرية التجريبية (empirical school) ضد هذا التيار العقلى المتزمت. وقد جمعت الكتب الأبقراطية ورتبت فى الإسكندرية، ولكن الطب هاجر بعد ذلك إلى روما التى أصبحت مركز الحضارة.

والذى حقق هذا الانتقال هو أسقلبيوس(Asclepius) (فى القرن الأول ق. م). كان طبيباً ذا شخصية قوية متضلعاً فى الطب والفلسفة وسرعان ما أصبح الطبيب الرسمى للطبقة الراقية فى روما. وكان يعتنق الفلسفة الذرية(atomism) للوقيبوس(Leucippus) وديمقريطس(Democritus) وإبيقور(Epicurus) والتى كان قد أدخلها الشاعر لوكريتوس(Lucretius) فى كتابه" فى طبيعة الأشياء(De Rerum Natural) إلى روما. وقد حاول أحد تلاميذ اسقليبيوس التوفيق بين النزعتين المتضادتين فأسس المدرسة المنهجيه، وأشهر ممثل لهذه المدرسة هو سورانوس الملقب بالذهبى (soranus of ephesus) (القرن الأول ق.م) وهو مؤسس فن الولادة وأمراض النساء.

وأول من كتب عن الأعشاب، طيبة كانت أم غير طيبة، هو ثيوفراسطس (Theophrastus) " أبو علم النبات" (372/–285 ق.م) وكان تلميذا لأفلاطون وصديق أرسطو. وكتاب ثيوفراسطس " البحث فى النبات " لم يترجم إلى العربية قط. وأول من اختص بالأعشاب الطبية هو ديسقوريدس (DIOSCORIDES) وهو طبيب يونانى ولد فى عين زربة (Anazarbe) قى آسيا الصغرى فى القرن الأول بعد الميلاد. وكان معاصراً لبلينى الكبير(pliny). وقد صاحب الجيش كطبيب فى تنقلاته فى بلاد البحر الأبيض المتوسط، مما سمح له بالاطلاع على أعشاب جديدة والتحقق الشخصى من صحة ما ورد فى كتب سابقيه عن المادة الطبية.

وقد جمع فى كتابه الملقب (كتاب الحشائش) وهو مكتوب باليونانية، كل ما ورد فى مؤلفات من سبقه من الأطباء فى المادة الطبية. وظل كتابه المرجع الأساسى (book standard) على ممر الأجيال للمفردات الطبية. فما من طبيب ذى قدر إلا ودرسه درساً مطولا وعلق عليه منذ جالينوس إلى ابن سيناء وداود الأنطاكى.

ويشتمل الكتاب على ما يربو على ستمائة عشبة وعدداً من الأدوية المعدنية والزيوت والأدهان ذات الفائدة الطبية. وقد أضاف تلاميذه، فيما بعد مقالتين خاصتين بالسموم ونسبوهما إلى أستاذهم. وقد ترجم الكتاب إلى العربية بمدينة بغداد فى الدولة العباسية فى أيام جعفر المتوكل847 م.

جالينوس:

ولد جالينوس فى برجامون (Pergamon) فى آسيا الصغرى عام 131 ميلادية، أى بعد أبقراط بخمسة قرون. وكان والده مهندساً ماهراً وديع الطبع لطيف المعشر بعكس والدته التى كانت فى منتهى الشراسة. ويقول جالينوس عنها:

" وقد تعودت أن تعض خادماتها وكثيراً ما كانت تغضب على أبى، مختلقة بلا انقطاع، المشاكل المفتعلة، فكانت معاملتها أسوأ من معاملة كسانتيب لسقراط. فلما قارنت فضل والدى بأهواء والدتى، صممت على أن أكتسب فضائله وأن أتجنب مساوئها"

وقد سمى المهندس ابنه" جالينوس" الذى معناه" المسالم أو الهادئ"، فصدق اختياره إذ وصل جالينوس إلى مرتبة عالية من الخلق ومن النبل فوفى بعهده بأن اقتفى آثار والده. وقد كانت برجامون فى ذلك الحين مدينة ثقافية عالية لا تسبقها إلا الإسكندرية فقط. فأتاحت لجالينوس أن يتثقف ثقافة فلسفية وطبية، فاعتنق المذاهب الفلسفية السائدة، وهى مزيج من آراء أرسطو وأفلاطون والرواقية والأبيقورية. وقام برحلات علمية إلى آسيا الصغرى والإسكندرية ومراكز طبية أخرى ويرى المؤرخ جون مارلو ان جالينوس كان واحداً من أعظم الأسماء التى خرجتهم مدرسة الإسكندرية فى عالم الطب. (كتاب "العصر الذهبى للإسكندرية" (ص 78)

وبعد أن أقام سنوات فى مسقط رأسه، دفعه طموحه إلى أن يذهب إلى روما حيث ظفر بسرعة على صيت لامع كطبيب وأستاذ فى التشريح. وكان من بين الذين عالجهم الإمبراطور مرقص أوريليوس نفسه. ولكن الحرب الشعواء التى أعلنها جالينوس ضد أطباء روما المشعوذين أو الجهلاء أثارت ضده عدداً كبيراً منهم فاضطر إلى أن يعود إلى برجامون، ولكن ألح عليه مرقص أوريليوس أن يعود مرة ثانية إلى العاصمة، فأذعن ومكث فيها إلى آخر حياته سنة 201 ميلادية.

ألف جالينوس عدداً كبيراً من الكتب الشاملة لجميع أقسام الطب فى زمانه كما ألف كتباً فلسفية وكان إعجابه بأبقراط عظيماً جداً ففسر أهم كتبه. وقد اقتفى آثاره فأبدى اهتماماً كبيراً بالفحص الإكلينيكي مستنداً قبل كل شئ على الوقائع الملموسة. وفى رأى الآب جورج قنواتى أن ثقافته الفلسفية كانت تغلب عليه أحياناً، فأوقعته فى استنتاجات منطقية بعيدة عن الصواب. ومعظم موقفه من علم الأمراض مبنى على النظريات الأبقراطية.

وقد أهتم كثيراً بالتجارب العلمية. وأجرى اختبارات للوقوف على طريقة عمل بعض الأعضاء مثل الكلى، والحبل الشوكى (spinal cord) وعلاقته بحركات الجسم، والحساسية، وطريقة التنفس، والنبض فأثبت عملياً أن الشرايين تحتوى على دم وتنقله. وقد اقترح تفسيراً فيسيولوجياً للأحلام مرتاباً فى أهميتها الطبية.

وقد ارتبط حنين بن اسحق بهذا التاريخ الطبى ارتباطا وثيقا إلا أن علاقته بجالينوس كانت أشد وثوقا إذ ترجم له كما رأينا خمسة وتسعين كتابا كما اقتفى أثره فى دراسة الأمراض وملاحظة الأعراض وحقق بذلك نجاحا باهرا جعله أهم أطباء عصره. كذلك اقتفى خطواته فى الفهرسة للكتب التى ترجمها أو ترجمها غيره ورسالته التى تحدثنا عنها فى بداية هذا الفصل تعد أهم وثيقة لمعرفة الكتب بل وحال التعليم وطريقته فى الإسكندرية وأنطاكية وبغداد.

الفصل الحادى عشر

11 تراث حنين في الأدب السريان

كانت اللغة السريانية هى لغة الحياة والفكر على مدى قرون وكانت لها مراكز كبيرة فى الشرق، نذكر منها حران والرها وجندى سابور، وفى هذه المدن نشأت مراكز الترجمة الفلسفية والعلمية على أيدى النساطرة.

لقد كانت حران مع المدن السورية المهمة الأخرى مراكز علمية تقوم فيها الدرسات العلمية والفلسفية والدينية – الكنسية. ولما جاء المسلمون حافظت تلك المراكز على مكانتها وأهميتها العلمية لجهل الفاتحين باللغة الإغريقية واللاتينية، التى يتقنها الكثير من أبناء السريان المسيحين منهم والوثنين. وقد أشار فيليب حتى إلى ذلك حين قال:

" ولكن العرب لم يعرفوا اليونانية، فاعتمدوا فى أول أمرهم على ترجمات أخرجها لهم اليهود والوثنيون والنصارى، وخاصة النساطرة من النصارى. وكانت طريقة هؤلاء الآخرين وهم سريان أن ينقلوا الكتاب اليونانى إلى لغتهم السريانية، ثم يترجموه بعدئذ من السريانية إلى العربية. وهكذا اصبحوا أعظم حلقة للاتصال بين الثقافة الهلينية وبين الإسلام. فالثقافة الهلينية لم تصل إلى العقل العربى إلا عن طريق اللغة السريانية."

ومما لا شك فيه أن اهتمامات الحرانيين من الصابئة والوثنين بالفلك والرياضيات، وتميزهم فيها يعود فى الأغلب إلى عبادة النجوم والكواكب السيارة والعناية بمواقيتها ومراقبة مواقعها ومدارات افلاكها. (د.حسين قاسم العزيز– دور المراكز الثقافية فى تفاعل العرب والمسلمين الحضارى)"

وفى الرها كانت تقوم دراسات ومجادلات دينية مذهبية، بين اليعاقبة، والنساطرة مما جعل دراسة الغلسفة والمنطق حاجة ضرورية للدفاع عن المذاهب الدينية ضد المخالفين.

كانت دوافع النساطرة السريان الى تعلم اللغة الإغريقية ودراسة العلوم اليونانية، فى المدن السريانية ضرورة حيوية لمواجهة ماكان يوجه اليهم من اضطهادات، من جانب الأورثوكس فى الإسكندرية وفى القسطنطينية. وقد كشف بروكلمان عن دوفع أعمق حين قال:" والواقع ان دراسة هذه العلوم لم تنقطع يوما من الأيام فى الأديرة السورية ذلك لأن لاهوت آباء الكنيسة الإغريقية، وفى

جملتهم ثاودورس المصيصى ذو الأثر العظيم فى التفسيرا لنسطورى للكتاب المقدس،لم يكن ليفهم من غير الرجوع إلى المصطلحات التى استمدها هذا اللاهوت من الفلسفة الارسطوطاليسية. ولكن الرياضيات والعلوم الطبيعية استطاعت دائما أن تحظى ببعض الاهتمام أيضا، على الرغم من ان العناية بالمسألة الفكرية كانت محصورة عند السوريين فى أيدى رجال الدين".

وقد اشتهر من أهل الرها يعقوب الرهاوى (640– 708م) الذى اصبح أسقفا عليها للمذهب اليعقوبى(684–688) والذى انصرف إلى التآليف وأعاد النظر فى ترجمة الكتاب المقدس المعروفة ب(البسيطة) وفى تتمة تاريخ (أوسابيوس القيصرى– 265 – 339) ومنهم ثيوفيلوس (ثاوفيل بن توما الرهاوى المارونى توفى 785م) الفلكى الذى أقام فى قصرالمهدى(ثالث خلفاء بنى العباس) وترجم الإلياذة والاوديسة إلى اللغة السريانية، وقد ترجم قسما من إلياذة هوميروس إلى العربية غير أنها لم تحدث –كما ذكر حتى – أدنى أثر فى حياة العرب الفكرية ولم تعمر طويلا , ومنهم ثيودوروس أبو قرة (ت حوالى 820 م) الذى ولد فى الرها وكان راهبا فى دير مارسابا (فى فلسطين) وتلميذ للقديس يوحنا الدمشقى, والذى اصبح أسقفا لحران وله مؤلفات جدلية مع الهراطقة واليهود والمسلمين بعضها باليونانية ومنها بالعربية، دافع فيها عن أهم العقائد المسيحية (نفس المصدر السابق)

جند يسابور:

لقد ساعد تواجد الأجانب من أسرى ومهاجرين، الذين كان غالبيتهم من السوريين السريان فى ايران، على توفر مستلزمات الدراسة العلمية. فمن ناحية،أعان هؤلاء امتلاكهم ناصية اللغة السريانية الأكثر شيوعا فى الأوساط العلمية فى تلك الازمان، على نقل التراث الاغريقى العلمى الفكرى بمختلف فروعه، وان كان نصيب الطبية منها أوفر. ومن ناحية اخرى، ساعدهم التواجد فى ايران على تعلم اللغة الفهلوية التى مكنتهم من الاطلاع والتزود بعلوم وفلسفة ايران والهند، حيث سبق وان نقلت عن السنسكريتية إلى الفهلوية معارف الهند العلمية والطبية وفلسفتها، فامتزجت بذلك معارف الشرق والغرب مما ساعد على توفر أساس القاعدة العلمية التى نهضت بها مدرسة الطب اليونانية السورية والتى نشأت فى جنديسابور فى عهد كسرى أنو شروان (531– 579 م) وكان لهذه المدرسة تأثير فيما بعد، حيث أمدت الخلفاء المسلمين بأمهر الاطباء المشهورين كالطبيب النسطورى جورجيس بن بختيشوع.

يقول الدكتور العزيز:

لقد ارتقى شأن مدرسة الطب الجنديسابورية حتى غدت مركزا ثقافيا مرموقا، لا بفضل مجاورتها لمستشفى كبير ولاهتمام ألا كاسرة بها فحسب، ولكن لأنها غدت ملجأ وملاذا للسريان المضطهدين الناقلين معهم كنوز المعرفة الإغريقية بالإضافة إلى نزوح (علماء الاغريق من اثينا عندما أغلق (جوستنيان) جميع المدارس الفلسفية فى 529 م، مما ساعد على تمازج وتفهم دقيق لمختلف الثقافات الاغريقية والهندية والفارسية، ومهد السبيل لكسرى أنوشروان ان يفيد من خبرات العقول المهاجرة والمستقرة عند إنشائه لمدرسة الطب آنفة الذكر.

فى ربوع هذه البيئة الثقافية نشأ حنين بن اسحق حيث ولد فى الحيرة، وتعلم مبادىء العلوم وكما يقول يوسف حبى، وتمكن من السريانية لغة كنيسته حتى أنه لبس الزنار وصار شماسا. وقد ساهمت هذه التربية الكنسية فى تكوين حنين الفكرى وظهر تأثيرها قويا فى كل التجارب والمحن التى تعرض لها حنين بن اسحق. ولكن تأثره بصناعة أبيه الصيدلى هى العامل الثانى فى ميله لدراسة الطب، وتحديه لسخرية يوحنا بن ماسويه مما دفعه لاتقان اليونانية بدرجة لم يبلغها أحد من معاصريه. كان من الطبيعى والحال هكذا أن يترجم حنين أكثر كتبه للغة السريانية خصوصا فى البداية، حين كان الاطباء السريان هم الذين يطلبون ترجمة الكتب الطبية اليونانية، اضافة إلى مايحتاجه أهل كنيسته النسطورية من كتب الفلسفة والمنطق. والمؤسف فى نفس الوقت أن معظم ترجمات حنين ومؤلفاته السريانية قد فقدت.

نقل براون عن كتاب الفهرست" أن حنينا كان فى الغالب يترجم من اليونانية إلى العربية رأسا. وكانت التراجم السريانية تعمل فى الغالب للأطباء والعلماء النصارى أمثال جبرائيل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه وسلمويه بن بنان وبختيشوع بن جبرائيل وذكريا الطيفورى وولده اسرائيل وشيريشع بن قطرب وسواهم. وكانت التراجم العربية تعمل لأعاظم المسلمين الذين اعتنق الكثير منهم الإسلام حديثاً أمثال على بن يحيى كاتم سر المتوكل على الله وصديقه، ومحمد بن عبد الملك الزيات وزير الخليفة المعتصم بالله، ومحمد وأحمد ابنى موسى اللذين كانا من مشاهير الرياضيين وعلماء الطبيعيات، وأحمد بن محمد بن المدبر والى مصر فى أيام المتوكل، واسحق بن إبراهيم الظاهرى والى خراسان فى أيام المأمون، واسحق بن سليمان أحد ولاة مصر السابقين.

ونحن نعرف من" رسالة حنين بن اسحق إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس" التى نشرها عبد الرحمن بدوى فى كتاب " نصوص ودراسات علمية " وكذلك من القائمة التى وضعها حنين وأكملها أحد تلاميذه، أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتابا، وترجم إلى العربية تسعة وثلاثين، وعدا ذلك فإنه راجع وأصلح ما ترجمه تلاميذه، وهى ستة إلى السريانية ونحو سبعين إلى العربية. وقد ترجم حنين كتاب" العهد القديم" أو " الإيمان " إلى السريانية مع التفسير المزعوم أنه لجالينوس، وشرح حنين بعض فقرات الكتاب الصعبة التى يرجح أنها لغير جالينوس.

يقول ما يرهوف ثبت فى النهاية قول بن القفطى أن حنينا ترجم إلى العربية كتاب العهد القديم من اليونانية وكان قد ترجم إلى العبرية خلال حكم بطليموس فيلادلفوس. وقد فقدت للأسف هذه الترجمة كما فقدت سائر تراجمه السريانية وشطر كبير من تراجمه العربية.

هذا الكلام كتبه مايرهوف فى كتابه الذى نشر فى أوائل القرن العشرين (1927) ومنذ ذلك الحين جرت فى النهر مياه كثيرة . فقد أخبرنى الدكتور يوسف زيدان مدير مخطوطات مكتبة الإسكندرية أن المكتبة بها مخطوطة لكتاب العهد القديم من ترجمة حنين بن اسحق (أثناء مناقشة بيننا فى إحدى جلسات نادى القلم الدولى بالمعهد السويدى بالإسكندرية (2004/1/28) علاوة على ذلك فقد قدم بروفسور أرثرفوبس بحثا فى مهرجان " أفرام وحنين " فى بغداد 1974 أعلن فيه عن اكتشافه لمخطوطات سريانية جديدة لحنين بن اسحق حيث يقول:

" إن التراث الأدبى لحنين بن اسحق قليل ونادر جداً، ويظهر أنه لم يعرف من تراثه السريانى حتى فى وقت تأليف " عبد يشوع " فهرسه الشهير إلا القليل، فلم يذكر سوى ثلاثة كتب لحنين هى: كتاب الخوف من الله، النحو السريانى ثم معجم سريانى مختصر.

إن هذه الندرة المتناهية انعكست بالمجاميع الكبيرة للمخطوطات السريانية فى أوربا. ففى مجموعة مخطوطات الفاتيكان بالسريانية ال(217) لم تحتفظ إلا مقتطفات من مقالة طبية لحنين، وهى بدون عنوان. وإذا أخذنا بعين الاعتبار مجموعة باريس، فإن فهرس (زوتنرج) لم يقدم أى قطعة سريانية لحنين. وهذا نفسه نجده فى مجموعة المتحف البريطانى العظيمة إذ أن فهرس (وليم رايت) الشهير لم يذكر حتى اسم حنين.

ومن هذه الحقائق الدامغة يستنتج بروفسور فوبس أن الماضى قد أحجم بصورة متناهية عن تحرير مقطوعات حنين فى التراث السريانى. ونتيجة لهذا كان فرحه كبيرا بما حققه من اكتشافات ثمينة أولها:

- هذا المخطوط المحفوظ فى كنيسة سانت مارى فى (هاربون) إذ يقول إن هذا المخطوط قد أكمل فى شهر نيسان من عام 1532 اليونانى أو فى شهر نيسان من عام 1221 العربى. وقد كتب فى قيصرية وأنه لم يصلنا مثل هذا الدليل القديم عن أعمال حنين. أما الفضلات القليلة جداً التى فى حوزتنا فهى أحدث من ذلك بقرون، وبذلك يحتل هذا الدليل مكانة فريدة بين الأدلة الخطية لتراث حنين الأدبى فى السريانية.

وترجع أهمية هذه المخطوطة فى نظر د. فوبس إلى أن نص هذه المخطوطة قد روجع على النص الأصلى فى نفس المدينة، وهى قيصرية بعد سنة من ذلك، ومن قبل الطبيب الربان الحسن، وأن هذه المخطوطة قد حفظت لنا مقالة بعنوان:

" لماذا توجد أربع أسطقسات" إنها مقالة فى مجال الطبيعيات، والمؤلفون العرب القدامى الذين نظموا قوائم بالأعمال التى قدمها حنين لم يذكروا هذه المخطوطة. فمن المحتمل أن تكون هذه المقالة جزء من ذلك الكتاب ولكن من المحتمل أيضا أن تكون مقالة مستقلة.

ليس هذا كل ما تحتويه تلك الوثيقة فهناك "كتاب آخر قادر على إثارة شغفنا كما يقول فوبس هو المقالة المعنونة سؤال عن الطبيعة الطبية، مقتطف من كتاب جالينوس وهو مزود بتوقيع حنين بن اسحق. ويعد هذا يضيف د فوبس بأن آخر نسخة فى مخطوطات (559) فى مجموعة (منكانا) المكتوبة عام 1930 قد رجعت إلى هذه المخطوطة.

أما المخطوطة الأخرى التى اكتشفها بروفسور فوبس، فقد جاءت كما يقول من مجموعة المخطوطات التى ظلت حية فى دار الكنز بدير الغفران. وخلال جميع العواصف التى كنست المسيحية السريانية. ومع ذلك فقد حفظت وثائق فريدة ولم تبق فى مكان آخر. لكن هناك كميات تدعو إلى الحيرة، ويبين د فوبس أن معظم هذه الوثائق النفيسة قد جاءت من هذه المجموعة. ومن بين هذه

الوثائق هناك جزء ضخم يحتوى على نوع من أصل الكتب فى العلوم الطبيعة والطبية، كما أن هذه المخطوطة تتضمن كتب حنين الثلاثة ذاتها، وهى التى ذكرها فى أول هذا البحث (الخوف من الله، النحو السريانى، ثم معجم سريانى مختصر)

وفى رأى الباحث السعودى احمد بن محمدين عبدالله الذيبانى فى كتابه:
"حنين بن اسحق– دراسة تاريخية ولغوية" (الرياض 1993م)

أنه لم ير أحداً ممن كتبوا عن حنين قداهتم بنشاط حنين اللغوى. ويقول إن بحثه هو أول محاولة لرصد مؤلفاته اللغوية، وتحقيق بعض الروايات التاريخية، وهو قول يحتاج إلى الدقة لأن هناك محاولات عديدة جرت فى هذه الناحية منها: ما كتبه الأب جورج شحاتة قنواتى فى كتابه" تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط (القاهرة سنة 1959)"

ثم مقاله أيضاً عن "أدوية العين عند حنين بن اسحق" وكذلك بحث " الدكتور إبراهيم السمرائى" (بين العربية والسريانية) وكتاب للباحث العراقى الدكتور رشيد الجميلى بعنوان" حركة الترجمة فى المشرق الإسلامى فى القرن الثالث والرابع للهجرة" وقد قدم فيه نقداً واعيا لبعض الروايات التاريخية الخاصة بدراسة حنين للعربية، إضافة الى دراسة الدكتور فيصل دبدوب وعنوانها " أثر مدرسة جنديسا يور فى المصطلحات الطبية لحنين" وقد ألقيت فى مهرجان (أفرام وحنين) أيضا.

ولكن والحق يقال ان دراسة الذبيانى تتميز فى الناحية اللغوية بالسعة والشمول وتتعمق فى وجوه المقارنة اللغوية بين ألفاظ حنين ومصطلحاته العربية، وبين نظائرها فى اللغات اليونانية والسريانية. حيث أفرد الذبيانى لذلك مجلداً كاملاً هو المجلد الثانى من كتابه" حنين بن اسحق – دراسة تاريخية ولغوية" (الرياض 1414 هـ/ 1993م) وركز جهوده على دراسة ثلاثة أمورهامة هى:

1- بنية المصطلحات العلمية عند حنين واشتقاقها ومطابقتها لقوانين الصناعة اللغوية.
2- الألفاظ العربية والمولدة فى مصطلحات حنين بن اسحق.
3- المعرب والمصطلحات الأعجمية وطرق التعريب فى مترجمات حنين بن اسحق.

والأستاذ الذبيانى مؤلف هذا الكتاب الحافل يعمل محاضرا يقسم النحو والصرف وفقه اللغة بجامعة الامام محمد. ولا يستطيع ناقد جاد أن ينكر على هذا الباحث جوانب الجدة والطرافة والتعمق فى هذه النواحى، خصوصاً تلك المقارنات اللغوية التى ينفرد بها كتابه. ومن الملاحظات الهامة أن الأستاذ الذبيانى لم يذكر أيا من المخطوطات التى اكتشفها بروفسور فوبس عن مؤلفات حنين الأدبية والعلمية التى ذكرناها فى صدر هذا الفصل واقتصر على ذكر أسماء ستة مؤلفات أخرى لحنين هى:

- **كتاب أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين– مقالتان (ذكره ابن النديم والقفطى وابن أبى أصيبعة)**
- **رسالة عن المترادفات: ذكرها مراد كامل فى تاريخ الأدب السريانى" ص 322، 323 – وهى بالسريانية وقد وجد منها مقتطفات عند جامع متأخر.**
- **كتاب فى النحو ذكره بن ابى أصيبعة ص 273 ولم يبين أى نحو هو؛ العربى أم السريانى.**
- **كتاب فى مسألة العربية:(هكذا عند ابن أبى اصيبعة) 273.**
- **معجم سريانى ,أورده مراد كامل فى تاريخ الأدب السريانى ص 322 يصفه الذبيانى بأنه عمل لغوى رائع إذ ذاك استفاد منه عيسى بن على (بر على) تلميذ حنين فى معجمه. واستفاد منه فيما بعد عيسى بن البهلول أعظم مؤلفى المعاجم السريانية.**
- **كتاب النقط– مراد كامل (تاريخ الأدب السريانى) 322 وهو فى النحو السريانى، وقد أودعه ابن العبرى فى كتابه (مخزن الأسرار) كما وضعه إلياس الطبرهانى فى كتابه" النحو" واسم كتاب حنين بالسريانية (وربما يكون هذا الكتاب رقم (3) وقد ذكر بولى كراوس (ت 1945) ان هذا الكتاب قد جرى ذكره فى مناظرة الكاتب السريانى إيليا النصيبى (ت 1049م) مع عامل نصيبين (مخطوط باريس، المكتبة الأهلية) ورجح كراوس أن يكون كلام إيليا فى نقد الخط العربى منقولاً من حنين.**

ومن النتائج التى توصل إليها الذبيانى نذكر:

- **إن حركة الترجمة السريانية لم تتوقف بظهور الإسلام أو قيام حركة الترجمة إلى العربية بل ظلت مستمرة نشطة. وعاصرت حركة الترجمة العربية وانحدرت بانحدار هذه بعد القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)**
- **إن حركة الترجمة العربية قد تأثرت بالترجمة إلى السريانية فى نواح عدة أهمها:الترجمة الحرفية (Literal Translation)**
- **اقتراض بعض المفردات والأساليب السريانية.**

المنهج واقتناء الكتب.

ثم يقول الذبيانى إن حركة الترجمة إلى العربية قامت لوجود أسباب عديدة مختلفة كالباعث الحضارى واختلاف العقائد ودخول أجناس عديدة فى الإسلام وتوفر الحرية الفكرية. ولكن السبب الذى يهمله الدارسون كثيراً هو غلبة اللغة العربية على غيرها من الألسن حتى صارت لغة الحياة والفكر، فدفع هذا غير العرب إلى نقل تراثهم إليها ليحيا ويبقى بعد أن اندرست لغاتهم أو تراجعت.

مكنت حركة الترجمة اللغة العربية من أن تصبح وعاء لجوانب عديدة من الفكر الإنسانى القديم عامة وليس العربى فقط. وحفظت لنا كثيرا من النصوص التى ضاعت أصولها الأولى.
كان لحركة الترجمة آثار مختلفة فى الحضارة والفكر وكان تأثيرها على اللغة العربية، كما يقول الذبيانى نافع وضار، يتمثل التأثير النافع فى نمو الثروة اللفظية وبناء المصطلح العلمى للغة العربية، مما ادخلها فى ميدان العلوم العلمية ثم إيجاد الأسلوب العلمى وشيوعه عند العرب.

أما الأثر الضار فيتمثل فى دخول كثير من المفردات الأجنبية إلى العربية دون ضرورة ملحة لذلك، إضافة الى شيوع أساليب المنطق فى بعض المؤلفات والكتب. وهذا الكلام الأخير يحتاج الى نقاش جاد فلا يمكن اعتبار أساليب المنطق شيئا ضارا لأى لغة لأن المنطق من أساسيات بناء الجملة المحكمة المفيدة والمقنعة. وبغيرالمنطق لايمكن الوصول الى الأسلوب العلمى.

العلاقة بين العربية والسريانية:

إن فهم هذه العلاقة يعد أمرا بالغ الأهمية فى هذا المجال، لفهم عمليات التلاقح الثقافى وتطور عملية الترجمة. وقد تناوله د إبراهيم السمرائى بدراسة هامه نقتطف منها بعض الفقرات حيث يقول:

كان للغة السريانية مقام واضح فى الحضارة العربية ذلك أن السريان الأوائل قد نقلوا الفكر الاغريقى إلى العربية. ومن ثم فقد كانت لغتهم السريانية مصدراً من مصادر المعرفة التى تزود بها المسلمون وعرفوا من خلال هذه اللغة فلاسفة الإغريق. إذن لا بد من معرفة هذه اللغة العريقة.

ثم يشير إلى قول المستشرق الفرنسى رينان فى كتابه (Histoire generale des

(langues semitiques أن الآرامية ويريد بها السريانية قد طمست فى القرن السادس قبل الميلاد كل اللغات التى سبقتها، وأصبحت هى اللغة الأولى خلال أحد عشر قرنا، وهى المعبر الأول للعقلية السامية.

كذلك يشير إلى قول الأب هنرى لا منس اليسوعى فى مقال له فى مجلة المشرق سنة 1903: ومن عجيب الأمور ان انتشار لغة الآراميين بلغ على عهد السلوقيين مبلغا عظيما فأصبحت اللغة السائدة فى كل آسيا السامية؛ أعنى فى سوريا وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق (كذا) وجزيرة العرب. وكان المسلمون يدرسونها لكثرة فوائدها. وقد كتب بها الأرمن مدة قبل انتشار الأرمينية وحروفها. وقد بلغ امتداد هذه اللغة اقاصى الشرق فى الصين شمالا وفى الأقطار الهندية جنوبا كما أنها بلغت جنادل النيل. فلا نظن ان لغة أخرى حتى ولا اليونانية جارت السريانية فى اتساعها اللهم ألا الإنكليزية فى عهدنا لحاضر.

وهنا يقول السامرائى:

ان ما نقلته من كلام رينان ولامنس لا يخلو من مبالغة، ولكننا نفيد من ذلك ان السريانية كانت لغة عامرة فى أقطار شاسعة من بلاد العرب قبل ان تظهر الدعوة الإسلامية. لقد ظلت السريانية نشيطة حتى جاء الفتح الإسلامى، فاخذ يسرى إليها الضعف لاتصال أهلها بالعرب. وهكذا تغلبت عليها العربية فى القرن العاشر، وبقيت السريانية لغة دينية مقرها الكنيسة حيث تقام بها الصلوات وتلقى بها الخطب والمواعظ ومازالت مستعملة فى كنائس السريان والكلدان والموارنة إلى اليوم.

وقد تغلبت العربية على السريانية فى المدن وما جاورها بسبب كثرة العرب فيها ومخالطة أهلها لهم. أما الأماكن التى لم ينزلها العرب فلا يزال أهلها يتكلمون الآرامية إلى الآن. ومن هذه الأماكن بعض القرى والمدن شمالى العراق وفى لبنان وسوريا. وفى لبنان ظلت السريانية اللغة العامة زمانا طويلا بعد القرن العاشر مع قربه من عاصمة الخلافة العربية على عهد الأمويين، واستمر أهلها فى بعض جهاته العالية المنعزلة يستعملون السريانية حتى بعد القرن الثامن عشر.

ومما تجدر الإشارة إليه ان عددا لا يحصى من الألفاظ الكنسية المنقولة عن السريانية ما زال مستعملا عند الخاصة والعامة من نصارى العراق وسوريا ولبنان مما نستطيع ان نجرد منه معجما

صغيرا فى الألفاظ النصرانية. وقد فعلت ذلك فى رسالة خاصة. ومن المفيد ان اجتزئ من هذه الألفاظ الكثيرة أمثلة موجزة هى:

الشماس والقسيس والكاهن والهيكل والمعمودية والمعمدان والإشبين والقداس والقربان والطبليت والزياح والناقوس والدنح والفصح وغيرها مما سطرته فى رسالتى المشار إليها.

وما زالنا نجد طائفة ضخمة من أسماء المدن والقرى والاعلام وغيرها باقية على اصلها السريانى، منها صيدا وتعنى الصيد، وباصيدا اى بيت الصيد " وعانا" اى الغنم و" وعين طورا" اى عين الجبل و" برمانا "اى محل الرمان و" بكفيا" اى محل الحجارة و"بتد ين": اى بيت الدين والحكم و" بزمار" " محل الترنيم و" ماردين" اى الحصون اوالقلاع و"جزين " اى الكنوز "وكفريا "اى القرى و "راشيا" أى الرؤس و"فاريا " اى الثمار وغيرها من الأسماء التى ما زالت تحتفظ بالصورة السريانية الآرامية. ومن غير شك ان طائفة من أسماء الأمكنة العراقية هى من هذا القبيل.

الفصل الثانى عشر

`````

## 12- مؤلفات حنين الفلسفية والدينية

### مدخل:

**يشير ابن ابي أصيبعة إلى مؤلفات حنين فيقول:" وله توا ليف مثقفة بارعة" ويذكر منها:**

**1-كتاب في كيفية إدراك الديانة.**

**2-كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء.**

**3-كتاب في المنطق.**

**4-رسالة في دلالة القدرعلي التوحيد.**

**5-مقالة في خلق الإنسان.**

**6-كتاب فيما يقرا قبل كتب أفلاطون.**

**7-كتاب في تاريخ العالم والمبدأ والأنباء والملوك والأمم والخلفاء في الإسلام.**

**8-رسالة فيما أصابه من المحن والشدائد.**

**9-كتاب الي علي بي يحيي جواب كتابه فيما دعاه إليه من دين الإسلام.**

**10-جوامع تفسير القدماء اليونانيين لكتاب أرسطوطاليس في السماء والعالم.**

**11-جوامع الست مقالات الباقية من كتاب السياسة.**

**12-شرح كتاب الفراسة لارسطوطاليس.**

**أما كتابه الموسوم (إدراك حقيقة الديانة) وهي رسالة جدلية يمكن أن يفهم منها، كما يشير الأستاذ شتروهماير مناظرة وحوار حول الدين الاسلامي، وحسبما يقول الدكتور عمر فوزى:**
`````

"وفي اعتقاد معظم الباحثين ان السبب الرئيسي وراء محنة حنين بن اسحق في عهد المتوكل هو ما عرضه من آراء في الفلسفة والمنطق والدين. فقد منع هذا الخليفة الكلام في الفلسفة والمنطق، ولذلك كان لابد أن يضيق علي الفلاسفة وعلماء المنطق ومنهم حنين بن اسحق الذي أعتبر خطرا علي المجتمع، من وجهة نظر السلطة العباسية، بما يبثه من أفكار فلسفية تدعو الي التشكيك في العقيدة. هذا بالإضافة الي رسالته الجدلية والتي ناقش فيها بطريقه ذكية بعض المسائل الإسلامية. ومن هنا يأتي اتهامه بالزندقه. ولعل محنته تذكرنا بمحنة عبد الله بن المقفع في عهد المنصور. فكلا الرجلين كان مفكرا وفيلسوفا بارعا في إيصال آرائه إلي الناس حاذقا فى اللغة العربية."

ويهمنا قبل الدخول فى حديث المجادلات الفلسفية والدينية أن نعرف شيئا عن تاريخ الحوار بين المسحيين والمسلمين.

لقد بدأ الحوار الدينى بين المسيحية والإسلام فى عهد الخليفة المهدى، ثالث خلفاء الدولة العباسية الذى تولى الحكم فى بغداد بعد المنصور من(159 إلى 169) هـ (775-785 م). وقد جرت أول محاورة بين الخليفة المهدى وبين طيماثاوس الأول، الذى يصفه الأب لويس شيخو بأنه اعظم جثالقة الكلدان النساطرة الذى دبر ملته مدة 43 سنة فى أيام الخلفاء المهدى ثم الهادى ثم الرشيد إلى أيام المأمون وتوفى سنة823 م. وله عدة أثار باللغة الكلدانية نشر بعضها. والمحاورة التى بين أيدينا نشرها وقدم لها الأب لويس شيخو الذى يقول إنها كتبت باللغة الكلدانية ثم عربت بعد وفاة طيماثاوس بزمن، ويظهر فى شروحها ومضامينها من المعانى البليغة والأجوبة السديدة ما يدل على سعة علم صاحبها، ورسوخ قدمه من أمور الدين رغما عن مذهبه النسطورى.

وهذه المحاورة كانت فى الأصل رسالة وجهها طيماثاوس إلى أحد أصدقائه، يقول فيها هكذا أننا قد دخلنا قبل هذه الأيام إلى حضرة ملكنا المظفر وعندما تكلمنا عن الطبيعة الإلهية وأزليتها قال لنا الملك ما لم نسمعه قط وهو: أيها الجاثليق، لا يليق برجل مثلك عالم وذوى خبرة ان يقول عن الله تعالى إنه اتخذ امرأة وولد منها ابناً.

فجاوبناه قائلين: يا أيها الملك المحب الله من هو ذاك الذى أتى بكذا تجديف عن الله عز وجل؟

فحينئذ الملك المظفر قال لى: ان المسيح هو كلمة الله الذى ظهر بالجسد لأجل خلاص العالم ثم سألنى ملكنا المظفر: أما تعتقد ان المسيح هو ابن الله فقلت اننا نعتقد ذلك دون شك لأنه هكذا

تعلمنا من المسيح نفسه، اذ هو مسطور عنه فى الإنجيل والتوراة والأنبياء أنه ابن الله لكن ولادته ليست كالولادة الجسدية بل هى ولادة عجيبة تفوق إدراك العقل ووصف اللسان كما يليق بالولادة الإلهية. فسأل ملكنا المظفر: وكيف ذلك؟

فقلنا إن المسيح هوابن الله ومولود قبل كل الدهور فلا نستطيع ان نفحص عن هذه الولادة ولا أن ندركها لأن الله غير مدرك فى جميع صفاته. ولكن نأتى بتشبيه ما مأخوذ من الطبيعة فكما تتولد الأشعة من الشمس والكلمة من النفس هكذا المسيح بما أنه كلمة الله ولد من الأب قبل كل الدهور.

فقال لى ملكنا المظفر: أما تقول إن المسيح ولد من مريم البتول؟

فجاوبنا قائلين: اننا نقول ونعتقد بأن المسيح مولود من الأب بما أنه كلمته، ومولود من مريم العذراء بما أنه انسان. فولادته من الأب هى أزلية قبل كل الدهور، وولادته من مريم هى زمنية دون أب ومن غير زواج وبدون انثلام بتولية امه.

فملكنا محب الله قال لى: إن ولادة المسيح من مريم بغير زواج هى مكتوبة ومقررة، ولكن كيف يمكن ان تكون هذه الولادة دون انثلام بتولية الوالدة؟

فجاوبنا الملك وقلنا: ان هذا الأمر نظراً إلى الطبيعة هو محال وغير ممكن أن يصير دون انثلام البتولية، ولا يمكن ان يولد انسان ولا أن يحبل به أصلا بغير اشتراك رجل مع امرأة. واما نظراً إلى قدرة خالق الطبيعة فمستطاع أى بتول ان تلد بدون انثلام بتوليتها لأن الله سبحانه قادر على كل شئ وليس عنده أمر عسير. ولنا برهان على ذلك فى الكتاب وفى الطبيعة اللذين يوضحان لنا أنه يمكن ولادة إنسان دون انثلام بتولية الوالدة (أولا) من الكتاب قد سطر ان حواء قد أخرجت من ضلعة أدم دون ان تنشق ضلعه والمسيح عليه السلام قد صعد إلى السماء بدون ان يشق الجلد. فهكذا مريم البتول ولدت ابنها دون ان تنثلم بتوليتها ويعتريها ضرر. (ثانيا) من الطبيعة فإن الأثمار تولد من الأشجار والنظر من العين والروائح من الزهور دون انشقاق وانفصال بعضها عن بعض، وكذا تولد الأشعة من الشمس. فعلى هذا المنوال قد ولد المسيح من مريم دون ان تنثلم بتوليتها، وكما أن ولادته الأزلية فائقة عن العقل هكذا ولادته الزمنية هى عجيبة. فقال لى ملكنا: كيف ذلك؟ أزلى ولد زمنياً؟

فجاوبناه قائلين: إن المسيح ليس بما انه ازلى مولوداً من مريم بل بما أنه زمنى وبشرى.

فحينئذ قال لى ملكنا المظفر: فالمسيح إذا هو اثنان الواحد زمنى والآخر أزلى. فالأزلى هو إله من إله حسب قولك والزمنى هو إنسان من مريم.

فجاوبنا قائلين: أيها الملك ان المسيح ليس باثنين ولا بابنين بل مسيح واحد وابن واحد ذو طبيعتين إلهية وإنسانية من حيث هو كلمة الله واتخذ جسداً بشرياً وصار اانساناً.

وعندها قال الملك : بل المسيح هو إثنان الواحد مخلوق ومصنوع والأخر ليس كذلك فقلت له :إننا نقر بأن المسيح ذو طبيعتن مميزتين إحداهما من الأخرى. ولكن نعتقد ونقر أنه من هاتين الطبيعتين مسيح واحد وابن واحد يعرف.

وملكنا جاوبنا قائلا فإن كان المسيح واحد فليس باثنين وإن كان اثنين فليس بواحد.

أما نحن جاوبناه على ذلك بهذا البرهان وهو: كما أن الانسان هو واحد من جهة التركيب والاتحاد، وهو اثنان أيضاً من جهة النفس والجسد اللذين هما طبيعتان مميزتان إحداهما مركبة ومنظورة والأخرى بسيطة غير منظورة، هكذا كلمة الله بتجسده صار ذا طبيعتين مميزتين إحداهما إلهية والأخرى انسانية كما قلنا، ومع ذلك لا يزال ان يكون مسيحاً واحداً وابناً واحداً من أجل وحدانية شخصه.

وهذا نموذج للأسئلة التى طرحها المهدى وللأجوبة التى قدمها الجاثليق طيماثاوس (أي الأسقف) والأسئلة التى طرحها الخليفة أسئلة شديدة الذكاء واللباقة تدل على ثقافة عميقة ومقدرة فائقة على الحوار والمجادلة. اوقد اشتملت هذه المحاورة على أهم الانتقادات التى توجه إلى المسيحية من جانب المسلمين بصفة خاصة. بعد ذلك توجه الخليفة الى الجاثليق بسؤاله عن النبى محمد وماذا يقول عنه؟ فأجابه الجا ثليق قائلا إنه لم ترد فى كتب النصارى أية معلومات عنه وبالتالى فإنه لايستطيع أن يقول عنه شيئا، فازور الخليفة وغير الحديث لكنه لم يسىء أبدا الى الجاثليق.

والجزء الذى قدمناه هنا لا يزيد عن صفحتين من خمسة وعشرين صفحة، غطتها المحاورة بين المهدى وطيماثاوس. إن من يتأمل إجابات طيماثاوس الواضحة والصريحة يتأكد انه كان يحس بقدر كبير من الآمان. ويؤكد ذلك أن الجاثليق طيماثاوس ظل فى منصبه الدينى 38 عاما بعد وفاة المهدى ودون أن يصيبه أذى. ومعنى هذا ان نظرة المهدى ومن جاء بعده من الخلفاء إلى المسيحين عموماً كانت نظرة احترام وتقدير على عكس نظرتهم للمخالفين الأخرين من أصحاب الزرادشتيه والمانوية.

ففى عهد المهدى جرت أكبر مطاردة للزنادقة، وكانت تهمة الزندقة توجه للمجوس والمانويين، وقد ارتبطت هذه التهمة بالحركة الشعوبية المعادية للعرب. وهذا ما يؤكده عبد الرحمن بدوى فى كتابه " من تاريخ الإلحاد فى الإسلام "حيث يشير إلى اضطهاد الزنادقة فيقول:

إن المصادر لا تسمح لنا بتتبع هذا الاضطهاد إلا فى الفترة القليلة التى مضت بين سنة 163 هـ إلى سنة 170هـ، أى فى السنوات الأخيرة من خلافة المهدى وإبان خلافة الهادى القصيرة الأجل (ص 40).

ففى سنة 163 بدأت حملة المهدى العنيفة على الزنادقة بأن أمر عبد الجبار المحتسب بالقبض على الزنادقة الموجودين داخل البلاد، وأمر بقتل بعضهم وتمزيق كتبه. واستمر الخليفة فى هذا الاضطهاد فى السنوات التالية حتى بلغ غايته فى الفترة بين سنة 163هـ سنة 170هـ. وكان يقوم على أمر هذا الاضطهاد (قضاة مخصوصون).

وفى هذا السياق يذكر الدكتور عبد الرحمن بدوى مناظرة أخرى لأحد المسيحين فى كتاب له يقرنه بكتاب " الزمرذ " لابن الراوندى ويقول " أما النظائر الحقيقية لكتاب" الزمرذ" فنجدها فى مؤلف هو آخر ما يمكن تصورها فيه، وذلك هو دفاع النصرانى المشهور الذى كتبه عبد المسيح الكندى. وقد نشر كتابه من عشرات السنين وقام بالبحث فيه موير ومؤلف الكتاب نسطورى يدعى أنه عاش فى بلاط المأمون الذى لا بد أن تكون عواطفه نحو المخالفين فى الرأى والعقيدة قد احتملت نقد المؤلف العنيف للإسلام. ويدلل الدكتور بدوى على حقيقة هذا الكتاب فيقول:

واقدم شاهد على وجود هذا المؤلف البيرونى الذى يذكره فى تاريخه تحت عنوان " جواب النصرانى عبد المسيح بن اسحق الكندى على كتاب عبد الله بن اسماعيل الهاشمى" من تاريخ الالحاد فى الإسلام (ص151- 152)م

وهذا الكتاب الذى يذكره الدكتور عبد الرحمن بدوى تحت يدى الآن، والنسخة وجدتها صدفة فى مكتبة إحدى الكنائس بمدينة بوسطن والكتاب مطبوع فى مكتبة" نور الحياة" بالنمسا، بعنوان:

رسالة عبدالله بن اسمعيل الهاشمى إلى عبدالمسيح الكندى يدعوه فيها إلى الإسلام ورسالة الكندى إلى الهاشمى يرد بها عليه، ويدعوه إلى النصرانية فى أيام الخليفة العباسى المأمون سنة 247هـ-861م.

وفى صدارة الكتاب يقول الناشر:

فى القرن التاسع الميلادى، فى زمن الخليفة عبدالله المأمون، كتب مسلم تقى هو عبدالله بن اسماعيل الهاشمى رسالة لصديق له مسيحى، هو عبد المسيح بن اسحق الكندى، يدعوه فيها إلى الإسلام، وكان عبدالله معروفا بالتقوى وشدة القيام بفروض الإسلام، كما كان عبد المسيح مشهورا بتقواه وتمسكه بالمسيحية، كما كان فى خدمة الخليفة مقربا إليه.

وقد ذكر الرسالتين أبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتابه" الأثار الباقية عن القرون الخالية"

وقد قيل إن أمر الرسالتين بلغ الخليفة المأمون، فأمر بإحضارهما وقرئتا عليه. فلم يزل ناصتا حتى جاء إلى آخرهما فقال: " وماكان دعاه إلى أن يتعرض لما ليس من عمله حتى أجاز كتاف نفسه. فأما النصرانى فلا حجة لنا عليه، لأن الأمرلولم يكن عنده هكذا لما أقام على دينه. والدين دينان: أحدهما دين الدنيا، والآخر دين ألاخرة. أما دين الدنيا فالدين المجوسى وما جاء به زرادشت. وأما دين الآخرة فهو دين النصارى وما جاء به المسيح. وأما الدين الصحيح فهوالتوحيد الذى جاء به صاحبنا. فإنه الدين الجامع الدنيا والآخرة."

وقد نشرت جمعية ترقية المعارف المسيحية فى لندن هذه المخطوطة عام 1885، وأعيد نشرها بالقاهرةعام 1912.

تأتى المحاورة الثالثة فى الرسالة التى وجهها الآب ايليا مطران نصيبين المعروف بابن شينا ويقال برشينا او ابن سنى المتوفى سنة 1049 للميلاد يذكر فيها سبعة مجالس جرت بينه وبين الوزير أبى القاسم الحسين بن على المغربى لما قدم إلى نصيبين سنة 417هـ (1026م). وسأل أسقفها أن يشرح له المعتقدات النصرانية ففعل. وكانت هذه المجالس محاورات دينية عاد إليها بن شينا فكتبها وأرسلها سنة 418هـ إلى ابى العلاء صاعد. وكان أبو العلاء صاعد أخا للأسقف إيليا وأحد أطباء الوزير أبى القاسم الذى كان قد توفى فى تلك الأثناء.

يقول المطران إيليا فى رسالته إلى أخيه أبى العلاء صاعد "وكان كتابى تقدم إليك آدام الله توفيقك أذكر فيه حال المجالس التى جرت بحضرة الوزير أبى القاسم الحسين بن على المغربى رحمه الله. وإنى علقت جملة كل ما جرى فى كل مجلس فيها لأشرحن لك مفصلا وتأخر ذلك إلى هذه الغاية لعذر لا لإخفائه عنك. وأنا اشرح فى هذه الرسالة ما جرى مجلسا مجلسا لتقف عليه بمشيئة الله.

وإذا تأملنا هذه المناظرات أو المحاورات الثلاثة نجد أن الأولى كانت تحوى دفاعا عن المسيحية وأصول عقائدها موجه للخليفة المهدى رداً على أسئلته الذكية والمحرجة للجاثليق طيماثاوس، وأما الثانية فكانت مواجهة فيها انتقاد حاد لشعائر الإسلام من النصرانى عبد المسيح

الكندى. أماالثالثة فهى عبارة عن سبعة مجالس دار فيها الحوار بين مطران نصيبين والوزير أبن ابى القاسم المغربى.

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على مساحة الحرية والأمان التى أتيحت لمثل هؤلاء المجادلين ضمن مناخ ثقافى وسياسى عام يرحب بحرية التفكير والتعبير. وقد استمر هذا الحال فى عصر المأمون" مما شجع حنين بن اسحق على العمل الجدى المستمر سواء كان ترجمة أو تأليفا، حتى تغير المناخ السياسى، واشتدت الإجراءات التعسفية ضد المخالفين لمذهب المعتزلة وعذب الكثير منهم. فكان لذلك ردود فعل عنيفة اضطربت بسببها الأحوال وانشغلت السلطة عن العلم والثقافة بقمع الاضطرابات الداخلية التى أحدثتها المحنة. ومن ثم تزايد نفوذ الجند الأتراك فى العاصمة. هذا إضافة إلى أن المعتصم كان رجلا عسكريا من الطراز الأول، فلم تكن لديه اهتمامات علمية أو ثقافية رغم ابقائه على سياسة أخيه المأمون الاعتزالية. وقد بلغت الأزمة ذروتها فى عهد المتوكل وهو مايشرحه الدكتور فاروق عمر فوزى بقوله:

وصل المتوكل إلى الخلافة بترشيح ومساندة بعض القادة الأتراك فى الجيش العباسى بعد منافسة قوية بين هؤلاء القادة العسكرين وبين البيروقراطية المدنية التى تضم كبار كتاب الدواوين فى الدولة وتزعمها الوزير ابن الزيات. ويعتبر عهد المتوكل انبعاثا لمذهب " أهل السنة والجماعة " ونهاية المعتزلة. ففى سنة 234هـ / 848 م أصدر المتوكل مرسوما أعلن فيه إنهاء المحنة وفرض حظراً على المناقشة حول طبيعة القرآن، كما أصدر منشوراً آخر سنة 235هـ /848م يدعو فيه إلى " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" ويهاجم المعتزلة وفرقا أخرى، وهكذا يعتبر المتوكل من الخلفاء الذين ساعدوا على بلورة مذهب جديد رسمى هو مذهب" أهل السنة والجماعة"

وكان من موجبات السياسة الجديدة التى انتهجها المتوكل تشجيع الكتاب وأصحاب القلم على الكتابة والدعاية لمذهب الدولة الرسمى. فكتب على بن ربان الطبرى كتابه الموسوم (الدين والدولة) وهدفه نشر فضائل الإسلام والرد على أعدائه، كما كتب الجاحظ رسالة (لرد على النصارى) مبرزا ميزات الإسلام متوددا إلى أهل السنة.

ومن جهة أخرى ألزم الخليفة المتوكل الذميين بالتزامات اجتماعية واقتصادية تقيدهم وتجعلهم دون المسلمين فى المجتمع. ومن إجراءاته فى هذا الشأن تحريم استخدام أهل الذمة فى الدواوين والوظائف الإدارية التى تجعلهم يتحكمون فى مصائر المسلمين وشئونهم.

(راجع مقال "حنين بن اسحق والسلطة العباسية" للدكتور فاروق عمرفوزى)

وقد انعكست هذه التقلبات السياسية على حنين بن اسحق. فقد كان المتوكل كما يقول د فوزى فى حاجة ماسة إلى مساندة الفقهاء ورجال الدين ومن ورائهم العامة. وهذا ما دفع الخليفة المتوكل إلى إبعاد حنين وسجنه واضطهاده لفترة من الزمن لاسترضاء الفقهاء المسلمين الذين كانوا يناصبون حنين العداء لا لكونه زمياً فحسب بل لكونه فيلسوفا منطقيا. وهى علوم كان يعارضها الفقهاء لأنها على حد قولهم تشكك فى العقيدة وتدعو إلى الإلحاد والزندقة.

ولعل رسالة حنين التى أشير اليها آنفا فى رده على رسالة ابن المنجم، قد ظهرت فى ذلك الوقت وكانت من أسباب انقلاب المتوكل على حنين بن اسحق. وقد أرسل على بن عيسى بن المنجم رسالته الى كل من حنين بن اسحق وقسطا ابن لوقا وسماها البرهان على صحة نبوءة محمد وعلى اعجاز القرآن ثم دعاهما للدخول فى الاسلام وطالبهما بالرد على رسالته. ومناقشة برهانه لأنه كان يجرب على ما يبدو استخدام المنطق فى التدليل على صحة عقيدته. وكان يريد أن يفهم منهما هل نجح فى اثبات برهانه أم فشل، وكانت ردود حنين وقسطا بن لوقا مخيبة لأماله.

فى رده الأول حاول حنين أن يبتعد عن الجدال وأن يقدم توضيحا فلسفيا لإيمانه بالمسيحية، قائلا إنه قبل ديانته من الوجه الذى يقبل منه الحق. وكان عنوان الرسالة" كيفية ادراك الديانة" إلا أن ابن المنجم ألح أن يناقش حنين رسالته بالمنطق فرد حنين فى رسالة أخرى جدلية. والرسالتان نشرهما الآب لويس شيخو اليسوعى كما نشر رسالة قسطا بن لوقا أيضا. وسوف يجدهما القارئ مع رسالة ابن المنجم فى فصل تالى. واذا عرفنا أن ابن المنجم هذا كان نديما للخليفة المتوكل وصديقا له، ربما تصورنا أن رسالته كانت استدراجا لحنين بن اسحق ولقسطا بن لوقا، ولكن ليس لدينا مايؤكد ذلك خصوصا وأن قسطا بن لوقا لم يتعرض لأى اضهاد بعكس ما حدث لحنين.

المهم أن هذه الرسائل تتسم كلها بروح المودة والحب سواء من جانب ابن المنجم أو من جانب حنين وقسطا بن لوقا، إضافة الى أنها مجادلات عقلانية رائعة تستند الى العقل والمنطق ولم تنزلق أبدا لتجريح الأديان أو الأشخاص. وفى حديث الدكتورعبد الرحمن بدوى عن محاورة النصرانى عبد المسيح الكندى يقول الدكتور بدوى" ومن الجائز ألايكون هذا الكتاب هو الوحيد، وأنه توجد كتب أخرى تصلح

للمقارنة. ومع هذا لم ينشر حتى اليوم إلا قليل من كتب التناظر بين النصارى واليهود والمسلمين."(من تاريخ الالحاد في الإسلا م) ،ص151

ومعنى هذا أن الدكتور بدوى لم يكن يعلم بهذه الرسائل الثلاثة الأخيرة او بالمساجلات مع الخليفة المهدى والوزير أبى القاسم المغربى التى أشرنا اليها منذ قليل. وأرجو أن يكون الوقت ملائم الآن لنشر هذه الرسائل الهامة خصوصا وأننا نهلل كل يوم فى وسائل الإعلام عن الحوار بين الأديان والحوار بين الثقافات. ولكن الفضل يرجع الى الآب لويس شيخو اليسوعى فى اهتمامه بالبحث عن هذا التراث الثمين وتحقيقه ونشره. أما أنا فدورى يقتصر على التعريف بهذه الرسائل وتقديمها للقارىء .

ولعل كتاب حنين عن نوادر الفلاسفة كان محاولة منه لتهدئة جو المجادلات الدينية العنيفة، وصرف الأنظار إلى مايستحق الاهتمام فى حياة البشر التى تقوم فى رأيه على الايمان بالله وعلى أهمية المساواة بين جميع الأفراد، واحترام العقل والعلم وحرية الفكر. ودفعهم للتقدم فى عمل الخير والابتعاد قدر الامكان عن التعصب والعنف. فالكتاب رسالة فى التربية الاخلاقية موجه بطريق غير مباشر للحاكم والمحكوم. وهذا هو تفسيرى لمضمون هذا الكتاب الذى نقدمه ضمن نماذج من مؤلفات حنين الدينية والفلسفية فى الفصول التالية.

الفصل الثالث عشر

13- رسائل فى الحوار بين المسيحية والإسلام

لقد امتد الجدال الفلسفى واتسعت ساحته فى عصر الدولة العباسية حتى شمل مجال الأديان. وقد ابتدأ هذا الجدال بتشجيع من الخليفة المأمون لترويج اعتقاده بفكرة خلق القرآن التى قال بها المعتزلة. وفى هذا السياق يأتى هذا الحوار الإسلامى المسيحى، والذى ابتدأ بالرسائل التى أرسلها على بن عيسى بن المنجم يدعو فيها بعض المفكرين المسيحيين إلى الدخول فى الإسلام، وطلب منهم ضرورة الرد على رسالته. والرسالة التالية هى رد حنين بن اسحق والتى تجنب فيها الدخول فى الجدال، واكتفى بأن قال إنه قبل ديانته من الجانب الذى يقبل منه الحق، الا أن على بن عيسى بن المنجم ألح عليه فى أن يناقش رسالته التى سماها "البرهان " على الطريقة الأرسطية مما اضطر حنين بن اسحق الى أن يجاوبه برد يثبت بطلان برهانه. وكذلك فعل قسطا بن لوقا المسيحى أيضا.

لكن الحوار ظل فى حدود النقاش العلمى الموضوعى والمنطقى دون إساءة لأحد منهم أو إلى عقيدته، وظل حواراً راقيا يمكن لنا أن نتعلم منه أسلوب الحوار بين الأديان، بل وبين المختلفين فى الفكر والدين. ولابد أن نتذكر بالاعجاب روح الحرية الفكرية التى ساد ت الحياة الثقافية فى بعض الفترات إبان العصر العباسى وأدت إلى ازدهار الحضارة العربية.

1-كيفية إدراك الديانة لحنين بن اسحق

من أين يعلم إنسان أن ما يعتقده هو الحق وان ما يعتقده غيره هو الباطل. فانه إن قال ان ذاك إنما أتاه عن آبائه أو قال إن ذلك أتاه من كتاب أو من نبي اتي بآيات أو من رأيه إذا رأي ذلك فصح له بذلك دينه عنده. فجميع أصحاب الأديان المخالفين لهم ان يقولوا بمثل ما قال. فإذا كان هذا الجواب مشتركا بين أصحاب جميع الأديان فيجب ضرورة علي من قبل دينه بهذه الحجة ان لا يرد عليه دين من الأديان إلا قبله لهذه الحجة بعينها. فإن لم يقبل حجة المخالفين له فلا تقبل تلك الحجة من أهل مقالته.

فنقول لمن قال هذا القول ان الحق والباطل من جميع الأقاويل إنما يعلم من الأسباب التي منها قبولها منذ أول أمرها، والأسباب التي منها يقبل الكذب غير الأسباب التي يقبل منها الحق. فأسباب قبول الكذب ستة: أولها ان يضطر القابل ان يقبل ما يحمل عليه من غير إرادة منه والثاني ان يفر الانسان من الضيق والشدة بإرادته إذا لم يقدر علي احتمالها فينتقل منهما الي ما يرجو منه السهولة والسعة. والثالث ان يؤثر العز علي الذل والشرف علي الضعة والقوة علي الضعف فيدع دينه وينتقل لغيره. والرابع ان يكون صاحب القول رجلا خبيثا محتالا في الكلام فيموه ويطغى على من يدعوه. والخامس ان يستعين بجهل من يدعوهم وقلة ادابهم. والسادس ان يكون بين المدعوين غيرة نسب طبيعي فلا يجب قطع ذلك النسب فيما بينه وبين موافقه في الدين.

واما الأسباب التي بها يقبل الحق فهي أربعة: الأول ان يري القابل آيات تعجز عنها طاقة الانسان. والثاني ان يكون ظاهر ما يدعو إليه الداعي دليلا شاهدا علي حقيقة ما هو خفي عنه. والثالث البرهان المضطر الي قبوله. والرابع ان يكون أخر الأمر موافقا لأوله وان يكون الأصل هو الصحيح فيما يحدث بعد صحة ما قد سلف مما لا يشك فيه. (فقد يقنع هذا ان ينظر من أين لنا ان نعلم ان سائر الأديان إنما قبلت من هذه الخصال الست والديانة بالحق من الأربع.)؟

وقد يطول علي ان اذكر كل واحد من الأديان ما كان منها قديما فبطل مع بطلان ما كان به قوامه، وما يُحَدث منها من بعد مما به قوامها إنما قوامها هو بقوام ما بطل من تلك. فبقدر ما نعلم انه بطل منها ذلك الشئ بطلت كما بطلت الملل التي كانت قبلها.

والواجب علي كل من اراد ان يفهم من أي الأسباب في ابتداء الآمر قُبل دينه، ان كانت من الأسباب التي منها يقبل الباطل او من الأسباب التي منها يقبل الحق، ان تنظر الآن من يقبل ذلك الدين من أى الأسباب تقبله. ان كان من أسباب الحق، أومن أسباب الباطل حتي يفهم قبول ما يرد عليه في وقته بهذا ما كان قبوله من قبله في اول الأمر. وان يحس ان الحق هو الذي يقبل من تلقاء نفسه وان الباطل يحتاج الي أسباب يثبت بها عند قابله، فإن من نظر في هذا حين ينظر فيه يحس أى العبادات هي العبادة الصحيحة واي العبادات هي العبادة الباطلة.

فأما أنا فأَدع ذكر سائر العبادات وأبين في عبادتي أنها إنما قبلت عن الأسباب التي منها يقبل الحق إما من جميعها وإما من بعضها. فاقول إنه ليس يمكن ان يفهم ان يقبل الناس عبادة ما من

غير سبب من الأسباب التي يقبل بها كل دين. وليس يمكن ان يتوهم خلا الخلال العشر التي عددنا ستا منها يقبل الباطل وأربعا منها يقبل الحق. فإن صح انه لم يكن سبب قبول عبادة الله واحدا من أسباب قبول الباطل وجب ضرورة ان يكون سبب قبولها الأربعة الأسباب التي بها يقبل الحق، إما كلها وإما بعضها. فإن لم يوجد انه كان سبب قبول عبادة الله التي نحن عليها سبب قبول الباطل لكن وجد ان أسبابها كان اضدادها علي أبعد ما يكون من المضادة كان صحة الامر اثبت وأوجب فكذا نجد الأمر قد كان.

النظر في كل واحد من الأسباب

الأول فإنها لم تقبل بعز ملك ولا بقهر سلطان لكن ناصبها جميع ملوك الأرض وسلاطينها، ومنعوا منها جميع الناس بسائر الأنواع من العذاب والقتل المستشنع وأجلوهم عن الأرض فغلبت جميع أولئك وثبتت. واما الثانية فإنها لم تدع الي الخروج من الأمر الضيق الصعب الي الأمر الواسع السهل، ولكنها دعت من جميع الأمور التي اسهل وأوسع الي الأمر الذي هو اضيق واصعب فقبلت احسن قبول. واما الثالثة فإنها لم تدع من الضعة الي الرفعة ومن الذل الي العز لكنها دعت من العز الي الذل فقبلت حتي كان من يقبلها يحب ان يموت علي ان يحيا بسببها. واما الرابعة فانها لم تؤخذ من قوم معهم خبث وحدق بالكلام لكنها أخذت عن جهال وأصحاب عى وصيادي سمك هم ابكم واشد عيا من السمك مثلا. واما الخامسة فانهم لم يكونوا قابلوها لا جهال ولا ادعياء ولا عوام ولا همج لكنهم كانوا أصحاب المنطق والفلسفة اكثر من العالم كله، وأصحاب تمييز وبحث ومن فاق في الحكمة سائر الناس. واما السادسة فانه لم يكن من يقبلها يتصل بأحباء وأصدقاء بقبوله لكنه كان يفارق بها إذا قبلها جميع من بينه وبينه نسب أى نسب كان بالقرابة او بالمودة. فان أحببت ان تزد خلة سابعة فانه ضروري لما كان الحواريون اذاعوه من أمر هذا الذي في ظاهره لم يكن شئ اضعف منه، وليس ينبغي لأحد أصلا يقول قائلا إنه أذاه كانت هذه الأمور كلها علي هذا المثال. ثم كان قبول ما نحن عليه سوي ظهور الآيات والمعجزات فلا يمكن إلا من مناصب تقدم بخبرته. فان قلت هذا تطالب نفسك عن دينك ومن غيره بما نسبه بما وصفنا من أمر ديننا فانك تعلم وتتمته.

من قول ابي رايطه التكريتي السرياني أسقف نصيبين

مستدلا به علي صحة النصرانية المقبولة من الداعين المبشرين بها بالإنجيل المقدس

قال لا تخلو النصرانية من ان تكون اما حقا واما باطلا والذين قبلوها من ان يكونوا اما عقلاء واما جهلاء. والعقلاء لا يقبلون ما لا يصح بالقياس المعقول الا بالقهر. والجهال لا يمتنعون من الانهماك

في اللذات الدنيوية إلا بالقهر. والقهر قهران، إما قهر بالسيف وإما قهر من الله بالآيات. ولم نر العقلاء ممن قبل دين النصرانية قهر بالسيف فيقبلون ما لا يصح بالقياس المعقول، ولا الجهال قهروا بالسيف فيمتنعون عن الانهماك في لذات الدنيا. وقد قبلها العقلاء بما لا يصح بالقياس المعقول وقبلها الجهال وهي تصد عن الانهماك في لذات الدنيا، وقد قهر الجميع بالآيات لا بالسيف. والآيات أدل دليل علي ان الدين الذي تكون فيه هو الدين الصحيح عند الله عز وجل. والشريعة المسيحية تطابق هذه المقدمات والمجد لله دائما.

.

هذا هو النص الكامل لرسالة حنين هنا أما الرسائل الباقية فسوف أعرض لها باختصار عن طريق انتقاء بعض الأسئلة التى طرحها ابن المنجم ثم رد حنين عليها من رسالته الثانية الجدلية، ونفس الشيء سأفعله مع رد قسطا ابن لوقا لأنها رسائل ومحاورات طويلة تحتاج الى كتاب يخصص لذلك.

2-رسالة ابن المنجم

قد وجهت إليك بقرطاس، وفيه البرهان الذي ذكرته لك في نبوة محمد (عليه السلام) وقد نصحتك فيه جهدي.

فأغرب عنك إبليس وحزبه، وألق عنكَ الألف والعادةَ. وَاسْتَخِر الله، واسأله أن يوفقك لمحبَته. واقرأ ما كتبتَه إليك، فإني والله ما قصرت في نصحك. فلا تنظر كتابي بعين المقت. وإذا قرأته، لا ترده إلا بعد أن تجيب عنه، إن كان له عندك جواب، إن شاء الله.

وأنت صديق، وقد كتبت كتابي هذا نصيحة لك، وثبتّ فيه البرهان الذي كنت ذكرت لك، في نبوة محمد (عليه السلام).

فإن أنت قبلت البرهان الذي برهنت علي نبوة محمد، فذلك هو الذي قصدت اليه. وإن أنت لم تقبل مني، كتبت إلي بما يقع في نفسك منه، وما الذي يمنعك من قبوله، وأي مقدمة من مقدماته تنكر، إنشاء الله.

فالأمم وأهل الأديان والملل مجمعة مقرة بكون موسي والمسيح (عليهما السلام) في العالم، وظهورهما حيث ظهرا، ودعائهما الناس إلي ما دعيا إليه. فإنه قد أتبعهما خلق من الناس كثيرون، آمنوا بما أتيا به من الشرائع.

والناس الذين كانوا بشريعة موسي هم الذين يقال لهم "اليهود" والكتاب الذي في أيديهم "واسمه التوراة" وهو الكتاب الذي أتي به موسي، وشرع فيه شرائعه، وسن فيه سننه.

وإن الناس الذين كانوا بشريعة المسيح، هم الذين يقال لهم "النصاري" والكتاب الذي في أيديهم "واسمه الإنجيل" هو الذي به اتي المسيح، وشرع فيه شرائعه، وسن فيه سننه.

ولا اختلاف بين الأمم، وأهل الأديان والملل، في شئ من هذه الجمل التي عددتها، من أمر موسي والمسيح. لأنها جاءت مجيئا يرتفع الشك عنه، واتفقت عليهما بشهاداتٍ لا يجوز علي مثلها الكذب.

وإنما الاختلاف بين الأمم في نبوة موسي والمسيح. ذلك أن بعض الأمم تشهد لهما بالنبوة والرسالة، وبعض الأمم تكذب نبوتهما ولا تشهد أن الله (عز وجل) أرسلهما. وأما ما ذكرت من أمرهما، فلا اختلاف فيه بين الأمم.

وقد جاء خبر محمد مجيئا لا يعارض بالتكذيب، ولا يجوز في مثله الارتياب، كما جاء خبر موسي والمسيح.

فالأمم كلها مجمعة مقرة بكونه في العالم، وظهوره بأرض الحجاز، ودعائه الذي دعا الناس إليه.وأن قد تبعه خلق من الناس كثير، لا يحصي عددهم. وهم الذين يسمون، من وقت ظهوره إلي الآن، مسلمين.

وأن الكتاب الذي جاء به محمد "عليه السلام" قد ذكر أن الله أنزله عليه، وشرع فيه شرائعه، وقص عليه القصص، وضرب فيه الأمثال. وأن السنن التي في ايدي المسلمين هي سنة محمد.

[ولا اختلاف بين الأمم]، وأهل الأديان والملل، في شئ من هذه الجمل التي عددتها، من أمر محمد. لأنها جاءت مجيئا لا يقع في مثله الكذب.

وإنما الاختلاف في نبوة النبي (عليه السلام). لأن بعض الأمم تشهد له بالنبوة، أن الله أرسله، وبعض الأمم تكذب نبوته.

فأما ما ذكرت من أمره، فلا اختلاف فيه بين الأمم، ولا شك ولا ارتياب فيما اجتمعت عليه الأمم كلها.لأن رد ذلك خروج عن المتعارف، وتكذيب للفطرة. وقد قالت الفلاسفة أن العلم المأخوذ من جملة الناس لا يقع فيه الكذب، ولا يكون غير الحق. فقد رأت الفلاسفة انه يجب التصديق بما قلنا، من طريق العلم والمتعارف عند جميع الناس.

وإن كان ذلك كذلك، فبالحق قلنا إنه لا شك ولا ارتياب فيما اجمعت عليه من الجمل التي عددتها. أمم عظيمة لا تحصي، كثيرة، يسمون العرب.

وهي يومئذٍ أعظم الأمم كفرا، وأشدهم حمية وافتراق كلمة. ليس لهم دعوة تجمعهم، ولا ملك يرعاهم، ولا في أيديهم بقايا نبوة. فهم منها علي أثر.

أميون، لا علم لهم بالكتابة. يعبدون الأصنام، ويسفكون الدم، ويقطعون الأرحام، ويقتلون أولادهم. أكثر معايشهم من الغارات. والجهل بالله مستول عليهم. والمنكر أكثر محضرهم. واللذات والشهوات غالبة عليهم.

فنقلهم من عبادة الأصنام إلي عبادة الله وحده. وجعلهم كتبة، بعد أن كانوا أميين؛ وحكماء وعلماء، بعد الجهالة وقلة المعرفة. وألف بين قلوبهم، بعد أن كانوا أعداء. وكرَّم أخلاقهم، بعد أن كانت سيئة. ومنعهم من التعبد للذات والشهوات، بعد أن كانت مستولية عليهم. ورعاهم، بعد أن كانوا بلا راع..

وأخذهم بالصلاة والزكاة والصيام، والتمجيد لله بالأسحار، والإقرار بالملائكة والأنبياء والبعث بعد الموت. وبصدق الحديث، واجتناب الكذب، وأداء الأمانة إلي أهلها. وصلة الأرحام، وحسن الجوار. والكف عن المحارم، وحقن الدماء، وصلاح ذات البين. وأن يوفوا بالعهود، ولا ينقضوا االإيمان بعد تؤكيدها.

وأمرهم بالتعاطف والإيثار والتراحم. وأن يُوَاصل من قطع، ويُعفو عمن ظلم، ويعطي من حُرم. وبالتوقير للكبير، وبالرحمة للصغير.فلم يكن لينقل العرب، من الحال التي كانوا عليها، إلي الحال التي دعاهم إليها، إلا برأيٍ فاضل، وعقلٍ كامل، وعلمٍ فضيل، وصبر علي الأذي والمكروه، واحتمال الأقارب، ومهادة الأباعد.

ولهذا، أجمع الناس كافةً (من كان منهم من أهل ملة محمد (صلى الله عليه وسلم)، والمنتحلين غير دعوته) علي أن الأرض لم يكن عليها مثله أكمل عقلاً، (ولا أرجح رأيا.)

وإنهم يقولون: "إن عقله يرجح علي عقول العالمين، وإنه لم يكن مثله أثقب نظراً، ولا أحسن سياسة، ولا أتقن تدبيرا اضطرّهم إلي الشهادة له بذلك ما رأوْا من مخارج تدبيره الموصول بالتأييد، وموارد سياسته المقرونة بالرشد.

لأنه لم يبلُغَهم أن أحداً من الأولين، الذين كانوا قبل محمد، لا العرب منهم ولا العجم، كانت حالُ قومه علي الحال التي كان عليها قومه، فنقلهم منها إلي الحال التي نقل محمد قومه إليها, فشهدوا له بالعقل كما شهدوا لمحمد، فيقال إنه كان في السلف الأول نظيرُ لمحمد.
فلما لم يتبادَرْ للأخبار بأنه كان له نظيرٌ في الأولين الذين كانوا قبله، ولم يجدوا له نظيرا في الدهر الذي كانوا فيه، ولا بعده، فبالحق قالوا إن عقله أرجح من عقل العالمين.

والناس أجمعون، الحكماءُ منهم وغير الحكماء، مُجمعون علي أنه لا يجوزُ ولا يصح، في فطرة [العقل، أن يجئَ رجل كامل العقل، صحيح الفطرة،] إلي قومٍ (ربى بينهم، ونشأ في جحورهم، [وتخرج بينهم،] وتقلب طول عمره بينهم)، بكلام هو لغتهم (ليس منه كلمة إلا وقد استعملوها في كلامهم منفردة)، مؤلفا تأليفا لم يخرق أسماعهم مثله.

ثم ينادي بينهم عمره (ليله ونهاره)، ويصرخ به في أسماعهم ويقول: "فأتوا بسورة من مثله..، إن كنتم صادقين؛ وأنا، إن فعلتم، من الكاذبين".
[وقد قال لهم فيه، عن الله: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا، فأتوا بسورة من مثله، ادعوا شهدائكم من دون الله، إن كنتم صادقين"؛ وفيهم من وصفت من الشعراء الفصحاء، والخطباء البلغاء وهم أبناء اللغة وفرسان البلاغة؛
ومحمد بشريٌّ مخلوقٌ. وليس من ذات المخلوقين علمُ الغيب. لأن الغيب لا يعلمه إلا الله (عز وجل)، "عالمُ الغيب والشهادة"
ومن ذلك يتبين أنه ممن لا تناله الأوهام، ومن تأليف من لا تحده الصفات. "لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد". أعقم العقول عن صفته، واعجز الفطر عن أن تأتي بمثل كلامه (جل جلاله، وعز ذكره!).
فأعجز العقول عجزاً عن مسألته، وانقطاعا عن التشبه بمثل ما جاء به وأتم الله له.
وجدوا إلي التلقف، فضلا عن إصابة المثل، سبيلا ليهنوه به. ولكان تكذيبهم صراحة بالحق، ومغالطة الشُبهه، ايسر عليهم مؤونة، وأهون عليهم شركة، من عداوته وبذل الأموال والأنفس في محاربته.
هيهات! كلام الله لا يحاول، وآياته لا تعارض، في حجته لا يميل عليها!

ولا بد لمخالفي ملة محمد (عيه السلام)، علي ما بنوا عليه أصلهم، من أن يزعموا أنه من عند الله جاء به؛ وذلك قول من وفقه الله لرشده. وأن يضيفوا إليه غير ما نسبوه إليه من العقل والحكمة؛ وذلك تُرك لأصلهم.

ولو قالوا لذلك، لكذبهم علي ألسنتهم ما رأوا من تدبيره، واتساق سياسته، وعدالة أحكامه وفي إنكارهم ذلك، دفعُ العيان، والخروج عن المتعارف. وذلك من ابطل الله دعوته، ودحض حجته.
فهذا برهان واضح حقيقي في القرآن بأنه آية من آيات النبوة، وأية الحق من عند الله (عز وجل).
وذلك أن المقدمات التي تقدمنا بذكرها من الأشياء المجمع عليها المقر بها، التي لا دفع لها بوجه من الوجوه. والبرهان إنما يتألف من أشياء متفق عليها مقر بها. وإذ كانت المقدمات حقا، وجب أن تكون نتائجها حقا.

وإن كان ذلك كذلك فإنه، لما أجمع أهل الأديان والملل، وأقروا بكون محمد في العالم، وظهوره بأرض الحجاز، ودعائه إلي ما دعي إليه
ويقول: "قل: لئن أجتمعت الأنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً"
وليس يجوز في العقول، عن عاقل بمثله، أن يجيءَ بخبر (استنبطه من علم، أو استدركه بحساب تحتم عليه) ولا يخاف الوهم والغلط فيه، وإغفاله من فكره إياه. ولا يبتدئ بشروط، ولا يحضره بأشياء ثم يستحلُ عدوه علي نفسه ويحثهم علي محاربته واستعارته.
فإن كان هذا غير جائز منه، لأن العاقل لا يحتم علي ما لا علم له به (أي أنه لا طاقة لأحد من العالمين أن يأتي بمثله)؛ ولا يفعل ذلك إلا بيقين لا يجامعه شك، وثقه بمثله وكان هذا قائما في فطرة العقل.

وليس من ذات المخلوق علم الغيب، وإنما علم الغيب لله (عز وجل) فإنما أخبر [محمد] عما لا يجوز عليه، وعمن ليس لقوله خلاف، "عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم"
فقد صدق محمد في ما ذكر وادعي لنفسه من النبوة، وأنه رسول الله إلي خلقه."

وفي القرآن دليل علي نبوته من جهتين: أما الواحدة فقوله "فأتوا بسورة من مثله ... إن كنتم صادقين"، فلم يقدروا أن يأتوا بمثل أقصر سورة فيه والثانية، إخباره لهم وحتمه علي أن الخلق لن يقدروا أن ياتوأ بمثله، " ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً"

وقد قلنا، في أول كتابنا، إن الرسل، إن جاءوا بالآيات التي ليس في قوي العالمين المجئ بمثلها، [وجب تصديقهم] وكف مخالفتهم.

وسيان كانت الآيه جليلة أم لطيفة، إذ كانت فطَرة العالمين [تعجز عن المجئ بمثلها].

فقد أنجزت لك النصيحة، وأحببت لك ما أحببت لنفسي. فاتق الله الذي إليه تصير، وارجع الي ما هو أولي بك من الحق، ولا تؤثر العادة والإلف، والقليل الفاني علي الكثير الباقي..

-جواب حنين بن اسحق

اولا . نقد رسالة ابن المنجم

1) المقدمة

باسم الله الحي، القديم، الأزلي. وبه نستعين!

قد فهمت (أكرمك الله) هذا الذي زعمت انك أقمت البرهان فيه بصحة مقالتك. وحمدت الله علي جميع نعمه، خاصة علي نعمة الدين.

2) نقد سريع للرسالة

مما رأيتك تصفه عن نفسك (أكرمك الله) قصدك الي نصيحتي، واقناعي بما قنعت به لنفسك. وعلي ما تبين لي، إنه لم يكن ذلك منك إلا حرصا علي ان تسمع في نقيضه ما يقول مخالفك. فتقايس بين الأمرين، وتستدل علي صحة كل واحد منهمسا من باطله.

ثم رايتك قد افتتحت قولك باقتصاص أمر موسي والتوراة، وعيسي والإنجيل واليهود والنصاري.

فما أظن انه كانت لك حاجة إليه، مع معرفتي إياك واعتقادك ما تعتقده، ومعرفتك مااعتقده.

ثم اتبعت ذلك باقتصاص أمر نبيك، وأمر كتابه وقومه.

فتبينت من ذلك ما عجبتُ منه. أنك زعمت أنه لا يمكن ان يكون ما جاء به نبيك فيه حيلة.
وادعيت فيه انه كان اذكي أهل الأرض، والطفهم حيلة، وادقهم فهما ومعرفة وان قومه كانوا من أجهل الناس واغباهم.
ولعمري، ما تتهيأ الحيلة لأحد علي قوم، إلا ان يكون حالهم الحال الذي وصفت به قوم صاحبك.
وفكرت في ان يكون سهوا لحقك في إخبار ذلك.
وعجبت أيضا من القول الذي زعمت انه برهان علي.
وأنت تعلم ان البرهان لا يقام علي أحد إلا من إقراره.
وأنا، فلم اقر لك قط ان الكتاب الذي جاء به صاحبك حق ولا شئ مما وصفته فيه علي ما حكي.
فكيف يجوز لك ان تحتج علي بما لم اقر به عندك؟
ولا علمت قط ان صاحبك تحدي أقوامه، بان قال لهم: "فأتوا بسورة مثل اقل سورة في كتابي، حتي اكذب نفسي" فعجزوا عن ذلك.

3) الخاتمة

ولكن هذا، ومثله مما رأيته في كتابك، يدلني علي انك لم تقرأ "كتاب البرهان"
وان كنت قد قرأته، فلم تستقص فهمه لنفسك. فلذلك، لم تسلك بعض طرائقه، فضلا عن ان تقول البرهان وأنا مبين لك صحة ذلك، أبين لك حال نبيي، والحال في غيره علي طريق الحجة التي يستعملها ذو اللب والعدل، من غير تحايل ولا ميل ان شاء الله تعالي.

ثانيا . التمييز بين الحق والباطل

فأقول: ان صحة كل واحد من الأقاويل المقبولة بالخبر، يعرف حقه من باطله من الأسباب التي دعت، من أول الأمر إلي قبوله
لأنها مباينة لأسباب قبول الباطل لأن أسباب الباطل هي ست.
أولها ان يضطر القابل لمخاطبه إلي ان يقبل منه ما يقوله، من غير إرادته ولا اختياره.
والثاني أن يكون الإنسان في ضيق وشدة.
فينتقل منهما (إذا لم يقدرعلي احتمالهما) الي ما يرجو منه السهولة والسعة.

والثالث ان يؤثر العز علي الذل، والشرف علي الضعة، والقوة علي الضعف.
فينتقل من دين الي غيره.
والرابع ان يكون صاحب الكلام خبيثا، محتالا في القول.
فيموه به، ويطغي على من يدعوه إليه.
والخامس ان يكون بين قوم كثيري الجهل
فيستعين بجهلهم، وقلة آدابهم، علي ذلك.
والسادس ان يكون، بين المدعو وبين غيره، نسب طبيعي.
فلا يجب قطع ذلك النسب فيما بينهما فيوافقه في دينه.

اسباب قبول الحق

واما الأسباب المتقدمة التي يقبل بها الحق، فهي أربعة:
أولها ان يكون القابل لها يري آيات تعجز عنها طاقة البشر.
فيميل الي تلك المعجزات.
والثاني ان يكون ظاهر ما يدعو إليه الداعي دليلا وشاهدا علي حقيقة ما هو خفي منه.
والثالث البرهان المضطر إلي قبوله.
والرابع أن يكون آخر الأمر موافقا لأوله.
وان اختياره بما تقدم (بعد صحة ما سلف) مما لا شك فيه.

ثالثا ـ تطبيق هذه المعايير علي مختلف الأديان

وضع الأديان من هذه الأسباب
وقد يقنع هذا ان ننظر من أين لنا ان نعلم ان سائر الأديان إنما قبلت من هذه الست خصال، وديانة الحق من الأربع.
ويطول علي ان اذكر كل واحد من الأديان.
(ما كان منها قديما، فبطل مع بطلان) ما كان به قوامه.

وما حَدث منها من بعد، مما قوامها إنما هو بقوام ما بطل من ذلك،
فتقدر ما نعلم انه بطل منها ذلك الشئ، بطلت، كما بطلت الملل التي كانت قبلها.

- **والواجب علي كل من أراد ان يفهم من أى الأسباب (في ابتداء الأمر) قُبل دينه.**
- **(ان كان من الأسباب التي منها يقبل الحق، أو من الأسباب التي منها يقبل الباطل)**
- **(ان ينظر الآن من يقبل ذلك الدين، من أي الأسباب يقبله**
- **ان كان من الأسباب التي منها يقبل الحق أو من الأسباب التي منها يقبل الباطل.**
- **اما أنا، فلا حاجة لي إلي ذكر كل واحدة من الملل والمقالات والنحل، سوي مقالتى.**
- **لا السالفة، التي قد بطلت مع بطلان الأمور التي كان قوامها بها.**
- **ولا الحادثة من بعد، التي قوامها إنما هو مع قوام ما بطل منها، فإنها ستبطل كما بطلت تلك.**
- **والكلام في ذلك يطول شرحه، وليست إليه حاجة اضطرارية.**
- **لان المتدبر، إذا تدبر ذلك، اشرف علي ان يفهم الأمر بسهوله وسرعة أي الأديان هو الدين الصحيح وأيما هو الدين الباطل.**

7) لم تُقبل المسيحية لاسباب قبول الباطل

- **فانا مبين أمر ديننا، وأنه قبل من الأسباب التي بها يقبل الحق وليس فيه شئ من أسباب الباطل فاقول:**
- **اولها انه ما قبل لقوة من الملوك، ولا حرب من السلطان**
- **بل جميع ملوك الأرض قاوموه وناصبوه**
- **ومنعوا جميع من راى الدخول فيه باصناف العذاب والقتل**
- **فغلبهم، حتي بلغ، وظهر، وقُبل.**
- **والثاني إنه لم يدع من أمر ضيق صعب الي أمر واسع سهل**
- **لكن دعى من الأمر الواسع السهل**
- **إلي الأمر الضيق الصعب الكريه، التي تأباه البشرية وتكرهه**
- **فيتلقي بالقبول والسرور**
- **والثالث إنه لم يدع من الذل الي العز ولا من الخمول الي النباهة والسلطان**

- **لكن بالعكس: من العز إلي الا تضاع، ومتاركة الدنيا، وملازمة الوحدة (ملازمة الزوجة الواحدة)، ومقاساة الغربة**
- **فما ذلك الا حرصا علي قبوله، حتي كان القابلون له يختارون الموت علي الحياة**
- **والرابع إن الدعاة إليه لم يكونوا أصحاب حيل وتمويه بالكلام.**
- **لكن كانوا قوما أميين مغفلين صيادي سمك (وهم أصمت من السمك)**
- **والخامس إن القابلين له لم يكونوا أغبياء وجهلاء**
- **لكن بلغاء في المنطق، وهم فلاسفه العالم، وأصحاب البحث.**
- **من أشتهر بألحكمه ففضل فيها علي جميع الناس**
- **وكانوا ذوي اغتباط في قدرهم، لا يكاد يخفي عنهم غامض، لا في علم ولا في عمل.**
- **والسادس أن القابلين له ايضا، لم يكن قبولهم له ليصلهم بأصدقائهم وأحبائهم**
- **لكن كانوا يفصلونهم، ويقطعونهم عن ذوي أرحامهم وأودائهم**
- **ويصلون إلي الشقاء والتعب المباين لأغراض البشر، مع مفارقة كل اتصال طبيعي واعتيادي.**
- **وإن أحببت ان أزيدك خله سابعة، فانظر في نفسك**
- **فانك تري ان مقالتنا خليقة ان تكون أصعب المقالات وأبعدها من الإقناع**
- **وان ما أذاعه الحواريون من أمر هذا الدين، لم يكن شئ اصعب منه.**

3) خاتمة

- **ولا يتسع لاحد أن يقول إنه كان قبوله سوي بالآيات والمعجزات التي تحققها القابلون للدين**
- **وان أنت أحسنت النظر في ذلك لم يلبث ان تعلم انه ليس يقع بين هذا الدين وبين غيره قياس ولا حجة بينه يقبلها تاركو الزيغ والميل.**
- **وما أحتاج في ذلك الي التطويل، وتهجين يغضب منه ولا اذكر أساطير الأولين، واقتصاص الأمر التي نحن وإياك عليها مجمعون**
- **8فان الحق قريب، وطريقه قصير، والباطل معتاص وطريقه طويل.**

خاتمة الخطاب

- **ما أشك مع نبلك وفضلك، انه تبين لك (بما قد ذكرته، واختصرت فيه) وجه الأمر وجلبته.**

- **ويرشدك الإقناع، وينهيك عن التعب والفحص وتعرف قصد من ينصح صديقه، بعقل ومعرفة والله يرشد الي الصلاح.**

==========

جواب قسطا بن لوقا

وقد كان يجب عليك (أكرمك الله!)، ولما قد تأكد بيننا، أن لا تكلفني مناقضة قولٍ قد صَححته، وأسميته "برهاناً مطلقاً".

ثم زدت في تسميته، فقلت "برهانا هندسياً". مع معرفتك باحتيال الكلام في الأديان وثقله عليّ، ولا سيما مع مثلك ممن أراه بعين الجلالة والوقار. (صـ74)

فان أقنعك، وعلمت به ان برهانك ليس بصحيح، كان ذلك محزناً لك، مصعبا عليك، وإن كتبت لك باسهاب لتمكين الذي أظهرت لك به أنه ليس ببرهان، [وإن كان] في صورة البرهان الهندسي.

مقرا بأنك قد رمت سبيلاً، والتمست طريقا لم يسرها أحد قبلك، ممن تكلم في الفن الذي تكلمت فيه.

فقد كان مع أمير المؤمنين (رضي الله عنه، واسكنه جناته!) قوم من أهل الكلام و العلم بالمنطق جماعة منهم العباس بن سعيد الجوهري. فإنه قد كان بلغ من علمه في المنطق، وممارسته له، وعنايته بالنظر في كتبه، أن حفظها باللغة اليونانية حفظاً كان مقرا لها ظاهراً. وغيره من العلماء بالمنطق.

وما بلغنا أن أحدا منهم رام أن يبين في الحجة بدينه ببرهان هندسي.

وكان في ذلك الزمان أيضا، من أصحاب الكلام، إبراهيم النظام، وأبو الهذيل، وغيرهما من الرؤساء والأجلاء في الجدال. فما بلغنا أن أحدا منهم رام هذا، ولا ادعاه.

فأما قولي إنى تصفحت كتابك (أكرمك الله!)، فوجدت الخلل قد دخل عليك فيه، [فذلك كان] من ثلاث جهات.

أحدها. إنك قدمت مقدماتك، ووضعتها علي أنها متعارفة عند جميع الأمم. وليست كذلك.

والثانية. إنك نتجت من تلك المقدمات نتيجة لا تنتجها تلك المقدمات، وإن أقر لك بها خصمك.

هل الأمم متفقه علي ان محمداً أكمل عقلاً من الجميع؟

فأقول: إني وجدتك (أكرمك الله!) في أول مقدماتك، تصف حال نبيك؛ وما أتي به من الأخلاق الجميلة، والأشياء الحسنة في العقل؛ ونقله قومه (من عبادة الأصنام، وسفك الدماء، وقطع الأرحام، وغير ذلك من الأشياء المستنكرة في العقل، إلي ضد ذلك من الأشياء الحسنة الجميلة؛ وغير ذلك مما حكيته، مما يرجع إلي هذه الجملة).

خلاصة الرد: هل تقر جميع الأمم بأن محمداً أكمل عقلاً من الجميع ؟

ثم قلت "ولهذا أجمع الناس كافة (من كان منهم من أهل ملته، والمنتحلين منهم غير دعوته) مجمعون " علي أن الأرض لم يكن عليها مثله أكمل عقلاً ولا أرجح رأياً، وأنهم يقولون إن عقله يرجح علي عقول العالمين".
ولم أجد (أكرمك الله!) الأمم مقرين بذلك.
إنى لا أجد اليهود يسلمون لك بأنه أكمل عقلاً، ولا أرجح رأيا، من موسى النبي
ولا أحد من النصارى يقر لك بأنه أكمل عقلاً، ولا أرجح رأيا، من شمعون الصفا رأس الحواريين.
ولا أحد من المجوس يفضلونه في العقل والرأي علي زردشت.
ولا أحد من اليونانيين يفضلونه في ذلك علي الإسكندر، وعلي الفلاسفة الماضين مثل: فيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس، وأقليدس، وبطليموس.
بل وجدت أهل كل ملة أمة، في الملل والأمم، تصف نبيها وصاحبها (من العقل والرأي) مثل ما وصفت به نبيك، أو أكثر.

ووجدت اليهود يقولون إن موسي النبي صار إلي بني إسرائيل، وهم في الزلة التي لا بعدها ذلة؛ يُستعبدون من فرعون وأصحابه، مُستهلكون منهم، ويؤخذون بأجمعهم لعمل اللبن؛ لا قوة لهم،ولا منزل، ولا أرض يملكونها.

فأخرجهم بأجمعهم عن ملك فرعون وأصحابه، بلا سيف ولا رمح، ولاسهم ولا قوس، بل بعصا وجدها، يضرب بها البحر فيفلقه، ويضرب بها ثانية، فيرده إلي ما كان عليه.
ولا أري أحداً من النصاري يقر بأنه أفضل رأيا، ولا أكمل عقلا، من شمعون الصفا. بل أجدهم يصفون عن شمعون الصفا من الحكايات، أكثر مما وصفت به صاحبك.

وذلك أنهم يقولون إن شمعون الصفا كان رجلا صيادا عبرانيا وإنه صار إلي أهل ملته (وهم اليهود، بنو إسرائيل)، فنقل أكثرهم عن الناموس والشريعة التي أخذوها عن موسي النبي (مع جلالة موسي عندهم، وعظم قدره في دينهم، وآياته المنقذة لهم)، وصار بهم إلي الناموس الذي أخذه عن المسيح.

فحملهم علي إبطال الختان، وعلي مخالطة الأمم، وفعل المنهي عنه في التوراة.

وأوصاهم ببيع جميع ما يملكون، والصدقه به علي الفقراء والمساكين، حتي كانوا يتبعونه، ويبيعون العقارات والضياع الكثيرة ويتصدقون بها، ويصيرون في حال من يَتصَدقُ من ماله.

ثم صار بعد ذلك إلي اليونانيين، والروم، وسائر الأمم. فنقلهم عن عبادة الأصنام، والذبح لها، والميل إلي اللذات، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة، علي أكثر ما وصفت أن نبيك نقل قومه مما كانوا عليه قبل ظهوره فيهم.

فنقل أمما (كثير عددها، وعظيم قدرها، جليل خطرها، منادية للفلسفة، متسلحة بالقياس والمنطق، مفضلة بالصناعات والحيل، مقدمة في معرفة طبائع الأشياء وكنه الأمور) إلي دعوته وديانته ونواميسه.

مع عجم لسانه، ومستنكر لغته، وخساسة صناعته، وكبر سنه، وضعف قوته، وصعوبة ما دعا إليه.

مثل الذي دعا العبرانيين إليه من الخروج عن الملك، وترك اللذات، وصيام النهار، وقيام الليل، وصلة الرحم، واستبعاد الهوي.

وفعله لهم ذلك أجمع بغير قهر، ولا حرب، ولا قتال، ولا عسكر، ولا هبة مال، ولا تألفُ قلوب باللين والهبات.

ولا أري أن اليونانيين يسلمون كون صاحبك كان أكمل عقلا، ولا أرجح رأيا، من الاسكندر. وقد ملك المعمورة بأجمعها، علي حداثة سنه، وضعف قوته، وقلة عدته.

ولم يرضوا أيضا أن يقدموه (في العقل والرأي) علي بقراط وأفلاطون، وأرسطوطاليس، وأرخميدس، وإقليدس، وبطلميوس، وجالينوس، وغيرهم

مع ما لهم من الاستخراجات العجيبة في التنجيم، والهندسة وتأليف اللحون، و العدد، والطب، والمنطق، وغير ذلك من العلوم، التي لم تخطر ببال غيرهم من الأمم، ولا سمعوا بهذه. ولو راموا أن يتعلموا منها، لم يتهيأ لهم ذلك، فضلا عن أن يعلموا استخراج مثلها.

ولا أظن المجوس يقرون بأنه أكمل عقلا، ولا أرجح رأيا، من زرادشت. مع ما يدعونه في أنه ألف كتاباً في اثني عشر ألف جلد جاموس مكتوب بالذهب، فيه العلوم كلها، علي ما زعموا.

وأنت تعلم أن جماعة ممن تتزيا بزي الإسلام وتنتحله، قد فضلوا عليَّ بن أبي طالب، وكثروا فيه القول، حتي أخرجهم ذلك إلي أن قالوا: "إن جبرائيل أخطأ بالرسالة إلي محمد"

وقد سمعت قوما، ممن ينتحل الإسلام، يفضلون عمر بن الخطاب، ويكثرون فيه القول. ويزعمون أنه عقل هذه الدولة، والذي قوي أمرها، حتي صارت إلي ما صارت إليه.

ويحتجون في ذلك بما له من الفتوح، التي هي أجل قدراً واعظم خطراً من الفتوح التي لصاحبك؛

منها، أنك زعمت أن الأمم تشهد بأنه قد أتي العرب بالقرآن الذي هو لغتهم. وليس فيه كلمة، إلا وقد استعملتها في كلامها.

ولم نجد الأمم تشهد بهذا. وكيف تشهد الأمم بهذا، وهي لا تعرف هذه اللغة؟ إذ كانت هذه للعرب فقط، لا لغيرهم من الأمم. كيف يمكن أن يشهد الروم والهند أنه أتي العرب بقرآن هو لغتهم، وهم لا يعلمون من لغة العرب شيئاً، ولا يفصلون بينها وبين سائراللغات؟ إذ كانت كل منهم لا تعرف غير لغتها، وهي جاهلة بما سواها.

بل قد وجدناه استعمل ألفاظاً كثيرة لم تعرفها العرب. مثل: الحاقةَّ، وليلة القدر، والفلق والكوث، وسلسبيل، وزنجبيل, والرحمن, وغير ذلك من الآلفاظ التي نعلم أن العرب لم تستعملها.

ثم قلت: "إن نبينا محمداً بشري مخلوق. وليس من ذات المخلوقين علم الغيب. لأن الغيب لا يعلمه إلاَّالله، عالم الغيب والشهادة"

فنقول في جواب ذلك: ليس كل علم غيب لا يعلمه إلاَّالله تعالي. بل قد تُري أشياء كثيرة من الغيب بضروب الصناعات.

بعضها، فمن علامات الجو يعلم. كالذي يعلمه ملاحو البحر، من هبوب الرياح، وهبوط الأمطار، وما شابه ذلك من أمر الأنواء، وتقدمها وتأخرها.

==========

مقالة فى الآجال لحنين بن اسحق

عن كتاب " مجموع أصول الدين "

للمؤتمن بن العسال

ورد ذكر هذه المقالة عند النديم والقفطى وابن أبى أصيبعة كما ذكرها إسماعيل باشا البغدادى وحققها ونشرها الآب سمير خليل فى كتيب عنوانه: "حنين بن اسحق "وهو الذى وضع لها العناوين ورقمها وانا أقدمها هنا كمخطوط نادرمن مؤلفات حنين بن اسحق الثمينة.

وهو يعبرعن نظرة حكيمة وعقلانية لمفهوم القضاء والقدرالذى يحيل اليه الناس كل ما يقع فى حياتهم من أحداث خيرة أو شريرة، وهى معتقادات جاهلية ترتبط بمفاهيم دينية خاطئة. ومفهوم حنين هنا يتمشى مع الفكر المسيحى الذى يؤمن بأن الله لايجرب بالشر ولايريد للناس الشر أبدا ولكنه يسمح بوقوع الشر فى نطاق حرية الإرادة الذى يتمتع به الانسان العاقل.

ويقول الأب سمير خليل اليسوعى إن المقالة وصلت إلينا فى الباب 58 من موسوعة مؤتمن الدولة ابن العسال، المعروفة ب" مجموع أصول الدين، ومسموع محصول اليقين" . وعنوان هذا الباب ، كما جاء فى الباب الأول من الموسوعة : " فى كيفية الاعتقاد فى الأعمار والآجال، على مذهب النصرانية" وجدير بالذكرأن هذا الباب لا يحوى إلا مقالة حنين، من دون مقدمة أو تعليق أو خاتمة، بخلاف ما عهده ابن العسال فى الأبواب الأخرى إذا نقل نصا لأحد المؤلفين. والعنوان المنسوب هنا إلى حنين هو فى الواقع عنوان 58 (وهو داخل فى الجزء الرابع من الموسوعة)

فى كيفية الاعتقاد فى الآعمار والآجال على مذهب النصرانية

(المقدمة: إجماع المؤمنين على أنه تعالى يعلم ما يكون قبل كونه)

(أولا– ليس علم الله سبباً سابقاً إلى كون شئ من الأشياء الكائنة)
ليس علم الله سبباً سابقاً إلى حدوث كل كائن)
ليس علم الله سبباً سابقاً إلى كون شئ أصلاً من الأشياء الكائنة)
ليس علم الله سبباً سابقا إلى حدوث بعض ما هو كائن دون بعض)
ليس علم الله سبباً سابقاً إلى حدوث الشر)

(ثانياً – علم الله سبب سابق إلى حدوث الشىء مثل الطبيب الحاذق:

الرد على من يقول إن الموت أحق بالاستسلام له
الخلاصة: عمر الإنسان قابل للزيادة والنقص لأسباب عديدة
إن النبات والحيوان، لكل صنف منهما عمر محدود
عمر الإنسان يختلف فى كل جيل
عمر الإنسان يقبل الزيادة المناسبة له والنقص لأسباب عديدة

قال حنين بن اسحق فى كيفية الاعتقاد فى الأعمار والآجال على مذهب النصرانية. قال لمن سأله:
كثير من الناس يقولون
" إن الله(عز وجل) حد لكل من الناس مقداراً من الحياة لم يكن أن يتجاوزه
غير الحد العام للناس فى الموت بطريق الفناء والهرم"
ونحن فليس نقول بذلك. وإن كنت تعنى ب " الآجال " أن سابق علم الله متقدم لموت كل من يموت، من أى الأسباب مات،
[إن] كان ذلك السبب العام للناس الكائن بالفناء والهرم
أو كان من الأسباب الأخرالتى تعرض للناس (من الأمراض القاتلة
والأحداث التى تحدث عليهم فى الحروب وغير ذلك حتى تتلفهم)
فنحن نقول ذلك ولا ندعى غبره.

قال
(المقدمة: إجماع المؤمنين على أنه تعالى يعلم ما يكون قبل كونه)
إن أهل الإيمان بالله مجمعون على أنه تعالى يعلم ما يكون قبل كونه.

13-وليس يخلو علمه بأن يكون ما يكون من أن يكون سبباً سابقاً إلى كون ما يكون.
(أولاً- ليس علم الله سبباً سابقاً إلى كون شئ من الأشياء الكائنة)
1- ليس علم الله سبباً سابقاً إلى حدوث كل كائن
14- فإن قال قائل:" إن علمه سبب سابق إلى حدوث كل كائن"
15- لزمه من الشناعة أن يصير علم الله سبباً سابقاً إلى زناء الزانى ،وسرقة السارق وقتل القاتل، وكفر الكافر.

16- إذا كانت هذه كل من الأمور الكائنة كلها
وقد زعم أن الله تعالى سبب كل ما هو كائن
17- وقد تبرأ الله عن ذلك وشهدت به كتبه المنزلة
18 فقد بطل أن يكون علم الله سبباً سابقاً إلى حدوث كل ما هو كائن
19- وإذ قد صح ذلك فليس يخلو الأمر من أحد وجهين:
20- إما أن لا يكون علمه (عز وجل!)
سبباً لكون كل كائن أصلاً،
21- وإما أن يكون علمه سابقاً
إلى كون بعض ما هو كائن، وغير سابق إلى بعض.
2- ليس علم الله سبباً سابقاَ إلى كون شئ أصلا من الأشياء الكائنة)
22- فإن زعم زاعم أن علم الله (عز وجل !) ليس سبباً سابقاً
إلى كون شئ أصلاً من الأشياء الكائنة،

23- فقد لزم من زعم هذا أن لا يكون علم الله بما هو كائن
24- سبباً لصحة من يصح، ومرض من يمرض وحياة من يحيا، وموت من يموت.
وأن للصحة والسقم, والحياة والموت أسباباً أخر، يحدثها غيرعلم الله
3 - (ليس علم الله سبباً سابقاً إلى حدوث بعض ما هو كائن دون بعض)
26- فإن زعم أن علمه تعالى سبب لحدوث بعض ما هو كائن دون بعض،
27- لزمه أن يفرق بين الأمورالكائنة، التى يجوز أن ينسب أن يكون علمه سابقاً إليها،
28- وبين الأمور التى لا يجوزأن يكون علمه سبباً سابقاً إليها.
29- ونجد الأمور تنقسم إلى ثلاثة أقسام:
فمنها خير محض، ومنها شر محض، ومنها خير فى حال وشر فى حال

30- فالتى هى خير محض هى الفضائل
31- أعنى المعرفة، والعفاف، والنجدة،
والجود، والعدل، والإنصاف، وسائر ما أشبه ذلك.
32- والتى هى شر محض هى الرذائل، وهى أضداد تلك.

33- أعنى الجهل، والشره، والزناء، والمهانة،والبخل, والجَور، وسائر ما أشبه ذلك.

34- والتى هى فى حال خير وفى حال شر، مثل الحياة والموت.

35- فإن الإنسان، إذا كان بحال ما حيا فيها، ينتفع بها فى نفسه وينتفع بها غيره، فالحياة خيراً له من الموت

36- إذا كان فى حال على ضد هذه، حتى يضر حياته أو يضرغيره، فالموت خير له من الحياة.

4- (ليس علم الله سبباً سايقاً إلى حدوث الشر)

37- ومن نسب علم الله إلى أنه سبب سابق إلى حدوث الشر (محضاً كان أو فى حال ما)

38- فقد أتى بأمر شنيع، لا تقبله العقول وتأباه.

(ثانياً – علم الله سبب سابق إلى حدوث الخير)

39- وإذا كان ذلك كذلك، فأشبه القولين قول من نسب علم الله، إلى أنه سبب سابق إلى حدوث الخير،

40- كان محضاً، أو كان فى حال ما هو خير.

41- بل الذى تقبله العقول أن سابق علم الله ليس هو سبباً سابقاً إلى كون شئ مما هو كائن.

(1- مثل الطبيب الحاذق)

42. ويحتاج ذلك، حتى يفهم، إلى أن نضرب له مثالاً

43 – وهو أن الطبيب الحاذق قد يتقدم فيعلم من أمر المريض هل يسلم من مرضه أو يتلف.

44 – وليس علمه بسلامة من يسلم سبباً سابقاً إلى سلامته،

45 – وإن كان يعاون الطبيعة التى فطرها الله تعالى، فى ذلك المريض على السلامة بعلاجه وتدبيره.

46 – ولكن العلاج والتدبيرهما عن سابق العلم.

47 – فكما أن سابق علم الطبيب ليس هو سبباً سابقاً،

48 – لا إلى السلامة لمن يسلم، ولا إلى التلف لمن يتلف،

49 – كذلك سابق علم الله ليس هو سبباً سابقاً.

50 – إلى سلامة من يسلم من الموت، أو حلوله بمن يحل به

51 – فينبغى للإنسان، إذا كان الأمر كذلك، أن يتقدم فيتفكر

52 – فى حدوث كل ما يمكن أن يحدث به مما يكرهه،

53 – وفى حيلة، إن أمكن الحذر منه قبل وقوع أسبابه،

54 – وفى الحيلة للخروج منها، إذا وقع فيها.

55 – وإن كان الأمر كذلك، فلا فرق بين حدوث كل مكروه يكرهه الإنسان وبين حدوث الموت به.

56 – فكما أنه قد يتقدم فيتفكر، قبل حدوث كل مكروه يخاف أن يحدث عليه،

57 – ويحتال فى الحذر من حدوثه، إن كانت له فى ذلك حيلة.

58 – وفى الخروج من أسبابه، إذا هان عليه،

59 – كذلك ينبغى له أن يحتاط لنفسه فى الموت، قيل حدوث أسبابه وفى وقت حدوثها.

(2– الرد على من يقول إن الموت أحق بالاستسلام له)

60 – وبعض الناس يقول فى هذا: " لا ، بل الموت أحق بالاستسلام له".

61 – " إذ كان أعظم مكروه يحل بالإنسان، فلابد من حلوله".

62 – " فالاستسلام له وترك الاحتياط، إذ كان لابد منه، هو الصواب!"

63 – وهذا القول ينتقض من وجوه.

64 – أما أحدها، فإنه ليس وقوع الإنسان فى الموت أعظم مكروها من وقوعه فى الكفر.

65 – وكما ينبغى له أن يحتاط لنفسه، حتى لا يحل به الكفر.

66 – كذلك ينبغى له أن يحتاط لنفسه، حتى لا يحل به الموت.

67 – قبل وقت الفناء بالهرم الذى لا حيلة فيه.

68 – والوجه الآخرالذى ينتقض به القول المتقدم أن الموت، وإن كان لا بد من وقوعه بالإنسان،

69 – فالإنسان لا يدرى متى يحل به، وإن كان لله قد سبق به علمه.

70 – وليس ينبغى له أن يعمل على سابق علم الله فيه، إذا (423 . P) كان لا يعرفه،

71 – كما ليس يعلم سابق علم الله فى سائرالأشياء الكائنة.

72 – لكن يحتاط فيه لنفسه، بكل حيلة يمكنه بها دفع الأسباب.

73 – التى يخاف أن توقعه فيه، إذا وجد إلى ذلك سبيلاً.

74 – ويعلم أن حدوث الموت ليس له حد محدود بد أن يكون فيه، خلا موت الفناء والهرم.

75 – وأما سائر الأوقات قبله، فقد يمكن أن يسلم فيها منه، بالاحتياط والحيلة،

76 – لأن لا يقع فى الأسباب الموقعة للموت بالهرم، فليس له فيها حيلة فى السلامة منها.

77 – ولكن قد يجب عليه، ما أمكنه الحيلة ألا يتأخر (فيما يحدث عليه من الموت) عنها، وأن يحتال لذلك.

78 – وقد بين جالينوس السبب الذى وجب فيه حلول تلك الأسبا(لا محالة) بالإنسان حتى يقع به الموت ضرورة،

79 – وَيلُطَفُ لاندفاع تلك الأسباب، فيؤخرها ما أمكن وبلغته الطاقة.

(الخلاصة عمر الإنسان قابل للزيادة والنقص لأسباب عديدة)

80 – فحاصل هذا القول جميعه، وتلخيصه وتفصيله، نقول

إن النبات والحيوان، لكل صنف منهما عمر محدد)

81 – إن النبات لكل صنف منهما عمر محدود.

82 – والحيوان، لكل نوع منه عمر طبيعى يدور حوله.

83 – فهو، متى سلم من الموت، من آفات تعرض له،

84 – يبقى، إلى أن يصل إلى عمره الطبيعى وعند ذلك يتلاشى ويفنى

(عمر الإنسان يختلف فى كل جيل)

85 – فأما الحيوان الناطق، خاصة فإن له، فى كل جيل، عمراً يهبه الله له فيه

86 – أما فى الصدر الأول، فقد انتهى بآدم العمر(وبأولاده وبأولادهم، إلى متوشالح ونوح.

87 – بما فيه من الزيادة والنقص، إلى ما وصل إلى تسعمائة وستين سنة ونيف.

88 – والصدرالثانى الذى بعده، أخذت أعمارهم فى النقص إلى أيام موسى،

89 – وقفت عند مائة وعشرين سنة، وانتهت إلى هذا الحد.

90 – ثم إلى الجيل الثالث، تقاصرت [أعمارهم] إلى أيام داود النبى،

91 – انتهت إلى سبعين سنة، وإلى ثمانين سنة، وما زاد عن ذلك، فهو نادر.

92 – وبلغت إلى هذا الحد، إلى هَلُمَ جرا (p425

93 – وصارهذا النوع الناطق، خاصة، يدورح ول هذا السن،

(3– عمر الإنسان يقبل الزيادة المناسبة له والنقص، لأسباب عديدة)

94 – ويقبل الزيادة المناسبة له والنقص

95 – أما الزيادة، فقد زاد الله فى عمرِ حزقياً الملك خمس عشرة سنة،

96 – ووعد الله بنى إسرائيل بأن يبارك فى أعمارهم ويزيد فيها، إذا أطاعوه

97 – وأما النقص فدليله توع د المذكورين بعكس ذلك.

98 – ومن قول داود النبى" يارب لا تقبضنى فى نصف عمرى"

99 – وقد يعرض النقص من مرض سببه الخطية، فإن الخطايا تحبل وتلد الأمراض والموت.

100 – أو من تخليط المآكل والمشارب والحركات النفسانية والجسمانية.

101– أو من عرض، كمن يسكر ويلقى نفسه من علو إلى أسفل،

102– أو كمن قاتل عدوه، فقتله،

103– أو كمن قتل ظلماً وعدواناً ونحو ذلك.

104– ومن الاستقراء عرفت أيضاً هذه الوجوه والله أعلم!

الفصل الرابع عشر

14 – نوادر وأداب الفلاسفة

كتاب " نوادر الفلاسفة والحكماء" لحنين بن اسحق هو اقدم مجموعة من حكم الفلاسفة اليونانيين صنفت فى اللغة العربية، ومنه استمد كل من صنف فى هذا الباب مثل أبى الفرج بن هند ومسكويه، والمبشر بن فاتك وقد حققه وعلق عليه الدكتورعبد الرحمن بدوى ونشره معهد المخطوطات العربية بالكويت 1985.

بيد أن هذا الكتاب لم يصلنا فى صورته الأصلية، بل فى صورة مختصرة قام بها من يدعى محمد بن على الأنصارى، وهو شخص لا نعرف عنه شيئاً والترجمة العبرية التى قام بها يهودا الحريزى إنما قامت على أساس هذه الرواية المختصرة . لهذا لا نستطيع كما يقول الدكتورعبد الرحمن بدوى، أن نعرف بالدقة ماذا كان عليه النص الأصلى الذى صنفه حنين بن اسحق (المتوفى سنة 260–873م) وماذا حذف الأنصارى منه، وما عسى قد أضاف إليه أو بدل فى ألفاظه.

وأول المشاكل التى تثار هنا تتعلق بعنوانه

فقد ورد فى نشرة الأسكوريال رقم 760 بعنوان " آداب الفلاسفة "

ب– وذكره ابن أبى أصيبعة بعنوان: " نوادر الفلاسفة والحكماء وآداب المعلمين القدماء"

ج– وذكره حاجى خليفة فى " كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون " هكذا: " نوادر الفلاسفة والحكماء لحنين بن اسحق"

د– وفى مخطوط منشن ورد العنوان هكذا: " نوادر الفلاسفة والحكماء"

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى محقق هذه النسخة:

إن مشكلة العنوان وغيرها تهون بالقياس إلى مشكلة رئيسية عويصة وهى :

من أين استقى حنين بن اسحق هذا المجموع؟ وهل نقله كله عن أصل يونانى، أو أضاف إلى ما وجده فى الأصل اليونانى؟
وللإجابة على هذا السؤال يستعرض الدكتور عبد الرحمن بدوى دراسات المستشرقين حول هذا الموضوع، وسوف أوجز هذا العرض فى الفقرات التالية:

من أوائل من تناولوا هذه المشكلة أوجست ملر فى مقال له بمجلة ZDMG (ج31، ص 525) فتساءل: إذا كان حنين بن اسحق قد استمد مجموعه هذا من مختارات يونانية؟ فكيف حدث أن الآداب (الحكم، الجمل القصار) التى يوردها هى مصبوغة بصبغة شرقية؟

لابد أنه قد تصرف على هواه مع مصادره اليونانية، ما دام قد ألبس الفلاسفة اليونانيين الذين نسب إليهم ما نسب من أقوال، ألبسهم رداًء شرقياً ثم إن أخبار الإسكندر تجعله يلعب دور نبى فى الفترة السابقة على الإسلام وعلى غرار النموذج الإسلامي للنبى محمد ، فكيف حدث هذا إذا كان حنين إنما ينقل عن أصل يونانى؟ ثم إذا كان مصدر حنين مصدراً يونانياً قديماً؟ فلا محل للقمان، لأن الأدب اليونانى لم يعرف لقمان.

ويرد ليفنتال (ص6) على هذه التساؤلات بأن يقول إن حنين إنما قصد بمجموعه هذا أن يقدم كتاباً فى الأخلاق. ولكى يبلغ هذا الغرض جمع كل ما وجده فى ميدان الأخلاق والآداب، سواء عن المؤلفين اليونانيين أو غير اليونانيين.

أما أخبار الإسكندر وآدابه فقد استقاها من قصة للإسكندر مكتوبة بالعربية واتخذت صبغة إسلامية. أما الطابع الشرقى للآداب التى يوردها عن الفلاسفة والحكماء اليونانيين فمرجعه إلى أن البيزنطيين كانوا قد صبغوا الآداب اليونانية بصبغة شرقية، كما بين ذلك كرومباخر(krumbacher)
وينتهى ليفنتال إلى القول بأن اللون الشرقى فى الآداب لا يرجع إلى حنين نفسه. بل إلى المصدر اليونانى الذى نقل عنه، كما أن تصوير الإسكندر بالصورة الواردة فى الكتاب يرجع إلى مصدر عربى استقى منه حنين أخبار الإسكندر.

لكن ثمة عناصر أخرى فى مجموع حنين هذا: فثمة عناصر مسيحية تتمثل فى أن بعض عبارات الإنجيل قد وردت على لسان بعض الفلاسفة اليونانيين. وليفنتال يفسر هذه الظاهرة بكون بعض المجموعات البيزنطية التى صنفت فى القرون التالية لاعتناق البيزنطيين للمسيحية قد أولجت فيها أقوال مسيحية من الإنجيل ورسائل بولس وغيرها، كما بين ذلك كورنل" (Cornill)

وقد نقل عن كتاب " آداب الفلاسفة " لحنين بن اسحق عدد كبير من المؤلفين العرب يذكر د. بدوى منهم:

مسكويه: "الحكمة الخالدة: جاوبدان خرد"

ابن هندو: الحكم اليونانية "

المبشر بن فاتك فى كتابه "مختار الحكم" (نشره عبد الرحمن بدوى فى مدريد سنة 1958، ط2 سنة 1981 فى بيروت) وقد صنفه فى سنة 445هـ

المسعودى (956 م) فى" مروج الذهب"

الشهرستانى (1086م- 1153م) فى كتابه" الملل والنحل "

ابن أبى أصيبعة فى" عيون الأنباء فى طبقات الأطباء"

سليمان بن جبيرول فى كتابه "مبحر هاينينيم" =(مختار الدرر) وقد ولد ابن جبيرول فى مالقه حوالى سنة 1021م، وتوفى فى بلنسية حوالى سنة 1058م، وكتب بالعربية والعبرية. أما من المؤلفين غير العرب، فيذكر:

بطرس الفونس PETRUS ALFONS فى كتابه Disciplin Clericalis وخايمة الفاتح D.Jaime فى كتابه:" كتاب الحكمة "Libro de la Savesa

يهوذا Jafuda الذى صنف، بأمر من دون خايمه كتابا; فى أمثال الحكماء.

دون خوان مانويل D. Juan Manuel فى كتابه " الكونت لوكانور" Lucanor.

ويقول عبد الرحمن بدوى إن هناك تشابها بين ما كتبه الفارابى عن فرق الفلسفة وما ذكره حنين فى بداية كتابه. لكن يبدو أن الفارابى استقى من مصدر آخر غير حنين، لوجود اختلافات ظاهرة بين كلام كليهما، اختلافات تؤذن بأن الفارابى لم ينقل عن حنين.

والملاحظ بشكل عام أن المؤلفين العرب الذين نقلوا عن حنين وأوردنا أسماءهم من1- 7 لم يذكروا أنهم نقلوا عن كتاب حنين، وتلك كانت عادة شائعة لدى الناقلين عن غيرهم. ويزول العجب من هذا الصنيع حين نذكر أن خلفاءهم المعاصرين اليوم لا تزال غالبيتهم يصنعون هذا الصنيع.

بعد هذه المحاولات العديدة التى قام بها المستشرقون وآخرهم الدكتورعبد الرحمن بدوى فى البحث عن مصادر هذا الكتاب، يلزمنا ان نقف وقفة كافية للنظر فى شكل الكتاب، الذى بين أيدينا وفى محتوياته ،وربما هدانا ذلك إلى موقف واضح من مضمونه ومغزاه.

فقد اعتاد حنين بن اسحق أن يوثق لترجماته ومؤلفاته بطريقة لا تقبل الشك. وهذا ما عرفته من رسالته فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بل ومن عناوين كتبه وشروحه. ولو وجد ضرورة لإثبات أصول لكل هذه الأمور التى عرض لها فى هذا الكتاب لفعل، لأن الكتاب عبارة عن صباغات لمواضيع وأفكار منسوبة لحكماء وفلاسفة كثيرين منهم المعروف وغير المعروف. وإذا دققنا النظر نجد أنها أقنعة لأفكار حنين بن اسحق ورؤيته للتعليم والسياسة فى تلك الفترة العاصفة الذى عاش فيها واكتوى فيها بالمحن والمكائد.

فالكتاب حصيلة لثقافة حنين العلمية والفلسفية والأخلاقية أراد بها أن تكون رسالة تعليمية وأخلاقية لأبناء عصره. وهنا يثبت هذه الرسالة بصورة غير مباشرة تحت قناع اسمه"نوادر وآداب الفلاسفة " لكى يقدم وبصورة موضوعية، درسا فى حب العلم واحترام العقل والإيمان بالله والاعتبار بالموت الذى ينتظر كل إنسان إلى جانب قيم المساواة والرحمة والعدل فى كل ذلك.

وثقافة حنين العميقة والشاملة تمكنه من ذلك فقد قرأ حنين وترجم المئات من الكتب العلمية والفلسفية. فترجم من كتب الفلسفة إلى السريانية (كتاب العبارة) لأرسطو الذى ترجمه ولده اسحق إلى العربية. واسحق هو أعظم مترجم لكتب أرسطو إلى العربية، كما يتفق الباحثون، ولكن معلوماته فى اللغة العربية كانت قليلة جداً بحيث أنه لم يتمكن من حسن الترجمة. ولقد راجع حنين كثيراً من تراجمه.

والمعروف أن كتب الفلسفة لم يقدم العرب على ترجمتها إلا فى أيام المأمون (811-833) ويرجع السبب أولاً إلى نزعته نحو التفكير المعتزلى وولعله بعلوم الأقدمين. وثانيا لحاجته إلى آلة تمكن العلماء المسلمين من دحض أراء الزنادقة وأصحاب المانوية والزرادشتيه. وتأييداً لصحة فكرته حول

خلق القرآن التى اعتنقها، أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية إلى العربية، ثم جعل الترجمة لعامة مؤلفات أرسطو وشراحه فى الفلسفة وغيرها. ونتيجة لهذا الجدل الفكرى الساخن الذى استمر لسنوات بعد عصر المأمون، ربما وضع حنين بن اسحق هذا الكتاب المسمى (نوادر وأداب الفلاسفة) وواضح من تحليل محتوياته أنه كان يأخذ اتجاهاً مغايراً للجدل العنيف الشائع فى الأوساط الثقافية حينذاك.

ورغم أن الكتاب يأخذ أسلوب السؤال والجواب أو الحوار إلا أنه يتحاشى التشدد تماما ويميل بقوة إلى أسلوب الحكمة والموعظة والتعقل، وكأنه يريد أن يقول لولاة الأمور والعلماء فى عصره "رويداً رويداً " وبطريق غير مباشر يقدم قصة الاسكندر الذى ملك الدنيا، وكيف كانت نهايته وهو يوصى أمه بألا تجزع لموته، ويقول فى رسالته " يا أم هل وجدت لبنى الدنيا ملكاً باقيا، أو حالاً دائمة؟ ! ألم ترى إلى الشجرة المخضرة كيف تهتز أغصانها وتلتف أوراقها وتحمل ثمرها، ثم لا تلبث أن تنكسر أغصانها وينتثر ثمرها؟!" وكأنه يردد قول سليمان الحكيم" باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس".

وتكرار هذا النمط من المواعظ سواء فى أحاديث الفلاسفة أو اجتماعاتهم انما يدل على أن حنين كان يهدف إلى توصيل رسالة لأهل السلطة والمتشددين من رجال الدين حتى يتوخوا جانب اللين فى مواجهة الخصوم. وقد عانى حنين نفسه التعذيب والهوان فى زمن المتوكل، عندما انقلبت الآية واشتد عنف الفقهاء من أهل السنة ضد المعتزلة وضد أصحاب المنطق والفلسفات العقلية، رغم أن المتوكل هو الذى عين حنين بن اسحق رئيساً لبيت الحكمة فكثر حساده وخصومه من المسيحيين والمسلمين على السواء.

والمؤسف أن الأساتذة الذين اهتموا بأمر هذا الكتاب وبحثوا عن مصادره لم يهتموا بهذه المسألة، ولم تطرأ على أذهانهم أنه ربما يكون رسالة سياسية وأخلاقية صنفها حنين بن اسحق من محصول قراءاته الغزيرة فى الفلسفات والعلوم وفى الكتب الدينية، وأراد أن يبثها بروح المودة والمؤانسة الى أصحاب العقول المغلقة والأعصاب المتشنجة على هيئة كتاب فى التسلية والترويح. ولهذا لم يذكر مراجعه، كما اعتاد فى كتبه الأخرى، حتى لا ينكشف مقصده ويبدو كطرف فى خضم تلك الصراعات الفكرية والأيدولوجية التى كانت محتدمة.

والكتاب يقع فى مائة وأربع وخمسين صفحة من القطع المتوسط ويحتوى على عدد كبير من المقالات ذات عناوين مختلفة بادئا بتعريف موجز لفرق الفلاسفة وأسباب اختلافهم وفى أغلب الأحوال يبدأ على النحو التالى (قال حنين بن اسحق)

وسوف أحاول تقديم بعض النماذج الممثلة لهذه النوعية من المقالات فى إيجاز غير مخل ولا ممل، لأتيح للقارىء فرصة التعرف على هذا اللون من الكتابة والتنبيه إلى الغاية المقصودة منه، وهى غاية تربوية تعليمية كما هو واضح، تدل على عمق ثقافة المؤلف وسعة علمه. وكذلك على قدرته فى إيجاز الحكم بهذه الطريقة الشيقة ترغيبا للقارىء وإمتاعا له. وهو يعطى لكل حديث عنوان يبدء بعبارة " قال ابو زيد حنين بن اسحق" وأول حديث حول فرق الفلاسفة.

فرق الفلاسفة

وهنا يقدم حنين تعريفاً حافلاً بالمعلومات المفيدة فيقول:

هذه نوادر ألفاظ الفلاسفة الحكم، وآداب المعلمين القدماء، الذين أصلوا الحكمة وفرعوها، وأذاعوها فى عالمهم وشرعوها، حتى عرفت بهم، ونقلت عنهم. وهم أساطينها ودعائمها، وقوامها ونظامها وتمامها. وتفرقوا فى الفلسفة، واختلفوا فى أحوال المعرفة فرقاً: اشتق لكل فرقة منها اسم مفهوم، ومعنى معلوم: من اسم القابل للفلسفة والمعتقد لها. صـ 37

فقد تبين أن الفلاسفة تسمت بسبعة أشياء: باسم المعلم، وباسم بلده، وباسم الموضع الذى يعلم فيه، وبتدبيره وبرأيه فى العلم، وبالحد المقصود إليه فى العلم، وبفعال الفيلسوف وبالهمم السامية:

فالمسمون باسم المعلم: فشيعة فيثاغورس

والمسمون باسم البلد: فشيعة أرسطفوس Aristippus مؤسس المدرسة القورينائية

والمسمون باسم الموضع الذى يتعلمون فيه: فأصحاب المظلة (الرواقيون)

والمسمون بالحد المقصود إليه: فالمتمنعون، (أى الشكاك)

المسمون بأفعال الفيلسوف: فأصحاب اللذة

والمسمون بالهمم السامية: فالمشاؤون عند التعليم وهم أصحاب الأروقة وكان تعليم الفلاسفة حفظاً لا يدور بينهم قلم. (صـ41 , صـ42)

قال أبو زيد حنين بن اسحق: وقد بلغنا أن أفلاطون الحكيم نظر إلى بعض التلاميذ وهو يكتب ما يسمع فى صحيفة معه، فأمره أن يحذفها وقال: احفظ بقلبك ما تسمعه أذناك من الحكمة ولا تتكل على كتابتها فى صحيفة فتعجزك طلباً، فكل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام ليس بعلم ومن ذلك قول طماوس لسقراط: لم لا تدعنى أدون ما أسمع من الحكمة؟ فقال: " ما أوثقك بجلود البهائم الميتة، وأكثر اتهامك للخواطر الحية! كيف رجوت العلم من موضع الجهل، ويئست منه من عنصر العقل! وفى الجملة: هب أن إنساناً لقيك فى طريق، فسألك عن شئ من العلم: هل كان يحسن بك أن تحيله على الرجوع إلى منزلك والنظر فى كتبك؟ فإن كان لا يحسن، فالزم الحفظ."(صـ42)

ويوضح حنين هذه المسألة بقوله: وكانت مجالس الفلسفة خالية من الكتابة، طلباً للحفظ ولشحذ القرائح والأذهان واتباعاً لسنن سقراط وأفلاطن وغيرهما من القدماء. وإنما دونت هذه العلوم فى البيت ولولا تدوين التلاميذ ما سمعوه فى صحفهم ومصاحفهم، بعد انصرافهم إلى منازلهم، لما وصل إلينا ما فسرناه من العلم، وترجمناه من الحكمة والفلسفة، ولكانت الحكمة قد دثرت، والفلسفة قد انقرضت. كان برحمة الله وتوفيقه ما ألهمهم ذلك بالكتاب بألسنتهم وأقلامهم، ولرغبتهم فيه وابتهاجهم بما تدارسوه من الصحف ليلاً ونهاراً. ثم من الله علينا -عز وجل- وعلمنا العربية حتى استخرجنا ذلك من اليونانية، والعبرانية، والسريانية، والرومية إلى اللسان العربى المبين، فلله الحمد على النعمة فيه والامتنان به والتوفيق له، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

2- وفى الحديث التالى يشرح حنين بن اسحق غايته من هذا الكتاب فيقول:

فمما نقلت من الأخبار عن شعراء اليونانيين وحكمائهم، وفلاسفة الروم وعلمائهم – من النوادر والآداب والسياسة – ما أثبتناه فى هذا الكتاب من سؤال وجواب وابتداء خطاب من حكمة نافعة وآداب بارعة، ليكون إماماً لمن بعدنا من أهل الفلسفة والنظر، ومعلماً لمن يرغب فى تعلم الحكمة وآثر الفلسفة والتعلق بالعلم بالملكوت الأكبر الروحانى الملكوتى والاتصال به، إذ كان الاتصال به هو الحياة الدائمة والنعيم الذى لا يزول، وسكنى الفراديس مع الربانيين الروحانيين الأحياء الدائمين، جعلنا الله منهم ووفقنا لما وفقهم برحمته وجوده وكرمه.

3- ذكر الفلاسفة

وهنا يعرفنا حنين بالفلاسفة وبدورهم وأهمية هذا الأمر من أجل التقدم والرقى فيقول:

الفلاسفة هم العلماء القدماء، والحكماء والفهماء، الذين من عندهم وردت الفلسفة، وعنهم صدرت المعرفة، ولهم الأمثال السائرة والحكم الغابرة. كلامهم فى القلوب مثل نسيم الحياة عند الهبوب، وكالواحة للمكروب. وكلامهم فى العقول والخواطر، كالماء البارد فى الهواجر، وكأوبة المسافر.

ولكل واحد منهم من الكلام البين الفاصل، والأدب الكامل ما يقبله من يسمعه، وينتفع به من يعيه، ويصلح به أمر الدنيا والآخرة. ما سمعته أذن فمجته ولا عرفته نفس فأنكرته. وما عسى أن يقول قائل فى تقريظ الحكماء، ووصفهم وما سمعت كلمة من كلامهم أصابت وارتاحت النفوس إليها إلا كانت إلى أختها أشد ارتياحا. فالقلوب معلقة بكلامهم، كتعلق النفوس بالهواء الذى هو قوامها. والعقل يشهد لمعانيهم بالبيان.

ولكل واحد منهم حكمة بالغة، على فص خاتمه منقوشة، نحن ذاكروها وذاكرو اجتماعاتهم فى بيوت الحكمة التى اتخذت لهم. ثم نتبعها بآداب من نقل عنه أدب من الحكماء الفلاسفة باباً باباً، إن شاء الله والقوة لله. (صـ44)

نقوش فصوص خواتيم الفلاسفة

يقال إنه كان على خاتم سقراط: من غلب عقله هواه افتضح. وعلى منطقه: من غض طرفه، أراح قلبه.

وعلى خاتم ذيوجانس: لا تلم القضاء فيما جنيت. وعلى سير منطقه: منَ وَّدك لأمر، ولىَّ مع انقضائه.

وعلى خاتم أفلاطون: تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك.

وعلى خاتم أرسطوطاليس: المنكر لما يعلم أعلم من المقر بما يعلم.

وعلى خاتم أبقراط: المريض الذى يشتهى شيئاً أرجىء عندى من الصحيح الذى لايشتهى شيئا

وعلى خاتم جالينيوس: من كتم داءه أعياه شفاؤه.

وعلى خاتم فوروخوس: من لم يملك عقله لم يملك غضبه.

وعلى خاتم فرفوريس: من لزما الوفاء لزمه الرضا، ومن قل وفاؤه، كثر أعداؤه.

وعلى خاتم فيلاطوس: صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله.

وعلى خاتم فرفوريوس: من صان لسانه، كثر أعوانه.

وعلى خاتم بطليموس: التجنى وافد القطيعة.

وعلى خاتم أوثيوس: فى التجربة والعافية شفاء وراحة.

وعلى خاتم سولون: مؤاخاة الملول بقدر حاجته.
وعلى خاتم هرمس: الأجل حصاد الأمل
وعلى خاتم مهراريس: من كتم سره كانت الخيرة بيده.
وعلى خاتم خروسيس: من احتجت إليه هنت عليه
وعلى خاتم نطوفورس: من بهتك بالزور فكأنما خدش وجهك.
فيثاغوريوس: من احتاج إليك، كانت طاعته لك بمقدار حاجته.
وعلى خاتم فيقورس: مودة المحتاج بقدر حاجته وهذا هو الأول.
وعلى خاتم لقمان: الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت.
وعلى خاتم الإسكندر: أحسن إن أحببت أن يحسن إليك. (صـ47)
تعليق

واضح من حديث حنين بن اسحق عن الفلاسفة هنا أنه يقدم محاضرة تعليمية للتعريف بالفلاسفة ومدارسهم، وكيف جرت تسمية هذه المدارس أو المذاهب الفلسفية. فمن يسمون باسم المعلم كشيعة فيثاغورث, ومن يأخذون اسم الموضع كأصحاب المظلة والرواق وهم الرواقيون الى غير ذلك .إنه يقدم معلومات وتعريفات، واشارته لهذه المدارس وتعايشها معا رغم ما بينهم من خلافات هو إشارة غير مباشرة لفكرة التعددية الفكرية، يختمها بحديث شيق عن النقوش والخواتم التى تحمل حكمة كل واحد من هؤلاء الفلاسفة الكثيرين. وكلها تدعو للاهتمام بالتعلم واحترام العقل والسلوك القويم البعيد عن الإسراف والتهاون والتطرف.

اجتماعات الفلاسفة فى بيوت الحكمة فى الأعياد وتفاوض الحكمة بينهم

اجتمع أربعة من حكماء الفلاسفة والمعدودين من أساطين الحكمة فى بيت الصور المذهبة فى يوم عيد من الأعياد اليونانية، فخاضوا فى فنون من الحكمة، وتكلموا فى الفلسفة وتذاكروا ما أصلته لهم الأوائل من الحكمة. فقال بعضهم لبعض: إن مجلسنا هذا لا يخفى، واجتماعنا لا ينسى وقد حضره من يرغب فى فوائد الحكمة، ويحب استماع العلم فهلموا نذكر فى اجتماعنا هذا أحرفاً يذكر بها مشهدنا ويتعلم بعدنا ما ينقل عنا، يكون أدباً للأول وعلماً للآخر.

فابتدأ أحدهم فقال: بالهمم العلية والقرائح الذكية تصل القلوب إلى نسيم هواء العقل الروحانى، وترقى فى ملكوت الضياء والقدرة الخفية عن الأبصار المحيطة بالأفكار، وترتع فى رياض الألباب المصفاة من الأدناس. وبالأفكار يصفو كدر الأخلاق المحيطة بأقطار الهياكل الجسيمة.

فعند مفارقة الكدر تعيش الأرواح عيش الأبد الذى لا يصل إليه انحلال ولا اضمحلال. فحينئذ يلحق العنصر بالعنصر ويتحد الصفو بالصفو، ويرسب الكدر إلى الكدر، فتعاين القلوب حقائق الغيوب ،وتطمئن النفوس إلى ما لحقت به من العالم المعلوم بحسن الأفكار وباتساق الأشكال والأهواء .(ص48)

أصل اجتماعات الفلاسفة

4- قال حنين بن إسحق:

أصل هذه الاجتماعات أنه كانت الملوك من اليونان وغيرها تعلم أولادها الحكمة والفلسفة وتؤدبهم بأصناف الآداب, وتتخذ لهم بيوت الذهب المصورة وأصناف الصور. وإنما جعلت الصور لارتياح القلوب إليها واشتياق النظر إلى رؤيتها. فكان الصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التى فيها. ولذلك نقشت اليهود هياكلها وصورت النصارى بيعها وكنائسها وزوق المسلمون مساجدهم, كل ذلك لترتاح النفوس إليها وتشتغل القلوب بها. فإذا حفظ المتعلم من أولاد الملوك, علماً أو حكمة أو أدباً, صعد على درج مجلس معمول من الرخام المصور المنقوش فى يوم العيد الذي يجتمع فيه أهل المملكة إلى ذلك البيت, بعد انقضاء الصلاة والتبريك, فيتكلم بالحكمة التى حفظها, وينطق بالأدب الذى دعاه على رؤوس الأشهاد فى وسطهم, وعليه التاج وحلل الجواهر. وَيحيىَّ المَعلمُ وُيكرَم وُيبَر. ويشرف الغلام ويعد حكيماً على قدر ذكائه وفهمه وتعظم الهياكل وتستر وتشعل فيها النيران والشموع, وتبخر بالدخن الطيبة. ويتزين الناس بأنواع الزينة. وبقى ذلك إلى اليوم للصابئة. والمجوس, واليهود والنصارى فى الهياكل, وللمسلمين منابر فى المساجد. (صـ 51)

تعليق:

وهنا نرى حنين الطبيب يهتم براحة النفوس اهتمامه بطلب الحكمة العقلية والروحية على السواء. وكلامه عن الصور والنقوش والزخارف يعنى إعلاء لدور الفن فى تثقيف النفوس والعقول. ولعلها موعظة أخرى للمتشددين الدينيين الذين يرون فى الاهتمام بالصورة الفنية انحلالاً أو وثنية كما

نلاحظ أن حنين بن اسحق لا ينسى ذكر الله ويختم كلامه بالشكر والتمجيد له حتى فى رسائل الاسكندر وأمه وأقوال الفلاسفة رغم أنهم جميعاً عاشوا فى عصر سابق للمسيحية والإسلام. وتأمل ما يأتى به نجده يقدم خطبة على لسان أرسطو ثم يعقبها بأمثلة ومقولات تؤكد نفس المضمون الذى تقدمه الخطبة. وهذا التنويع فى الأسلوب يقصد منه التسلية والإمتاع أى التعليم عن طريق المتعة.

حكمة أرسطوطاليس

قال حنين بن إسحق:

هذا ما وجدت من حكمة أرسطو إلى ذلك اليوم: لبارينا التقديس والإعظام والجلال والإكرام.

أيها الأشهاد! العلم موهبة البارى, والحكمة عطية من يعطى ويمنع, ويحط ويرفع. التفاضل فى الدنيا والتفاخر هما الحكمة التى هى روح الحياة ومادة العقل الربانى العلوى وأنا ارسطوطاليس بن فيلونيس اليتيم, خادم الملك نطافورس بن الملك العظيم: حفظت ورعيت, والتسبيح والتقديس لمعلم الصواب ومسبب الأسباب.

أيها الأشهاد بالعقول تفاضل الناس, لا بالأصول. ووعيت عن أفلاطون الحكيم: الحكمة رأس العلوم, والآداب تلقيح الأفهام ونتائج الأذهان. (صـ53)

آداب أفلاطون

قال أفلاطون الحكيم: للعادة على كل شئ سلطان

وقال: سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبر العسل

وقال: ليس بيسير تيسير العسير.

وقال القلب ضياء , والغم ظلمة. فمتى وردت الظلمة على الضياء أظلمته والسرور ضياء فمتى ورد على الظلمة أضاءها. وإنما مثل السرور ينحط على الغم فى القلب مثل النهار ينحط على الليل.

وقال: ما معى من فضيلة العلم إلا علمى بانى لست بعالم.

وقال: لولا أن فى قولى: "لا أعلم" تثبيتاً أنى أعلم لقلت إنى لا أعلم.

وقال: النار لا ينقصها ما أخذ منها لكن يخمدها ألا تجد حطباً. وكذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن بعد الحاملين له سبب عطبه. فإياك والبخل بما تعلمه. (صـ74)

آداب أرسطاطاليس

قال أرسطاطاليس: لا يوجد الفجور محمودا, ولا الغضوب مسروراً, ولا الكريم حسوداً, ولا الشره غنياً, ولا الملول دائم الإخاء, وقال: زهدك فيمن يرغب فيك قصر همة. ورغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس. وقال: الحلم عدة للسفيه, وجنة من كيد العدو وحرز من حسود. فإنك لن تقابل سفيهاً بالإعراض عن قوله إلا أذللت نفسه, وفللت حده, وسلل عليه سيوف من يشاهد حلمك فيتولوا لك الانتقام منه.

وقال: العلم دليل العقل. والعقل قائد الحلم. (صـ80)

رسائل أرسطاطاليس إلى الإسكندر

وكتب إليه فى بعض رسائله:

كما أنه ليس من المروءة أن تقتصر من الأموال والعبيد على ما فيه الحاجة وتدعوك إليه الضرورة, بل أن تتخذ الأشياء الشريفة التى كالبهاء والتجمل. فكذلك العلوم أيضاً ليس من المروءة أن تقتصر منها على ما تحتاج إليه لضرب من المنفعة دون أن تكتسب الشريف السنى منها.
وكتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر حين ظفر بما ظفر به وافتتح عامة البلاد:

املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها, فإن طلبك ذلك منها بإحسانك إليها أدوم بقاء منه باعتسافك عليها. واعلم أنك لا تملك الأبدان والقلوب إلا بالمعروف. واعلم أن الرعية إذا قدرت أن تقول. قدرت أن تفعل. فاجهد ألا تقول. تسلم من أن تفعل. (صـ 83)

ومما يضع قدر الرياسة ما كان يضع ملك فارس: فإنه كان يسمى ابنه وكل واحد من رعيته عبيداً. والرياسة على الإخوان والأفاضل خير من التسلط على العبيد وإن كثروا، وهى بالناس جميعاً أولى ولا سيما بذوى الهمم والأخطار. المعروف أن أرسطو هو معلم الاسكندر الأكبر. وهو حريص أن يرشده إلى الطرق السديدة فى سياسة الأمم وحكمها. فهو يوصيه أن يتحلى بالعلم وأن يسعى وراء العلم الشريف ثم أن يملك الشعوب بالإحسان إليها ليكسب محبتها ويعرفه أن الذى انحط بالفرس ودمر سلطانهم أنهم كانوا يعاملون كالعبيد من جانب ملوكهم، وعليه أن يبتعد عن الفظاظة والقسوة فى معاملة العامة. وأن الرياسة على الأخوان والأفاضل خير من التسلط على العبيد. ثم يقول:

وأنت حقيق بأن تسل سخيمة العامة على السلطان مما تذيقهم من رفق تدبيرك، وتضع عنهم من مكروه العنف والغلظة والفظاظة. فإن العبيد إذا عرضوا على المشترين لا يسألون عن كسادهم وجاههم, بل إنما يسألون: هل فيهم فظاظة؟ فالأحرار أحرى أن ينفروا من ذلك إذا كان ذلك فى السلطان. ولذلك ما يصيرون إلى الوثوب عليه. فإذا ظهرت على مثل ذلك, فضع مع أوزار الحرب أوزار الغضب . . فقد ينبغى أن تبدلهم بالغضب رحمة وعطفاً. وقد ينبغى للمرء أن يعرف مقدار الغضب فلا يكون غضبه شديداً طويلاً, ولا ضعيفاً قصيراً, فإن ذلك من أخلاق السباع, وهذا من أخلاق الصبيان". (صـ84)

تعليق:

يحتوى هذا الكلام درسا عظيما فى سياسة الأمم. وقد كان أسلوب ملك فارس فى التعامل مع أفراد شعبه كعبيد سببا فى هزيمة جيشه أمام الإغريق. وهى فكرة ناقشها شعراء التراجيديا الإغريقية.

ولنتابع الأحاديث حول الاسكندر:

(1) آداب الإسكندر بن فيلفوس الماقدونى, المعروف بذى القرنين.

وإنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ المشرق والمغرب, وهما قرنا الدنيا. وقيل: بل كانت له ضفيرتان, فسمى بهما. ويقال إن ذا القرنين سمع من معلمه أرسطاطاليس أن الغم يعل القلب, والهم يذيب القلب, فأراد أن يعلم حقيقة ذلك. فعمد إلى حيوان يقارب الإنسان فى الطبع فحبسه أياماً فى موضع مظلم وأجرى عليه من القوت ما يقيم جسمه. ثم أخرجه فذبحه, فوجد قلبه قد تلاشى وذاب حتى لم يبق إلا رسمه فعلم أن أرسطاطاليس الحكيم لم يقل إلا حقاً.

فمن آدابه:

قوله: لا يتلبس بالسلطان فى وقت اضطراب الأمور عليه, فإن البحر لا يكاد يسلم راكبه فى وقت سكونه, فكيف لا يهلك مع اختلاف رياحه واضطراب أمواجه؟ (صـ87)

(2) خبر الإسكندر فى آخر علته

لما أيقن بالموت, وكان سقى سماً وكتابه إلى أمه ينهاها عن الجزع ويأمرها بالصبر عنه:

أما بعد!

فارغبى بنفسك, يا أم, عن شبه النساء فى الرقة والضعف, كرغبتى التى كانت عن شبه الرجال فى الدنيا من أمورهم, ورغبتى بنفسى عن ذلك. واعلمى أن الموت لم أفكر فيه ولم يتعبنى من أجل أنى كنت أعلم أنه سيأتينى, فلا يتعبك الحزن, فإنك لم تكونى جاهلة بأنى من الذين يموتون.واعلمى أنى كتبت كتابى هذا وأنا أظن أنك تتعزين به, فلا تخلفى ظنى.(صـ 91)

تعليق:

لم يهتم دارسوا هذا الكتاب بصحة السبب فى موت الاسكندر:هل مات مسموما كما يفيد عنوان الرسالة هنا، أم انه مات نتيجة إصابته بالحمى فى بابل حسب رواية المؤرخ البريطانى جون مارلو فى كتابه " العصر الذهبى للإسكندرية "(ترجمة نسيم مجلى – المشروع القومى للترجمة 2003)

ولننظر فى معنى كلام الاسكندر إلى أمه إذ نجده يؤكد أن الموت هو نهاية كل إنسان، وأنها كانت تعرف أنه سوف يموت كباقى البشر، وترد عليه الأم فتؤكد هذا المعنى. بل إنها تضرب الأمثلة التى تعنى شيئا واحداً وهو أن الحياة لا بقاء لها، وكأنها تعيد صيحة سليمان الحكيم "باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس".

وهنا نسأل لماذا يؤلف حنين بن اسحق كل هذه الأقاويل وينسبها إلى أرسطو والاسكندر وأم الاسكندر مثلاً؟ إنه يؤلف هذه الحكايات على لسان هؤلاء لكى تكون أوقع عند أصحاب السلطان المبهورين بالدنيا وغرورها.

(3) كلام أم الإسكندر لما قرأت كتاب ابنها فى تعزيتها:

إن الأقدار بالمنون تجرى بما يشاء مجريها والحكم بالموت ماض على كل حى كما يمضيه الحاكم به. والحياة وإن طالت فالانتهاء يلحقها وإن قصرت فالابتداء يمحقها. وجديد الدنيا فإلى بلاء. وعمارتها إلى خراب وملكها فإلى زوال, ونعيمها فإلى انتقال, وصفوها فإلى كدر, وسرورها فإلى حزن. وتفرح وتترح وُتبهج وتنهج. فيا ساكن الدنيا لانتقال عنها سكنتها ويا مالكها لانقطاع مملكتك ملكتها. ويا قاطناً فيها للخروج منها قطنتها. ويا مقيماً بها للرحيل عنها أقمت فيها. ويا قائداً جيوشها فإلى غيرها قدتها. (صـ96)

(4) وفاة الإسكندر وحمله فى تابوت الذهب إلى أمه وكلامها عند نظرها تابوته:

ولما مات الإسكندر فى أرض بابل, حمل فى تابوت من ذهب إلى أمه بالإسكندرية. فلما وضع تابوته بين يديها, كشفت عن وجهه ثم قالت " واعجباً ممن بلغت السماء حكمته, وأقطار الأرض مملكته, ودانت له الملوك هيبة, وأقرت بالعبودية له عنوة, وخضعت له الأسود, مخافة, أصبح اليوم نائماً لا يستيقظ وصامتاً لا يتكلم, ومحمولاً على يدى من كان لا يناله بصره.

ألا من بلغ عنى الإسكندر بأنه قد وعظنى فاتعظت وعزانى فتعزيت وصبرنى فصبرت, وسلانى فسلوت, وذكرنى فذكرت, وأدبنى فتأدبت, ونهانى فانتهيت, وعلمنى فتعلمت, ولولا أنى لاحقة به وسالكة حيث سلك, وصائرة إلى ما صار, لبكيت وأعولت. فعليك السلام حياً وهالكاً. فنعم الحى كنت ونعم الهالك أنت" (صـ97)

(5) حضور جماعة من الفلاسفة وحكماء الأمم حمل تابوت الإسكندر ببابل وقول كل واحد منهم:

وكان من خبر الإسكندر حين هلك، أنه جعل فى تابوت من ذهب، ثم انطلقوا به محمولاً يحمله الأشراف والعظماء وأهل البيوتات على عواتقهم، حتى أتوا به الإسكندرية فوضع نصب أعين من حضر من أهل مملكته وأهل الفلسفة ليتكلموا بكلام يحفظ عنهم، ويكون عبرة وموعظة.

ثم تكنفه ذوو القرابة له قبل أن يحمل من بابل وهو بين أيديهم. فقال زعيم القوم وأولاهم بالمصيبة به: هذا يوم عظمت فيه الفتن، وكشف فيه غطاء الملك. وأقبل من شره ما كان مدبراً, وأدبر من خيره ما كان مقبلا. فمن كان باكياً على ملك فليبك ، ومن كان متعجباً من أمره فليتعجب . ثم أقبل

على الفلاسفة فقال: ليتكلم كل واحد منكم بما يعزى به الخاصة، ويعظ به العامة. (صـ98) فقال كل واحد منهم قولته ومنها مثلاً : ويح الإسكندر! ما أشبه خروجه من الدنيا بسقوطه إليها. سقط إليها غريبا لا يملك شيئا وخرج منها مسلوبا لا يملك شيئا (100)

آداب أبقراط

قال: منزلة لطافة القلب فى الأبدان كمنزلة النواظر فى الأجفان.

وقال: للقلب آفتان وهما الغم والهم. فالغم يعرض منه النوم، والهم يعرض منه السهر. وذلك أن الهم فيه فكر الخوف مما يكون: فمنه يكون السهر، والغم لا فكر فيه، إنما هو بما قد مضى (صـ120)

آداب جالينوس

قال: " الهم فناء القلب، والغم مرضه" ثم بين ذلك فقال:" الغم بما كان والهم بما يكون". وفى موضع آخر:" الغم بما فات، والهم بما يأتى. فإياك والغم فإنه ذهاب الحياة. ألا ترى أن الحى إذا غم وجهه تلاشى من الغم " (صـ122)

وقال، وقد ذكر عنده القلم فقال: القلم طبيب المنطق

ومن كلامه فى العشق: العشق من فعل النفس وهى كامنة فى الدماغ والقلب والكبد. وفى الدماغ ثلاثة مساكن: التخييل فى مقدمه، والفكر فى وسطه، والذكر فى مؤخره. وليس يكمل لأحد اسم العاشق حتى يكون إذا فارق من يعشقه لم يخل من تخييله وفكره وذ كره.

آداب لقمان الحكيم قال: الصبر صبران: صبر على ما تكره فيما ينوبك من الحق، وصبر عما تحب فى ما يدعوك إليه الهوى.

وقال: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكر لك، فإنه لابقاء للنعمة إذاُ كفِرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

ثلاثة لا يعرفون إلا ثلاثة مواطن: الحليم عند الغضب، والشجاع فى الحرب، وأخوك عند حاجتك إليه.

وقال: إياك والكذب، فإنه أحلى من لحم العصفور ومتى تعودته لم تصبرعنه. وإن القلب ليحيا بالكلمة الواحدة من الحكمة كما تحيا الأرض بالوابل من المطر(صـ129)

آداب هرمس

قال : الغنى وطن، والفقر غربة. والطمع رق,واليأس حرية.
ما أقل منفعة المعرفة مع غلبة الشهوة، وما أكثر قلة المعرفة مع ملك النفس.
من تولى أمراً من أمور الناس، وجب عليه أن يكون ذاكراً لثلاثة أشياء:
أحدها أن يده وحدها مطلقة على قوم كثير، وأن سلطانه إنما يثبت مدة، وأن الذين أطلقت يده عليهم أحرار، لا عبيد.
الأدب صورة العقل: فحسن أدبك وعقلك / كيف شئت. (صـ133)

آداب أنوشوس

قال فى القلم: أفضل الأصوات صوت الإنسان الذى يتهجى وتتبين منه حركة العقل. وأفضل الآلات: القلم، إذ تقيده على الأبصار.
إذا خبث الزمان، كسدت الفضائل، وضرت، ونفعت الرذائل، وصار خوف الموسر أشد من خوف المعسر.
اطلب فى الحياة العلم والمال لتحوز بهما الرئاسة على الناس، لأنك بين خاص وعام: فالخاصة تفضلك بما تحسن، والعامة تفضلك بما تملك.
الذهب فى الدار مثل الشمس فى العالم.
موت الرؤساء أفضل من رئاسة السفلة.
إذا بخل الملوك كثر الإرجاف بهم.
التدبير مع الكفاف / أكفى للمرء من الكثير مع الإسراف. (صـ137)

آداب سولون

قال فى القلم: القلم صغير الكمية، وقد فاق كل كبير فى الكيفية، وهو الذى لم يقع إلينا علم إلا وقد وطئه حده، وجرت به شباته وملك زمامه. الخط بالقوة فى كل إنسان، لكن لا يخرج إلا بالقلم من ذوى الحكمة.
أمور الدين والدنيا تحت شيئين أحدهما تحت الآخر وهما السيف والقلم.
والسيف تحت القلم.

لا يضبط الكثير من لا يضبط نفسه الواحدة
إذا أحببت أن يدوم حبك لأحد, فأحسن أدبك
الجزع أتعب من الصبر.

آداب إقليدس

قال: الخط طول بلا عرض.
الخط إظهار ما فى الضمير بالكتابة. وأحسن الصيغ صيغ الخط الذى هو حلى العقول.
وكان يخطط الصور الهيولانية والكرية تخطيطاً ويقول: ما خطته الأقلام لا تطمع فى دروسه (أى محوه وانتهائه) الأيام. أولا ترى أن الخط ضئيل له معنى جليل.
من جلالة القلم أنه لم يكتب لله– عز وجل – كتاب إلا به.

الخط هو أول ما أظهرته النفس بعد الارثماطيقى، وهو هندسة روحانية تظهر بواسطة الجسد، مثل الصحيفة إذا لم يكتب فيها حكمة، وإن كانت بيضاء كالأرض ذات التربة السوداء. فإذا سودت بالكتابة، افترت عن أنوار الأقاحى، وأزهرت بالحكم، كالأرض الزاهرة بأنوار الزهر المونق. (صـ143)

مكاتبات الحكماء وأجوبتهم

وكتب حكيم إلى آخر يشكو إليه دهره فأجابه: إنه ليس من أحد أنصفه زمانه فتصرفت به الحال حسب استحقاقه. وإنك لا ترى الناس إلا أحد رجلين: إما متقدم أخره حظه، أو متأخر قدمه حظه، فأرض بالحال التى أنت عليها، وإن كانت دون أملك واستحقاقك اختياراً, وإلا رضيت به اضطراراً. (صـ 148)
وكتب رجل إلى حكيم يشكو إليه تعذر الأمور عليه. فأجابه:
يا أخى، إنك لن تنال ما تحب حتى تصبر على كثير مما تكره. ولن تنجو مما تكره حتى تصبر عن كثير مما تحب والسلام.(صـ149)

آداب الإسكندر بن فيلفوس المقدونى، المعروف بذى القرنين

وفى ختام تعليقاتى على هذا الكتاب الممتع (آداب الفلاسفة) لحنين بن اسحق، يهمنى أن أقول إن رؤيته تقوم على أساس مقومات واضحة، هى تأكيد الإيمان بالله والإشارة إليه تلميحا أو

تصريحا فى كثير من المواضع. وكذلك تأكيد حقيقة الموت وأنه نهاية لكل كائن حى وتصوير ذلك بإيراد وقائع تاريخية مثل موت الاسكندر وفناء الملك أو أراء فلسفية, وأقوال دينية مع التأكيد الشديد على أهمية العقل والتفكير العقلانى ثم الإشارة إلى أهمية الفن ودوره فى إمتاع النفوس وإشباع الأرواح، والى عظمة القلم فى نقل رسالة العلم والدين وفى هذا تعظيم لرجال الفكر والأدب جميعا.

وفى آداب سولون" يلخص حكمة السياسة وهى أن أمور الدين والدنيا تحت شيئين: أحدهما تحت الآخر وهما السيف والقلم.

وهنا يذكرنا بقول أبى تمام :

السيف أصدق إنباء من الكتب

فى حده الحد بين الجد واللعب

وهو أمر لا يزال موضع جدل خصوصاً فى عصر الفضاء والصواريخ عابرة القارات التى جاءت عن طريق العلم والعلم وحده.

15- آثار حركة الترجمة العربية:

انتقلت العلوم اليونانية من مراكزها الأصلية فى الإسكندرية وأثينة إلى الشرق، فكانت الأماكن التى ازدهرت فيها هذه العلوم هى الأماكن التى تتكلم السريانية والفارسية مثل الرها و نصيبين Nisibin والمدائن وجنديسايور فى خوزستان بالنسبة للنساطرة، ثم إنطاكية وآمد بالنسبة إلى اليعاقبة, وإلى جانب ذلك كانت هناك مدارس فى الأديرة اسمها بالسريانية " اسكول " المأخوذة من كلمة scholae. لقد صنع العرب من هذا اللفظ كلمة " اسكول " وهى تدل على مدرسة مسيحية أو مدرسة ملحقة بدير.

لقد كانت حران مع المدن السورية المهمة الأخرى مراكز علمية تقوم فيها الدرسات العلمية والفلسفية والدينية – الكنسية. ولما جاء المسلمون حافظت تلك المراكز على مكانتها وأهميتها العلمية لجهل الفاتحين باللغة الإغريقية واللاتينية، التى يتقنها الكثير من أبناء السريان المسيحيين منهم والوثنين. وقد أشار فيليب حتى إلى ذلك حين قال:

"ولكن العرب لم يعرفوا اليونانية فاعتمدوا فى أول أمرهم على ترجمات أخرجها لهم اليهود والوثنيون والنصارى وخاصة النساطرة من النصارى، وكانت طريقة هؤلاء الآخرين وهم سريان ان ينقلوا الكتاب اليونانى إلى لغتهم السريانية ثم يترجموه بعدئذ من السريانية إلى العربية. وهكذا اصبحوا أعظم حلقة للاتصال بين الثقافة الهلينية وبين الإسلام. فالثقافة الهلينية لم تصل إلى العقل العربى إلا عن طريق اللغة السريانية."

ومما لا شك فيه أن اهتمامات الحرانيين من الصابئة والوثنين بالفلك والرياضيات وتميزهم فيها يعود فى الأغلب إلى عبادة النجوم والكواكب السيارة والعناية بمواقيتها ومراقبة مواقعها ومدارات أفلاكها. (د.حسين قاسم العزيز– دور المراكز الثقافية فى تفاعل العرب والمسلمين الحضارى)

وفى الرها كانت تقوم دراسات ومجادلات دينية مذهبية، بين اليعاقبة، والنساطرة مما جعل دراسة الفلسفة والمنطق حاجة ضرورية للدفاع عن المذاهب الدينية ضد المخالفين.

كانت دوافع النساطرة السريان إلى تعلم اللغة الإغريقية ودراسة العلوم اليونانية فى المدن السريانية ضرورة حيوية لمواجهة ما كان يوجه إليهم من اضطهادات من جانب الأرثوذكس فى

الإسكندرية وفى القسطنطينية. وقد كشف بروكلمان عن دوافع أعمق حين قال: " والواقع ان دراسة هذه العلوم لم تنقطع يوما من الأيام فى الأديرة السورية، ذلك لأن لاهوت آباء الكنيسة الإغريقية، وفى جملتهم ثاودورس المصيصى ذو الأثر العظيم فى التفسير النسطورى للكتاب المقدس، لم يكن ليفهم من غير الرجوع إلى المصطلحات التى استمدها هذا اللاهوت من الفلسفة الارسطوطاليسية. ولكن الرياضيات والعلوم الطبيعية استطاعت دائما أن تحظى ببعض الاهتمام أيضا، على الرغم من ان العناية بالمسألة الفكرية كانت محصورة عند السوريين فى أيدى رجال الدين"

وقد اشتهر من أهل الرها يعقوب الرهاوى (640- 708 م) الذى اصبح أسقفا عليها للمذهب اليعقوبى (684-688) والذى انصرف إلى التأليف وأعاد النظر فى ترجمة الكتاب المقدس المعروفة ب(البسيطة) وفى تتمة تاريخ اوسابيوس القيصرى (265 – 339) ومنهم ثيوفيلوس ثاوفيل بن توما الرهاوى المارونى (توفى785م) الفلكى الذى أقام فى قصر المهدى ،ثالث خلفاء بنى العباس، وترجم الإلياذة والأوديسة إلى اللغة السريانية. وقد ترجم قسما من إلياذة هوميروس إلى العربية غير أنها لم تحدث – كما ذكر حتى – أدنى أثر فى حياة العرب الفكرية ولم تعمر طويلا ومنهم ثيودوروس أبو قرة (ت حوالى 820 م) الذى ولد فى الرها وكان راهبا فى دير مارسابا (فى فلسطين) وتلميذ للقديس يوحنا الدمشقى, والذى اصبح أسقفا لحران وله مؤلفات جدلية مع الهراطقة واليهود والمسلمين بعضها باليونانية ومنها بالعربية دافع فيها عن أهم العقائد المسيحية. (نفس المصدر السابق)

جند يسابور:

" رحل السريان إلى جنديسايور هرباً من اضطهاد أباطرة بيزنطة وأساقفتها للمذهب النسطورى الذى اعتنقوه. وكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى شغل بالخلافات الدينية ومحاربة الهرطقة وقد شغلوا بهذا كله عن العلوم والفلسفة وبقيت الكتب العلمية فى مكتبات بيزنطة بعيدة عن متناول الباحثين خوفاً عليهم من الزيغ. واحتفظ السريان بكتبهم المترجمة وحملوها إلى منفاهم.

لقد ساعد تواجد المهاجرين السريان فى إيران على توفير مستلزمات الدراسة العلمية. فإن امتلاكهم ناصية اللغة السريانية الأكثر شيوعا فى الأوساط العلمية فى تلك الأزمان مكنهم من نقل التراث الإغريقى العلمى والفكرى بمختلف فروعه، وان كان نصيب الطبية منها أوفر. ومن ناحية أخرى ساعدهم التواجد فى إيران على تعلم اللغة الفهلوية التى مكنتهم من الاطلاع والتزود بعلوم وفلسفة

إيران والهند، حيث سبق وان نقلت عن السنسكريتية إلى الفهلوية معارف الهند العلمية والطبية وفلسفتها، فامتزجت بذلك معارف الشرق والغرب مما ساعد على توفر أساس القاعدة العلمية التى نهضت بها مدرسة الطب اليونانية السورية، والتى نشأت فى جنديسابور فى عهد كسرى أنو شروان (531- 579 م.وقد ارتقى الطب السريانى فى جنديسابور بحيث تفوق كثيرا على طب البلاد المجاورة بما فى ذلك بيزنطة وأنطاكية والإسكندرية.

وهذا ما جعل المنصور العباسى (159 هـ- 775 م) يستعين بأطباء هذه المدرسة لعلاجه. فعندما أصيب المنصور بمرض أفقده شهيته للطعام وفشل أطباء بغداد فى علاجه استقدم جرجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسايور(148هـ-775م) وقد نجح هذا الطبيب النسطورى فى مداواته وتحقق له الشفاء فنال بختيشوع حظوة لدى الخليفة وأصبح طبيبه الخاص وتوارث أبناؤه وتلاميذه هذه المكانة عند خلفاء الدولة العباسية على مدى ثلاثة قرون كانوا هم خلالها أطباء البلاط وعلماء الطب.

مدرسة بيت الحكمة فى بغداد:

وهكذا انتقل مركز الطب والعلوم والترجمة إلى بغداد وأخذت حركة الترجمة تزدهر حتى بلغت أوج عظمتها فى عصر المأمون." إذ صار بيت الحكمة" أهم وأعظم معهد علمى وثقافى بعد أن خفتت أضواء مدرسة الإسكندرية التى أنشأها بطليموس سوتر فى المتحف قبل الميلاد بثلاثة قرون.

وكان" بيت الحكمة" هو حجر الأساس لمدرسة بغداد التى ظل تأثيرها حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، ويرجع الفضل إلى هذه المدرسة الزاهرة فى الحفاظ على استمرارية الحضارة و إصلاح سلسة المعارف الإنسانية التى حطمها بقسوة فى القرن السادس الميلادى اضمحلال روما و سقوطها.. ولو اقتصر دور الحضارة العربية الإسلامية على مجرد إنقاذ العلوم القديمة والحفاظ عليها بعناية ثم نقلها للأجيال التالية، لكانت هذه خدمة تجل عن الوصف.

وقد مرت حركة الترجمة حسبما يقول سانتلانا فى محاضراته بالجامعة المصرية عام 1911/1910م بثلاثة أدوار:

أولها من خلافة المنصور إلى وفاة الرشيد (136 – 193 هـ).

ويمتد ثانيها من ولاية المأمون حتى موت حبيش ابن الأعسم أخر أتباع مدرسة حنين بن اسحق (198 – 300 هـ). وبنهاية هذه المدرسة تم للمسلمين اجتياز مرحلة النقل والترجمة بوجه عام.

وانتقلوا بخطى سريعة إلى مرحلة الإنتاج الخصب الأصيل المبتكر، كنتيجة لتفاعل الفكر الأجنبى الدخيل مع التراث الإسلامى الأصيل.

وامتد الدور الثالث حتى منتصف القرن الرابع للهجرة. ولكن غزوات المغول (فى منتصف القرن الثالث عشر لميلاد المسيح) قد دمرت حضارة الإسلام على نحو ما أشرنا من قبل.

و فى الدور الأول من أدوار الترجمة، نقلت أهم شروح أرسطو وشروح الإسكندرانيين عليها، وبعض مؤلفات أفلاطون وأهم كتب جالينوس فى الطب. وترجم فى الجملة أهم ما وصل إليه العقل اليونانى فى العلم والفلسفة. وترجم ابن المقفع" كليلة ودمنة" من السنسكريتية. كما نقل غيره "السند هند "من الهندية" ومنطق" أرسطو وكتاب "المجسطى"" فى الفلك. ومن أشهر المترجمين فى هذا الدور جورجيس بن جبريل ويوحنا بن ماسويه وابن المقفع. وفى هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب المترجمة ، فالنظام عرف أرسطو وقرأ بعض كتبه فى الفلسفة، فتأثرت أبحاثهم بالمنطق وتكلموا فى الطفرة والجوهر والعرض وغيره.

و فى الدور الثانى من أدوار الترجمة سالفة الذكر كان أشهر مترجميه يوحنا ابن البطريق، وقد ترجم الكثير من كتب أرسطو، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، والحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفى (عاش سنة 314 هـ) وقسطاً بن لوقا البعلبكى(عاش سنة 230 هـ) و عبد المسيح بن ناعمه الحمصى (عاش سنة 320 هـ) وحنين بن اسحق ،شيخ المترجمين (ت 260 هـ) وابنه اسحق(ت 298 هـ) وقد عنى بكتب الفلسفة عناية أبيه بالطب، وثابت بن قرة (ت 288) وحبيش بن الأعسم ابن أخت حنين(ت301 هـ / 911) وغيرهم.

و فى هذا الدور ترجم هؤلاء المترجمون أهم الكتب اليونانية فى كل فن وأعيدت ترجمة المجسطى لبطليموس فى الفلك، والحكم الذهبية لفيثاغورس، وعدة مصنفات فى الطب منها تصانيف لبقراط وجالينوس ومحاورات طيماوس والسياسة المدنية والنواميس لأفلاطون، والمقولات لأرسطو. وكل ذلك ترجم على يد حنين بن إسحاق ومدرسته.

أما فى الدور الثالث من أدوار الترجمة فكان من أشهر مترجميه متى بن يونس (فى بغداد عام 320 هـ) وسنان بن ثابت بن قرة (ت 360 هـ) ويحيى بن عدى (ت 364 هـ) وابن زرعه (ت 398 هـ). وأهم ما ترجموه إلى العربية كان الكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو وتفسيرها، كما يروى

سانتلانا فى محاضراته، وابن النديم فى الفهرست وابن أبى أصيبعة فى " طبقات الأطباء" والقفطى فى " أخبار الحكماء " وجرجى زيدان في "التمدن الإسلامى".

و يشير المستشرق دى لاسى أوليرى فى كتابه عن الفكر العربى إلى أن التراث اليونانى قد ترجم إلى العربية عن طريق خمس طوائف هى :-

(1) النساطرة أكبر نقلة الطب وأول معلمى المسلمين.
(2) اليعاقبة الذين نقلوا الأفلاطونية المحدثة ونصوصها.
(3) الزرادشتيون الفرس ولا سيما أبناء مدرسة جنديسايور ومنهم نساطرة.
(4) الوثنيون الحرانيون.
(5) اليهود الذين كانوا بعد النساطرة أكبر مترجمى كتب الطب وبعد القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) أخذ الطب يتحول إلى أيدى المسلمين.

(نقلا عن كتاب" تراثنا الإسلامى" للدكتور توفيق الطويل (عالم المعرفة)

الفتوحات الاسلامية وأثرها

كان من نتيجة الفتوحات الإسلامية، أن انضوت كثير من الشعوب والأجناس من أصحاب الحضارات القديمة فى ظل الدولة الجديدة. واهتمت شعوب هذه الأمم ببعث تراثها العلمى والثقافى حماية له من الذوبان أو تحديا للهيمنة المفروضة عليهم، وفى معظم الأحوال حبا فى العلم لذاته ولخدمة الآخرين والدولة خصوصا بعد أن اهتم الخلفاء العباسيون بالترجمة والعلوم الأخرى كالطب والفلك والفلسفة والرياضيات. وكان لهذه الحركة العلمية أكبر الأثر فى ارتقاء العالم الإسلامى حينئذ فى البناء والمعيشة والحياة الاجتماعية. فقامت إذ ذاك كثير من المنشآت لخدمات المسلمين كالمستشفيات التى يسمونها بيمارستان مثل بيمارستان هارون الرشيد الذى أمر جبرائيل بن بختيشوع بإنشائه فى بغداد، ورأسه ماسويه الخورى. ولم يكد القرن الرابع يبدأ حتى انتشرت البيمارستانات فى أماكن كثيرة من الدولة الإسلامية، ونشط بعض الخلفاء كذلك فى إنشاء المكتبات فأنشأ الرشيد بيت الحكمة فى بغداد، وجمع فيها ما ألف فى العلوم الإسلامية وما نقل إلى العربية من كتب علم الطب فصارت قبلة العلماء ومقصد المترجمين. وازدهرت هذه المكتبة وطارصيتها لما تولى المأمون فزاد

عليها وعززها بما أوتى من حب للعلم وبحث عن الكتب. وقد أمر المأمون ببناء مرصد فى بغداد سنة 214هـ.

مكنت هذه الحركة اللغة العربية أن تصبح معبراً لعلوم اليونان والهنود وغيرهم وأن تحفظ كثيراً من هذه الآثار إلى العصر الحاضر بصورتها العربية، بعد أن فقدت نصوصها الأولى فى لغاتها القديمة، فحفظ بهذا جزء من التراث الإنسانى من الضياع وانتشل من كهوف النسيان والعدم. ومن هذا كتاب "كليلة ودمنة" الذى ضاعت أصوله السنسكريتية القديمة، وبقيت الترجمة العربية وهى التى خلدت الكتاب وقدمته إلى كل لغات العالم التى نقل إليها. وقد انقضى زمان طويل لم يعرف فيه لكتاب (الأصول) لإقليدس نسخة غير النسخة العربية، ومنها نقل إلى اللاتينية، وطبع فى البندقية (1482م – 887هـ) ومن ذلك كتاب"حجج ابرقلس على قدم العالم". فقد ضاع اصله اليونانى وبقى رد يحيى النحوى عليه، وبقيت الترجمة العربية للكتاب التى قام بها اسحق بن حنين إلى عصرنا الحاضر.

وفى مجال اللغة فإن الدكتور الذبيانى يرى أن آثار هذه الحركة العلمية كانت ذات وجهين أحدهما نافع والثانى ضار:

أما التأثير النافع فإن هذه الترجمة كانت أول محاولة لإدخال اللغة العربية إلى ميادين العلوم العلمية، والتعبير بها عن حاجات حضارية جديدة، وأفكار لم يعرفها العرب الأولون فبحثوا فى الطب عن أعضاء البدن الداخلية وأقسامها ووظائفها فى الجسم والأدوية وأثارها الصحية. وفى الرياضيات عن الجمع والكسور والقسمة وجبر الأعداد والصفر والجذور والمعادلات. وفى الطبيعة عن انكسار الضوء والخطوط والشعاع والمناظر. وفى الهندسة عن السطح والمثلث والمكعب وغيرها. فكان هذا ثراء للعربية وتوسعة فيها وهى اللغة القادرة على التمدد والتطور. وما كان للغة العربية ان تستوعب هذه العلوم دون هذا التغيير والنمو اللغوى الذى تسنده قدرة اللغة العربية وخصائصها اللغوية.
ويتجلى هذا التأثير والنمو اللغوى الجيد فى الآتى:
– نمو الثروة اللفظية العربية، وبناء المصطلح العلمى فيها عن طريق التوليد القائم على الحاجة العلمية أو التعريب السليم للمفردات الأجنبية.
شيوع الأسلوب العلمى بمصطلحاته، ومفرادته وتركيزه مما جعله ذا صفات خاصة مختلفاً عن الأسلوب الأدبى الذى كان معروفا عند قدماء العرب.

ويمكن أن يضاف كذلك إلى النشاط اللغوى عند العرب ما ينسب لبعض المترجمين من رسائل فى النحو السريانى أو اليونانى كالذى ينسب إلى حنين بن اسحق العبادى فى أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين. فقد كان من الممكن فى هذه الرسائل أن تكون بذرة لعلم اللغة المقارن عند العرب لو استمر التأليف فيها شرحت!

أما الأثر السيئ فى اللغة كما يراه الذبيانى فيتجلى فى النواحى الأتية:

دخول كثير من المفردات الأجنبية وتداولها بشكل أعجمى مما لا تحتاجه العربية أو تفتقر إليه – إذ كان المترجمون يوردون مثل هذا ليكسبوا تأليفهم شيئاً من الثقة بنقلها عن الأصول الأجنبية. ولقد حرص خلال هذه الحركة قوم من الفصحاء ومحبى سلامة اللغة أن تبقى العربية سليمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وجهدوا أن يضعوا لكل معنى أو مطلب جديد لفظاً عربياً فصيحاً كالذى يروى عن عبد الله بن المقفع (ت 143هـ) إنه وضع أسماء للمقولات الفلسفية تختلف عما اعتاده أهل هذه الصنعة.

من ذلك أنه استعاض عن كلمة (الجوهر) وهى فارسية بكلمة (العين) وهى عربية فصيحة– وما يروى عن يعقوب بن اسحق الكندى الفيلسوف أنه كان يستعمل كلمة (طينة) بدلاً من كلمة (هيولي) وهى يونانية بمعنى: المادة الأولى. ولكن هذه المصطلحات العربية القليلة لم تثبت كثيراً أمام سيل المصطلحات المعربة المتدفق الذى يقوم عليه المترجمون.

وكذلك شيوع أساليب المناطقة فى بعض المؤلفات والكتب. (حنين بن اسحق–دراسة تاريخية ولغوية– ص642)

وهذا كلام لا نوافقه عليه لأنه يعبرعن فكر متشدد ينظر للغة نظرة تقديس ويحاول عزل الفكر عن بنيته اللغوية لأن شيوع أساليب المناطقة بتأثير كتب المنطق واللغات المنقول عنها أدت الى ظهور الفرق والمذاهب الدينية مما شجع على إعمال العقل والتجديد فى الفكر وقيام المناظرات والجدل والحوار فيما بينهم. هذه الحركة العقلانية لا تنفصل عن المصطلحات التى أوجدتها حركة الترجمة. وقد استعان هؤلاء بالمنطق اليونانى وأقيسته فى الرد على الخصوم وتفنيد دعواهم– مثل رسالة على بن المنجم المسماة بالبرهان والتى أرسلها الى حنين بن اسحق وقسطا بن لوقا يدعوهما للدخول فى الإسلام ورد كل منهما عليها. وكذلك رسالة الجاحظ فى الرد على النصارى وما فيها من انتقاد لعقائد

النصرانية وهى التى أراد بها التقرب من الفقهاء المتشددين من مذهب السنة. وقد عرضنا لبعض هذه المجادلات التى دارت بين مسلمين ومسيحيين فى فصل سابق من هذا الكتاب. كذلك دار الحوار بين الفرق الإسلامية ذاتها. وقد كان لفرقة المعتزلة بعد أن مال المأمون الى أرائهم دور كبير فى كثير من المناظرات وكانت فكرة خلق القرآن هى مثار الجدال.

قال المسعودى"

قرب المأمون إليه كثيرا من الجدالين والنظارين كأبى الهذيل العلاف وأبى اسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقها وخالفها وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأسقد مهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا الجدل، ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد قوله."

مساحة الحرية التى نعم بها الكثيرون من العلماء والمفكرين كان لها الأثر الأكبر فى ازدهار حركة الترجمة والتأليف منذ زمن المتصور حتى زمن المأمون. وعندما اشتدت الفتن وزاد الشك وألغيت هذه المجادلات فى زمن المتوكل بدأت حركة الجذر والتراجع الفكرى بل ان التراجع شمل كل جوانب الحياة بعد قيام مذهب أهل السنة والجماعة، واشتداد جو التعصب الدينى والمذهبى. وكان ذلك إيذانا بأفول الحضارة العربية وسقوط العرب تحت حكم الأتراك العثمانيين وبداية عصور الظلام التركية التى لم تنتهى حتى الآن.

حركة الترجمة كظاهرة اجتماعية:

ويفسر ديمترى غوتاس فى كتابه (الفكر اليونانى والثقافة العربية– ص29–72) حركة الترجمة العربية بأنها ظاهرة اجتماعية فيقول:

إن حركة الترجمة التى بدأت مع تولى العباسيين السلطة وكانت بغداد مسرحها الرئيسى، تمثل إنجازاً مذهلاً، وبقطع النظر عن أهميتها الخاصة لفيلولوجية اللغتين اليونانية والعربية وتاريخ الفلسفة والعلم (وهى النواحى التى أمعن الباحثون فى درسها حتى اليوم) فإنه لا يمكن تفسيرها إلا على أنها

ظاهرة اجتماعية على أساس أن حركة الترجمة اليونانية العربية امتدت على مدى يزيد عن القرنيين، ولم تكن ظاهرة سريعة الزوال.
ثانياً: كان يساندها نخبة المجتمع العباسى بكامله: الخلفاء والأمراء وموظفوا الدولة والزعماء العسكريون والتجار وأصحاب الأعمال والعلماء، ولم تكن مشروعا خاصاً بفئة معينة لتسويق مشاريعها المحددة

ثالثاً: تم دعمها بتخصيص مبالغ مالية ضخمة عامة وخاصة، وتمت متابعتها على أساس منهجية بحث صارمة وضبط فيلولوجى دقيق- على أيدى حنين بن اسحق الشهير وزملائه- على أساس برنامج مسنود قد امتد عبر أجيال، والذى كان يعكس، فى نهاية المطاف، موقفاً اجتماعياً ، كما يعكس جو الثقافة العامة فى المجتمع العباسى المبكر، ولم يكن نتيجة اهتمامات شخصية أو عشوائية يقوم بها فرد أو أفراد.

لأن حركة الترجمة انطلقت واستمرت زمناً طويلاً بسبب من حاجات فى المجتمع العباسى الحديث على ما تنعكس فى بنيته وأيديولوجيته المترتبة على ذلك. وبناء عليه يرفض جوتاس التفسيرات السابقة أو النظرتين اللتين سادتا حتى اليوم.

وتدعى الأولى أن حركة الترجمة كانت نتيجة حماسة علمية لدى نفر من المسيحيين الناطقين بالسريانية كانوا يجيدون اليونانية (بسبب ما نالوه من تعليم) والعربية (بسبب الأحوال التاريخية المحيطة بهم) وقرروا أن يقوموا بترجمة كانت مختارة بدافع من نفع الآخرين لتحسين أحوال المجتمع أو حتى على فرض أنهم رموا إلى تعزيز موقع دينهم والنظرية الثانية، الشائعة فى التيار التأريخى العام، تعزوها إلى حكمة قلة من" الحكام المتنورين" وحرية تفكيرهم والذين شجعوا التعليم من أجل التعليم أصلاً على نحو ما حدث بالنسبة إلى أيديولوجية النهضة الأوربية إذ أسقط عليها لاحقاً أنها شجعت التعليم من أجل هذه الغاية.

ويستطرد غوتاس فى توضيح رأيه فيقول إنه لا ينكر أن المسيحيين الناطقين بالسريانية قاموا بدور أساسى فى حركة الترجمة: فقد كان غالبية المترجمين منهم، ومن المؤكد أنه لولا التأييد الفعال من الخلفاء البارزين فى الفترة العباسية المبكرة- مثل المنصور وهارون الرشيد والمأمون – فإن حركة

الترجمة كانت قد اتخذت منحنى مغايراً. ثم يتساءل عن الأسباب التى حملت المسيحيين السريان على ترجمة هذه الكتب أصلاً ،وما الذى حمل رعاة الترجمة أن ينفقوا مبالغ طائلة لندب فريق من المسيحيين السريان إلى ترجمة هذه الكتب ؟ أو حتى لماذا يعنى الخلفاء وهم عرب من العترة القرشية التى لم يكن يفصلها عن النبى (صلعم) سوى بضعة أجيال، بترجمة كتب يونانية؟

إن حركة الترجمة اليونانية– العربية كانت قضية عميقة الجذور وبعيدة الأثر من حيث النظرة التاريخية، ومن ثم فإن الدوافع لها ما كان لها أن تقع فى خانة أى من المقولات المعروفة. ومعنى هذا أن غوتاس يرفض تفسير هذه الحركة الثقافية على أساس طبقى، ففكرة البرجوازية التى يطبقها البعض على حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية فى أوربا القرن الثانى عشر لا تصلح للتطبيق هنا على حركة الترجمة العربية، ففكرة البرجوازية أو فكرة المعلمين العلمانيين التى تنبع منها تعبر عن تركيبة اجتماعية تمثل الحقيقة الاجتماعية لأوربا الغربية فى القرن الثانى عشر تمثيلا صحيحا، لكن وضع بغداد فى القرن الثانى الهجرى كان مختلفا. ويصعب فى رأيه، تطبيق فكرة الطبقة عليها، لأن الدعم لحركة الترجمة جرى عبر جميع الخطوط الدينية والمذهبية والإثنية والقبلية واللغوية.

إن الرعاة كانوا عربا وغير عرب ومسلمين وغير مسلمين وسنة وشيعة وقوادا عسكريين ومدنيين وتجارا وملاك أراضى. وقد امتدت أيضا الى الفترة البويهية (320–447هـ/ 934–1055م) ومن ثم فقد جاءها الدعم من تركيبات اجتماعية متباينة ذات طبقات مختلفة الواحدة عن الأخرى اختلافا بينا. وإذا فإن ما يعتبر طبقة عند الحديث فى تركيبة معينة يجب تفسيره ثانية فى الأخرى. وحتى فكرة العلماء، أى النخبة العالمة، وهى عنصر أساسى فى المجتمعات الإسلامية، لا تفيد فى هذه المسألة لأن هذه النخبة فى رأى غوتاس، كانت آخذة فى التكوين وتعد نتاجا لحركة الترجمة وليس سببا لها.

==========

مراجع الكتاب:

- **ابن أبى أصيبعة، موفق الدين أبى العباس الخزرجى "حنين بن اسحق" كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء". تحقيق عامر النجار– القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ج2.**

- ابن العبرى، غريغوريوس أبو الفرج. "حنين بن اسحق الطبيب" تاريخ مختصر الدول". ط 2. بيروت، الطبعة الكاثوليكية، 1958.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد: " حنين بن اسحق " الفهرست. إعداد جوستاف فلوجل. بيروت، مكتبة خياط، 1963..
- ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان لأندلسي. " حنين بن اسحق "
" طبقات الأطباء والحكماء "تحقيق فؤاد سيد .لقاهرة ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، 1955 .
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين " حنين بن اسحق " " وفيات الأعيان وأنباء الزمان ". جـ 1 القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، 1948 .
- احمد بن محمدين عبد الله الزبيانى- حنين بن إسحاق – دراسة تاريخية ولغوية -الرياض مطبعة مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض 1993.
- آى. إف ..ستون . محاكمة سقراط. ترجمة نسيم مجلى- المجلس الأعلى للثقافة 2002
- أرنولد توماس. تراث الإسلام ترجمة جرجيس فتح الله بيروت ، دار الطليعة ، 1972 ..
- البيهقى، ظهير الدين أبى الحسن. تاريخ حكماء الإسلام ، لاهور ، 1351 .
- خليل-الأب سمير خليل اليسوعى- " حنين بن اسحق"(فى الأعمار والآجال) المكتبة الشرقية – بيروت2001.
- فى الثقافة العربية- ترجمة نقولا زيادة.مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت.2002.
- دنلوب،دنلوب دو كلاوس- .كتاب الأخلاق لارسطو: ترجمة مدرسة حنين بن اسحق.بغداد مجمع اللغة السريانية، بالبرونيو-شباط 1974.
- رشيد الجميلى- حركة الترجمة فى المشرق الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع للهجرة- دار الحرية للطباعة -ببغداد. 1986م
- صلاح الدين المنجد-" مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب" مجلة مهد المخطوطات العربية.ج (1959)
- شيخو- الأب لويس شيخو- المحاورة الدينية بين الخليفة أمير المؤمنين المهدى وتيماثاوس مطبعة الآباء اليسوعين – بيروت 1923.
- القفطى ، على بن يوسف بن إبراهيم " حنين بن اسحق العبادى " إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ، مطبعة الخانجى 1326 هـ ..

- قنواتى– الأب جورج شحاتة قنواتى–المسيحية والحضارة العربية–
– قنواتى – جورج شحاته قنواتى. المادة الطبية لدى حنين. بغداد مجمع اللغة السريانية، بالرونيو ، شباط 1974 .
- مارلو – جون مارلو – العصر الذهبى للإسكندرية – ترجمة نسيم مجلى – المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة 2002
- عبد الحميد الحلوجى" حنين بن اسحق" تاريخ الطب العراقى. بغداد، مطبعة أسعد،1967.
- ماهرعبد القادر" حنين بن اسحق والعصر–الذهبى للترجمة".
- مايرهوف، (الدكتور) ماكس مايرهوف." حياة حنين بن اسحق ومؤلفاته" كتاب العشر مقالات فى العين. القاهرة، المطبعة الأميرية، 1928.
- هونكة، (الدكتورة) سيجفريد هونكة. فضل العرب على أوربا. ترجمة د. فؤاد حسنين على. القاهرة، مطبعة الرسالة، 1964.

بحوث ومقالات

وبعد نصف قرن تقريبا عقدت فى مؤتمر المستشرقين بباريس فى يوليه 1973 حلقة خاصة حول حنين بن اسحق، عولجت فيها جوانب من نشاطه وآثاره، ونشرت أبحاث هذه الحلقة فى عدد خاص من مجلةِ Arabicج2 (أكتوبر 1974) كذلك أقيم فى بغداد مهرجان بعنوان" أفرام وحنين" فى فبراير1974، وقدمت فيه مجموعة الأبحاث التى ذكرناها فى الفصل الأول.

========

مؤلف الكتاب:

-

- **ولد فى 10 يولية 1934 بسمالوط محافظة المنيا.**
- **حصل على ليسانس الآداب فى اللغة الإنجليزية من جامعة القاهرة 1960.**
- **حصل على دبلوم الدراسات العليا فى النقد 1970 من أكاديمية الفنون.**
- **عمل بتدريس اللغة الإنجليزية بالمدارس الثانوية وأكاديمية الفنون ولجامعة القاهرة.**
- = **حصل على جائزة التفوق في الأداب في 2013 من المجلس الأعلى للثقافة.**

من مؤلفاته النقدية:

1- المسرح وقضايا الحرية الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984

2- أمل دنقل- أمير شعراء الرفض المركز القومي للإبداع 1988

3-ابن سينا القرن العشرين (محمد كامل حسين) الهيئة العامة للكتاب .1988

4-لويس عوض ومعاركه الأدبية الهيئة العامة للكتاب 1994

5--صدام الأصالة والمعاصرة (لويس وشاكر) كتاب الأهالي 1998

6- حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية المجلس الأعلى للثقافة 2006

7- بطرس بطرس غالى وحلم المدينة الفاضلة دار الشروق 2010

مسرحيات:

1- القضية الهيئة العامة للكتاب 1978

2- المجنونة الهيئة العامة للكتاب 1988

3- لقاء على القنال مجلة آفاق المسرح 1999

4- مأساة طبيب الخليفة مجلة "مسرحنا" 16يونية 1914

ج – ومن ترجماته:

1- بريخت الهيئة العامة للكتاب 1972

2 – فرانز كافكا البرنامج القومى للترجمة المجلس الأعلى للثقافة 2000

3- محاكمة سقراط ---------- ---------- 2002

4-العصر الذهبى للإسكندرية ------- --------- 2002

5- كيف نقرأ ولماذا؟ المركز القومى للترجمة 2010

بالإضافة إلى ست مسرحيات وكتابين لشاعر نوبل الأفريقى وول شوينكا.